كتاب التعاون

الزمن الممزق

ثروت أباظة

الغـــلاف :

الفنـان : جـميـل شـفـيق

سكرتير التحرير التنفيذى :

نـزيـه عبـد الغنـى

مؤسسة دار التعاون
للطبع والنشر
كتاب التعاون

رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد
رئيس التحرير:
سعيد نور الدين

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٣

السلطان والبهلوان

هذه قصة طوتها يد النسيان من قصص ألف ليلة وليلة . . وربما رواها الرواة ولكنها لم يكن لها حظ الإثبات بين دفتى كتاب ولست أدرى أسمعتها فأرويها أم تخيلتها كما يتخيل المؤلفون فسعيت إليك بها . . أقصها عليك فيما تعودت أن أقص عليك .

يحكى أنه فى زمن من الأزمان ولى الحكم سلطان طاغية جبار . . لايطيب له الحكم إلا بالحديد والنار . يقتل الناس لأهون الأسباب ويغتصب الأموال فهى له أسلاب ويستحل كل حرام ويعامل الناس بالإجرام نشر جواسيسه فى كل مكان وبث عيونه بجميع الأركان والويل والثبور لمن قال لا إله إلا الله فالموت ينتظر كل أهله وذوى قرباه أمر السلطان ألا يغادر أحد البلاد ومعه أمواله فاضطر كل فرد فى الشعب أن يرضى بحاله . وأقفل جميعهم فمه حتى لايريق الجبار معه وصار الناس لايتكلمون إلا همسا فإذا مررت بالديار فلن تسمع حسا وامتنع عن الاجتماع فى الأماكن العامة فقد كانوا يخشون إذا اجتمعوا أن تقع عليهم الطامة وكان المكان الوحيد الذى يضطرون أن يحتشدوا فيه هو السوق وهو مكان مرموق لايجرؤ فيه أحد أن يتكلم فى غير التجارة فقد كانوا يعلمون أن الجواسيس قد تكون فى جداره وان عيون السلطان تحصى أنفاسهم وتكاد تمسك الكلمة التى تدور فى أذهانهم .

وكان للسلطان وزير على شاكلته يحبب إليه كل ظلم ويحل له كل قبيح فإذا حرم الله هو يبيح وإن منع الشرع فهو يتيح كان كلبا عقورا ويظل طول ليله مخموراً حتى إذا صحا الصباح لايشعر به الوزير اذا لاح فهو من خمر الأمس سكران وإن بدا وكأنه يقظان فهو مفتوح الأجفان ولكن بعقل نعسان يلوح لمن يراه كأنه يفهم ما يقال بينما هو من السكر فى شر حال .

نزل السلطان والوزير إلى السوق متخفيان يريدان أن يريا الناس رأى عيان ولم يطل انتظارهما فسرعان ما شهدا الناس لاتقول إلا ما يسر الطاغية وما يجعل نفسه راضية ولم يحاول واحد منهما أن يشهد الحزن الذى يتحرك فيه الناس ولا البؤس الذى يسيطر عليهم من شدة اليأس فعين الطاغية ومعاونيه لاترى إلا ما يرضيها ويرضيه .

وبينما السلطان والوزير يتخذان من مكانهما ستارا خفيا رأيا بهلوانا يطوى السوق طيا ويقف إلى جانب حصان هزيل له صاحب أشد منه هزالا فهو فى وقفته يميل واقتربت رأس البهلوان من المالك المتهالك ثم اعتدل الرأسان وقد وضحت أمامهما المسالك وبدا البهلوان يصيح مفتريا صفات البطولة للحصان القبيح فهو الأسد الواثب وهو فى الميدان هو الغالب وتقاطر الناس من كل حدب وتجمعوا حوله من كل صوب وراح هو يجعل الحديث فى كذب مفضوح ويسويه حتى وجد الحصان من يشتريه وفرح البائع أى فرح وأعطى البهلوان نصيبا من الثمن فأكرم وسجع .

ثم رأى السلطان البهلوان ينتقل إلى حمار شأنه شأن الحصان الواهن الضعيف ويقول عن الحمار فيزيل من هزاله وإلى قوته يزيد ويضيف. ويباع الحمار ويجنى البهلوان الثمار ويتكرر فعل البهلوان والسلطان الوزير مندهشان .

قال السلطان لوزيره .

ـ أريد هذا البهلوان .

وقال الوزير .

ـ لك الأمر وعلى الطاعة ولكن هل لى أن أسأل سؤالا حائرا فى نفسى لايجد إجابة .

وقال السلطان .

ـ القاعدة الأصلية أنك لاتملك السؤال فهو ليس من حقك ولكن وقد قلت ما قلت فإنك أثرت فى نفسى حب الاستطلاع .

فاسأل سؤالك على سبيل الاستثناء لا القاعدة والاستثناء كما تعلم لايقاس عليه ولايتوسع فيه .

ـ فيم تريد هذا البهلوان الحقير وهو إنسان لاقيمة له لم نسمع منه إلا كذبا ولم يقل إلا الزور والبهتان .

ـ كنت أحسب أنك فهمت .

ـ لا وحياتك ما فهمت .

ـ لو لم تكن طول ليلك سكرانا ما فاتك ما قصدت له ولاغبيت ما هدفت إليه .

ـ أنا الآن على الأقل لست فى حالة سكر .

ـ بل أنت فى حالة خمار دائم من مخلفات السكر ومما بك من الخمر فشراب المساء تبدو عليك آثار منه شديدة فى الصباح .

ـ لا أستطيع أن أعارضك .

ـ ولا يستطيع أحد .

ـ ولكننى مازلت لا أرى فيم تريد البهلوان .
ـ ألم تر كيف هو ماهر فى إتمام الصفقات .
ـ ولكنك يا مولاى السلطان لا تعقد صفقات فإنك إذا أردت شيئا من ملك غيرك أخذته بالأمر من غير شراء وإن أردت أن تبيع فرضت الثمن ونلته فما انتفاع عندك ولا شراء .
ـ ومن قال لك إننى أريده لبيع أو شراء .
ـ ففيم إذن .
ـ إذا خالط هذا البهلوان الناس ودخل إلى البيوت وراح يمتدح السلطان جعل الناس يصدقون مديحه ولايكرهون السلطان ولا يبغضونه .

ومنذ متى يا مولاى تهتم برضاء الناس أو سخطهم .
ـ أليس من الأحكم أن أصنع بهم ما أشاء ومع ذلك أجعلهم يمدحون بدلا من أن يذموا .
ـ وهل يجرؤ أحد على ذمك .
ـ إنهم جميعا يذمون السلطان فى دخيلة نفوسهم .
ـ وماذا يهمك من دخيلة النفوس .
ـ إن تكن راضية خير من أن تكون ساخطة .
ـ وهل تظنها سترضى .
ـ ربما .
ـ أيستطيع هذا البهلوان أن يصل إلى خافية الصدور .
ـ يستطيع على الأقل أن يجعلهم يلتمسون العذر لأنفسهم فلا تبدو نفوسهم أمامهم مهينة ويهيئون لأنفسهم أنهم يقبلون حكمى وهم به راضون وأنهم ليسوا جبناء ولا ضعفاء مهازيل .
ـ قلت الصواب يا مولاى السلطان .
ـ فالتمس لى هذا البهلوان .
ـ سأحضره من فوره ولكن هل أخبره من يريده .
ـ بل اكتم حقيقتى عنه .
ـ فماذا أقول .
ـ قل تاجر من كبار التجار واسع الثراء موفور المال .

وانصرف الوزير الوسنان . . وما لبث أن عاد بالبهلوان ووضعه بين يدى السلطان .
ـ ما اسمك أيها البهلوان .

ـ عبدك يا مولاى .
ـ أو عرفتنى .
ـ منذ شرفت السوق يا مولاى .
ـ يا لك من داهية .
ـ دهائى كله ملكك .
ـ إذن فانت تعرف فيم أريدك .
ـ إذا لم أكن عرفت من أول وهلة فلست جديرا باستدعائك لى .
ـ فهل تستطيع أن تقوم بما انتدبتك له .
ـ وأكثر .
ـ قبل أن تذهب إلى الأكثر قل لى فيم اردتك لاختبر مقدار ذكائك .
ـ تريدنى أن أجعل الناس يمتدحونك فى دخيلة نفوسهم كما يطيعونك فى جهير أقوالهم .
ـ أصبت فهل تستطيع .
ـ لك أن تجربنى .
ـ وما الأكثر .
ـ أن أجعلك أنت دائم السرور موفور الحبور .
ـ بالكذب والتحايل .
ـ بل براوية دخائل الناس ومخبوء أسرارهم وكل ظريف وطريف من أحوال معيشتهم .
ـ هل أنت أيضا صاحب حكاية .
ـ لن أقول لا أو نعم حتى تشهد لى .
ـ ولكنك لم تقل ما اسمك .
ـ خادمك الأمين حسونة هنداوى .
ـ ومتى تبدأ عملك .
ـ لقد بدأته فعلا يا مولاى .

وضحك السلطان فى سرور واستظرف واستأذن حسونة فى إلطاف وما لبث أن بدأ العمل فى غير تأخر ولا مهل وراح يندس بين الجموع ويختلق المحامد للسلطان ويذيع ولم يلحظ الأبله الموهم أن الناس تستمع إليه فى وجوم . وأنها تدعو للسلطان فى الظاهر لأنها لاتملك أن تقول ما يدور بالخاطر وكلما فشا حسونة فى الشعب ضحك السلطان من القلب وجهل أنه قد يستطيع أن يضحك سلطانا ولكنه لايستطيع أن يخدع إنسانا .

ومر الزمان واستدار وجاء موعد آلسلطان الجبار القاهر فوق عباده والذى لايخرج شيء عن مراده .

وانقلب الحال إلى حال جديد وانتهى زمن حسونة والوزير غير الرشيد وذهب الوزير إلى كسرة من زاوية النسيان ولكن حسونة أراد أن يغالب الزمان فنزل إلى الناس فى السوق فإذا هم يضربونه ضربا لم يذقه مخلوق وهو يجرى أمامهم مذعورا ويتخاضع لهم مذلولا مدحورا .

واصبح دأب حسونة منذ ذلك اليوم أن يظل قابعا ى بيته بعض الوقت ثم يعود إلى الناس أملا فى أن يكونوا قد نسوا ما أحاطهم به من وهم . ولكنهم كلما عاد إتخذوه ضربا وشتما وحملوه وما يطيقون ولايطيق غما وهما وظل فى هذه الحالة وسنته حتى توارى فى تربته .

وهكذا ترى آن دولة الظلم ساعة ودولة احق إلى قيام الساعة قصة وقعت فى يدى بعد أن اخطأت طريقها إلى مؤلفى ألف ليلة وليلة نقلتها إليك راجيا رضاءك أملا أن تقع من نفسك فى خير مكان .

●●

ملبس أجرب لزمن ممزق

ما هذا الزمان الذي أصبحت فيه القداره هي مظهر الأناقة والصعلكة هي التطور والملابس الممزقة هي مجاراة العصر ومظهر إشراقه وجماله . لقد تمزق العصر وظهر تمزقه على الملابس . وأصبحت القيم هي الأخرى جرباء فأصبح الملبس أجرب .

رأيت نساء حليقات الشعر كأنهن الرجال . بل رأيت في التليفزيون الفرنسي إمرأة ملونة بلا شعر على الإطلاق ومازال كثير من الشباب - وإن كان أقل من ذي قبل - يطلقون شعورهم فما أثار منظر إشمئزازي قدر منظر المرأة بلا شعر ومرآى الرجل يطلق لشعره العنان .

ورايت في لوزان انسة كان يمكن أن تكون جميلة ولكنها راحت تحارب ما وهب الله لها من جمال بشتى الوسائل والحيل حتى نجحت فيما قصدت وبلغت من أهداف القبح ما سعت إليه . فشعر منكوش يوحي بالقذارة وملبسها مترهل عن عمد لا عن فقر . فواضح أنه قد كلفها من المال كثيرا وإن كان لم يكلفها من الذوق شيئا .

ورأيت شبابا لحاهم مهملة فلاهي حليقة ولاهي مطلقة وإنما شيء بين الإثنين لا أدري كيف يحافظون عليه على حاله هذه دون تغيير .

وأرى كثيرا من مدعى الفن يطلقون لحاهم علم الله أنهم يريدون أن يلفتوا إليهم الأنظار . وقعدت بهم مواهبهم أن يلفتوا الشهرة إليهم بأعمالهم فحاولوا ذلك بلحاهم ولن يهب الله فنا لمجرد لحية .

وإن كانوا يتحججون بالحرية فإن أحدا لايمنعهم أن يصنعوا بشعورهم وملابسهم ومظهرهم ما يشاءون ولكن ماداموا يرون أنهم مارسوا حريتهم بهذا القدر فليسمحوا لنا أن نقول نحن أيضا رأينا مستعملين حقنا في الحرية نفسها .

إنكم تثيرون القرف والاشمئزاز والتقزز وإن كان هذا ما سعيتم إليه فبشراكم قد بلغتم من الدنيا مناكم وبئست المنى .

وهنيئا لكم ومنكم الأجرب الذى اغتال الزعيم الوحيد الذى حقق نظرًا للعرب فى العصر الحديث . وبأيدى أقوام يدعون حرصهم على دين العرب .

وعلم الله ما دعاهم إلى القتل إلا التكالب على الفانية وليس النظر إلى الباقية والحرص على الدنيا والرفض للعليا . والسعى إلى المنصب والرئاسة والتحكم فى عباد الله بما لايرضى الله .

هنيئا لكم زمنكم الأجرب الذى سمح لهنات الناس وبغاتهم أن يهاجموا الأئمة الشم الذين أدوا رسالاتهم أكرم ما تؤدى الرسالة وأوفى ما يكون القيام بالأمانة .

فهذا عميد الأدب العربى الذى تخرج الأدب الحديث على يديه طه حسين يواجه حملة ضارية من المجاهيل الضائعين يريدون هدم مجده ونسف ركنه ومحو الشامخ من بنائه . ويصيح بهم الحق أن ما سطره التاريخ لا يمحوه الصغار ولا حتى الكبار .

وهذا شاعر الأجيال الحديثة جميعها شوقى يعتدى على عرشه الهوف والحمقى ومدعو الشعر يريدون أن ينزلوه عنه ويجذبوه من قمته التى لم يقتعدها شاعر قبله ولا شاعر بعده هناك فى زاوية الشعر العربى كله . ووسيلتهم إلى ذلك كلام لاهو من الشعر ولاهو من النثرولاهو شكل ولاهو معنى . وإنما ترجح بين السقم والضحالة . وبين العى والفهامة . وبين العجمى والفصحى وبين العربية باللفظ والغربية بالفكر والانتماء .

زمان أجرب إتخذ الملبس الأجرب لقيم جرباء ولفظ أكثر جربا .

الفن فيه صوت لايؤدى معنى ونغم ناشز وصخب فى غير حلاوة وضجة فى غير طرب .

يقول المغنى الهذاء والسخف والألفاظ التى لاتركب جملة والحروف التى لا تكون لفظا فتنكسب عليه أموال الإعجاب ويصبح اسمه علما على عصره . . وقد وافق فنه طبقة وتلاءم غناؤه وتفاهة الزمن وتواكبا واصطحبا واشتهر غليظ الصوت بجمال النغمة وأصبحت الحشرجة طربا والقبح حسنا والخرف فنا .

زمان سقطت فيه القيم وعلا فيه الانحطاط . وهان فيه الرفيع من شيمنا وساد فيه الدنىء من أخلاقنا .

وسقطت المثل الرفيعة . ليحيا المال وحده بغير عنان من شرف يلوى به عن السرف أو مسحة من ضمير توقف جبروته وطغيانه فهو وحده المعبود وهو وحده السيد المتصرف . بطانته الجهل والجنس والجبروت والتكبر بلا كبرياء والترفع بلا

رفيعة والتطاول بلا طول والاعتداء على كل مقدس . والقتل لكل فضيلة أو فاضل . والبعد كل البعد عن المرحمة والحب والإنسانية ولا أقول النورانية .. فهيهات .

لهم الله المؤمنون المحسنون من أبناء العصر . فلولا إيمانهم بالله عميق لم يبق فيها من خير ولتركوها مختارين رافضين أن ينتظروا حتى يطويهم ما أصبحوا يتوقون إليه لينقلهم هناك عند عزيز رفيع السماوات صاحب العرش والكرسي حيث ترعى عنده وعنده وحده سبحانه حرمات شاء أن تصان .. وإنها ببعض قليل من عباده مصونة وإن رغم أنف الزمن الأجرب .

●●

ان أعباء الحرية على الفرد لامثيل لها فى الديكتاتورية ففى ظل الديكتاتورية يقول الديكتاتور للشعب بالعمل لا بالإعلان لا شأن لك أيها الشعب بدولتك . إعتبر نفسك مفصولاً عنى كل الانفصال أنت أيها الشعب لك أن تأكل وتشرب وتتزوج وتجد ضرورات حياتك التى لاغنى لك عنها حتى تبقى حيا على ظهر الأرض أما الدولة فلا شأن لك بها مطلقا أن الديكتاتور المسئول وحدى عن الدولة وعن أموالها أنفقها بالصورة التى تطيب لى وأنا وحدى الذى أحدد صلات الدولة بالدول الأخرى فأنا لى أن أسب الدولة ورئيسها ولى أن أسالم ولى وحدى أن أحارب وأنا وحدى الذى أعلن هذه الحروب وأنا وحدى الذى يعرف مدى فائدتها أو أضرارها وأنا أعلم أنك أيها الشعب ستقدم لى أبناءك لأقتلهم فى ساحة القتال ولكن ما العجب فى ذلك أن الموت هو النهاية الطبيعية لكل المخلوقات فأى بأس أن أحدد أنا الموعد الذى يموت فيه من أشياء من أبناء شعبى . وأعلم أن الحرب ستكلف الدولة أموالا لاطاقة لها بها ولكن أنا المسئول عن أموال هذه الدولة جميعا فقد أبيع أرصدة الذهب بها وقد أستدين لأحارب . وقد أقبل السلاح المتخلف بأثمان السلاح المتطور . . كل هذا شأنى أنا وحدى وليس شأنك .

ومادمت قد سألتك فى استفتاء وقبلت أن أكون رئيسك فحتما عليك أن تترك لى وحدى حق التصرف فى حياتك ومماتك وما دام الموت والحياة أصبحا من حقى فإن حرية الأفراد ـ من باب أولى ـ من خالص حقى أحبس ما أشاء وأعتقل من أشاء وأثبت حكمى بكل الوسائل التى أراها صالحة لذلك وإن أدى ذلك إلى أن يعتدى أعوانى على الأعراض ومادمت قبلت أن يتعدى أعوانى على الأعراض فمن الطبيعى ـ من باب أولى ـ أن أصادر أموال من أشاء وأمنع من أشاء عن العمل ومن حقى ـ لا شك ـ أن أمنع أى إنسان فى الدولة أن يفكر مادمت أنا أفكر وما حاجتك أيها الشعب إلى التفكير مادمت أنا أفكر لك وأنا أفكر لك بموجب الاستفتاء الذى خولتنى به هذا الحق ولست أقبل منك أن تدعى أن هذا الاستفتاء

قد تم بالقهر والقوة والجبروت وأن أدعى أحد من الشعب ذلك فمن حقى أنا الشعب . فأنا ـ كما تعلم ـ أنا الشعب أن أنزل به ما أشاء من عقاب .

وهكذا يصبح الشعب فى ظل الديكتاتورية متخففا من كل الأعباء وهو لايستطيع أن يقول رأيا حتى ولو حاول ذلك ولهذا لم يكن عجبا أن يلجأ الكتاب وهم صوت الإنسان ورواد الحرية فى كل العصور إلى كتابة ما يريدون قوله بالرمز فى أى شكل يستجيب لهم وكم من مقالة كانت رمزا وكم من رواية وكم من قصة أما الشعب فقد كانت لغته مختلفة عن لغة الكتاب كانوا يطلقون النكتة ليعبروا بها عن رأيهم فيما يقاسونه من أهوال .

وكان الإعلام فى الدولة يصدر عن لسان واحد لايختلف فى ذلك جريدة عن جريدة كما لا تختلف الصحافة عن الإذاعة المرئية أو الإذاعة المرئية عن الإذاعة المسموعة كانت كلمة واحدة لكل يوم وأينما قلبت وجهك لن ترى الإ هذه الكلمة وأينما حولت لن تسمع إلا هذه الكلمة وكل كلمة يقولها الديكتاتور هى الشعار وهى الحكمة وهى الرأى وهى الأول والآخر وهى كتاب التفرد بالحكم ودستوره وآياته .

تلك هى الديكتاتورية وكل ديكتاتورية إلى زوال لأن الديكتاتور مهما يكن عاتيا طاغوتا جبارا لايزيد على إنسان يقع عليه ما يقع على الإنسان فهو ليس الأحد ولا هو الصمد وهو يلد وهو يولد إذن فهو يموت وتجرى عليه قواميس الحياة كما يجريها ملك الناس إله الناس القاهر فوق عباده .

وحينئذ تعود الحياة الى الحرية وهى فى عودتها ذات صخب وضجيج وذات أصوات مرتفعة تكاد تحسب أنها لن تهدأ أبد الدهر .

ومع الصخب والضجيج تشاع الحدود ويصبح الإنسان الذى عاش فترة من عمره مقصيا عن شئون الدولة مطالبا أن يتدخل فى كل شىء سواء عنده أن يكون عالما بما يتكلم فيه أو غير عالم المهم أن يتكلم وهنا تتضح الحقيقة الكبرى فإذا كانت المسئولية فى ظل الديكتاتورية على الديكتاتور وحده . فإنها فى ظل الحرية والديمقراطية مسئولية كل فرد من الشعب .

والمسئولية ذات أصول لأن للحرية أصولا . والحرية بلا أصول فوضى عارمة تؤدى بمصالح الدولة إلى الخراب .

وأول هذه الأصول أن يكون كل فرد ملتزما بالقانون والقانون حق وواجب فإذا حاول الفرد فى ظل الحرية أن ينال حقه ولا يؤدى واجبه مالت الموازين فى الدولة جميعا .

ومن أصول الديمقراطية أن يحاسب الإنسان نفسه على كلمة يقولها أو يكتبها لأنه بكلمته التى أصبحت حرة يخاطب الشعب كله بل وشعوب العالم أجمع فالدولة اليوم لاتعيش وحدها وإنما الذى يجرى بها يؤثر فى مجريات الأمور فى شتى أنحاء العالم ونوجه هذا الحديث إلى بعض من الذين يحاضرون الناس ويعلنون أنهم يعبرون عن رأيهم هم ولا بأس بهم فى ذلك ولكن لابد أن يكونوا على دراية وافية بما يعلنون والإ رفضت الحرية ما يقولون والحرية هنا هى الشعب .

إننا نحن الكُتَّاب أحرار من كل القيود الخارجية ونحن فى نفس الوقت مقيدون بقيود نفرضها على أنفسنا هى فى ذاتها أعظم ثقلا من قيود العالم أجمع . إننا مقيدون بثقة الناس فى أشخاصنا وفيما نكتب . . ونحن نعلم كل العلم أننا إذا كتبنا حرفا من غير اقتناع شريف به عفيف فإن الناس ستفقد ثقتها فى كل ما نكتبه .

ونحن نعلم أن الثقة فى الكاتب لاتتكون إلا فى عشرات السنين وأن هذه الثقة نفسها قد يفقدها الكاتب فى لفظة واحدة يشعر القراء أنها صادرة عن غير اقتناع نقى فى نفوسنا .

فإذا قدر لكاتب منا أن يتولى منصبا فعلى الكاتب حتما أن يكون رأيه مرتبطا بهذا المنصب . فإذا أراد أن يسترد حريته عليه أن يستقيل فلا يقبل مثلا من مدير مكتب وزير الاقتصاد أن يحاضر فى ندوة عامة أو يكتب مقالا فى جريدة يختلف فيه مع الوزير . مدعيا أنه يعبر عن رأيه الخاص فإن أحدا لن يصدق أن ما يقوله إنما هو رأيه الخاص . لقد فقد الحق فى ان يكون صاحب رأى خاص معلن يوم قبل وظيفته فى مكتب وزير الاقتصاد فاذا أراد أن يقول رأيه الخاص فعليه أن يستقيل أولا . لأن رأيه هذا قد يقلب موازين الاقتصاد فى الدولة كلها .

إن الحرية المتاحة فى أمريكا واسعة فضفاضة ولكننا لم نسمع أن موظفا عاما قال رأيا وادعى أنه رأيه الخاص وليس رأى المنصب الذى يمثله وإن قال فإن أحدا لن يصدقه وعلى كل فإن هذا لم يحدث قط ولن يحدث أبدا .

فليس الأمر مجرد رأى يقال إنما هو سياسات دولة يقوم عليها اقتصادها ومستقبلها ومستقبل صلاتها مع دول العالم أجمع ومستقبل صلاتها مع الشركات العالمية بهذه الدول وصلات الأفراد بها أيضا .

إن للحرية حدودا إذا اختلطت أصبحت فوضى وإن الحرية تعطى الشعور بالإنسانية لأفراد الشعب وتمنحه عظمة الإحساس بالانتماء للدولة التى يعيش تحت سمائها وهى فى نفس الوقت تفرض عليه واجبات ولكل وظيفة حقوقها وواجباتها .

فالذى نقبله من الموظف العادى لانقبله من القاضى مثلا لا يستطيع القاضى أو أعضاء النيابة أن يظهروا فى المحلات العامة بمظهر غير لائق ولا يجوز لهم ما يجوز لغيرهم من لهو ومتع . إن المجتمع الذى وهب لهم الاحترام فرض عليهم الوقار والاحترام واحترام الذات .

والطبيب الذى يدخل بيوت الناس إذا عرف عنه أنه صاحب نساء مثلا سقط قدره وما يفعله كل إنسان ممارسا لحريته لا يستطيع الإنسان الذى أصاب بعض الشهرة أن يفعله .

لكل وظيفة فى الحياة حدودها التى يتحتم على شاغلها أن يقف عندها ويظل دائما حرا كل الحرية إذا وجد أن القيود التى تفرضها عليه وظيفته أكثر مما يطيق فإن له بتوقيع واحد منه أن يترك هذه الوظيفة إلى غيرها يستطيع أن يتحمل واجباتها وقيودها وكل ميسر .. لما خلق له .

●●

للقلم

وجمة وبعد الحادثات يسود صمت فيه ألم وفيه تفكير وفيه ذهول ويضيب القلم فى أيدينا وجوم فهو ذو نبض وذو حياة ومن كان ذا نبض وذا حياة يصيبه الوجوم كما يصيبنا وماذا أنت قائل لقومك اليوم أما الأحداث فقد تناولتها الأقلام جميعا ولم يعد فى جنباتها مجال للقول إلا أن يكون القول وجوما وهموما وحزنا ومع الوجوم يثور التفكير ويغتلى وننظر فى الجرائد القومية التى صدرت بعد الحوادث فنجدها على حالها وكأنها لم تشهد الأيدى الخائنة تحرك النفوس الجاهلة وتعاود تشعل الفتنة فى أرجاء مصر جميعا .

أعداء مصر الملحدون المنتمون لغير ترابها الداعون لغير حبها تتصدر صورهم وأحاديثهم بعض الجرائد القومية .

وكأن لم يكن بالأمس القريب حريق هم مشعلوه بأحاديثهم وكتاباتهم قبل أن ينشب وهم الذين أشعلوه بخيانتهم وبمؤامراتهم فى الليل . . وسيلتهم إليه الرشوة الحقيرة ينهالون بها على نفوس مأفونة لا علم لها يقف بها عن الشر ولا خلق لها يردها عن التمرد ولا كرامة لها تمنعها عن الرشوة ولا وطنية لها تزعها عن إشعال الحريق فى وطنها ولا عقل يذودها عن أن تحرق نفسها فى عمل انتحارى جماعى فما أحرق هؤلاء الغوغائيون إلا أنفسهم وهل مصر إلا هم لو كانوا يعقلون .

وتطالعنى صفحات الشيوعيين فى الجرائد القومية يحللون ويتحللون ويفلسفون ويناعمون وينافقون فى غير خجل ويكذبون فى غير حياء ويقولون غير ما يعتقدون فى تبجح لا يأتى إلا لقوم باعوا إيمانهم بالإلحاد وباعوا أوطانهم بالخيانة ولا ألوم إلا الجريدة التى تسمح لهم فالصحف اليوم فى عصر الحرية هى المسئولة وحدها لا تقف على كتفيها سلطة ولا تتخلل أصابعها رقابة من خارجها وانما ضمير الجريدة وحده هو الفيصل والحس السياسى هو صاحب القرار .

فليقل الشيوعيون ما شاءوا أن يقولوا فى صحفهم وما هى بالقليلة العدد أما أن يفرضوا علينا فى جرائد تنتمى بجميعها إلى مصر فتلك كبيرة لا تغتفر وهم يعلمون أن هذا الذى يفعلون أثار نفوس الناس فى مصر جميعها وأثار مخاوف المهتمين بشئون مصر فى خارجها سواء من أبناء مصر أو كانوا من الذين يفكرون

فى القدوم إليها ليستثمروا أو ليجعلوا من ربوع مصر وآثارها مكانا لسياحتهم الآمنة أو لسباحتهم التى تريد أن ترى آثار مصر التى يعتبرها العلماء متحف العالم أجمع .

هم يعلمون ذلك وكان من الطبيعى أن يعودوا إلى العقل منهم والرشاد بعد هذه الفتنة الباغية التى شهدتها مصر ولكن لا عقل ولا رشاد ولاتزال صفحاتهم كما كانت قبل الفتنة بل هى أشد سوءا واكثر سوادا واحمرارا ولك أن تختار أى اللونين شئت .

كان عليهم أن يعلموا أن مصر ترفض هذه الفتنة وتحاربها لأن مصر وقفت بجانب جيشها الشرعى ولم تقف بجانب المعتدين المجرمين الآثمين كما يتمنى الملحدون المنتمون لغير مصر .

ولو لم يكن الشعب المصرى يؤيد رئيسه ويتمسك به لكانت الفرصة أمامه مواتية أعظم ما تكون المواتاة ولأحرقوا مع المحرقين ولأتلفوا مع المتلفين ولدمروا مع المدمرين .

ولكن الشعب المصرى لم يحرق ولا هو أتلف ولا دمر والشعب المصرى أيضا لم يتخذ موقفا سلبيا ولم يبتعد عن الأحداث فى غير مبالاة وإنما وقف المصرى عونا على المفتونين وعلى المحرقين وعلى المتلفين المدمرين .

الشعب المصرى اليوم يحس أن مصر بلاده وما كان ليشعر بذلك لو كان رئيسه جبارا طاغية منفردا وحده بالسلطان مبعدا الشعب عن أى رأى فى مصير البلاد .

وأشهد يارئيس الجمهورية ويشهد الشعب معى أنك لم تكن فى يوم ما طاغوتا ولا منفردا برأى ولا متباعدا عن الشعب ولا متكبرا عليه .

وأشهد يارئيس الجمهورية ويشهد الشعب معى أنك لم تمسك على شعبك سلاحا ولا كنت عليه سوط عذاب ولا حاولت أن تخرق الأرض و تبلغ الجبال طولا .

وأشهد يارئيس الجمهورية أنك لم تصعر خدك للناس ولا ملت عنهم تهاونا أو متكبرا عليهم بل أنت منذ عرفناك ذو تواضع فى غير ضعف وذو كبرياء فى غير تكبر وذو حديث سلس المجرى قريب المأخذ لا تقف فى مجراه صخور من الافتعال أو التصنع أو التخلق بغير خلاقك بل أنت دائما على سجيتك المصرية الأصيلة إن ثرت فلمصر وليس على مصر وإن غضبت فلشعب مصر ولم تكن غضبتك يوما على شعب مصر .

لم نعرف فى عهدك أن مصريا زج به الزبانية العتاة إلى معتقل وما سمعنا يوما أن شخصا قتل خفية عن الناس فى أطواء المعتقل حتى إذا سأل عنه ذووه قيل هم هرب فهو مجهول المصير ولم تستول حكومتك على أموال الناس ولم تتعرض سلطة فى عهدك لأحد تستلب كرامته فالعرض فى عهدك مصون ولم يسمع أحد أن كلابا أو آدميين اعتدوا على أعراض نساء أو رجال باسم الدولة فى عهدك المبارك .

وأشهد يارئيس الجمهورية أنك أعطيت المعارضة الطريق المفتوح على مصراعيه وأن كثيرا منهم حفروا هذا الطريق بالأكاذيب والإثارة وبعضهم دمره بالافتراء والتآمر والخيانة فلم تغلق يوما جريدة معارضة ولا أنت حتى منعت جريدة قومية أن تقول كل ما يعن لكتابها أن يقولوا بعد أن كانت الأصوات كلها تصدر عن بوق واحد .

ولقد حذرت ولم تهدد وبصرت ولم تصادر وكنت صادقا فى تحذيرك وتبصيرك .. ولكن هل وعى الآخرون الدرس وهل ارعوى غاويهم أورشد سادرهم .. لا أظن .

أحسب يارئيس الجمهورية أنك كنت ترى المستقبل يوم قلت مرات إخشوا العواقب واحرصوا على ألا تشعلوا فتنة لن تصيب الذين ظلموا وحدهم .

وهاج هائج المعارضة ووجه بعضهم حديثه إليك فى محاولات صبيانية للبطولة الزائفة من أن يختاروا الصدق طريقا للرأى والأمانة وسيلة للمعارضة راحوا يفسرون حديثك أنه تهديد يغاير الديمقراطية والحرية .

واأسفى لهم فهم لا يعقلون .

وأشهد يارئيس الجمهورية أنك لم ترم مصير مصر إلى شرك الحروب وأهوالها ومصائبها بغير داع لها إلا الأمل فى زعامة أو رغبة فى مجد شخصى مزيف فأموال مصر فى عهدك آمنة فى مستقرها وإن اعتدى عليها لص أو منحرف كنت له بالمرصاد لم تحم يوما قريبا وإن كان أخا ولا تسترت على معتد وإن كان منك فى أقرب مكان ولو أن الشعب قارن بين كل ما سرقه السارقون وما انتهبه المجرمون فى عهد الحرية وبين نفقات يوم واحد فى أى حرب من الحروب لكانت المقارنة وكأنها بين إبرة وصاروخ أو بين نقطة ماء ومحيط هذا إن لم نذكر الدماء التى نزفت والتى هى أغلى ما عرفته البشرية .

وأشهد يارئيس الجمهورية أنك لم تكذب الشعب فى يوم من الأيام ولم تخدعه ولم تعد وعدا أنت تعرف أنك لن تنفذه ولم تعير الشعب المصرى أنه كان بلا كرامة ولم تحاول يوما أن تهون من عظمة شعب مصر ولم تستخفه أو تستهن به .

وأشهد يارئيس الجمهورية أنك منذ توليت وأنت تعرف أنك واحد منا يسعدك ما يسعدنا ويضنيك ما يضنينا . . تحيا حياتك فى غير سرف ولا مظاهر فى كرامة تليق بانسان تمشى على الأرض هونا فلا مختال أنت فخور ولا مثال أنت ولاأنت ذو شره .

لهذا يارئيس الجمهورية كان الشعب معك لا عليك لأنه يعرف عن يقين أنك معه لا عليه ولو كنت فظا غليظ القلب لانفض من حولك ولما وقف حولك وحول وطنه يذود عن حياضه ويدافع عن آماله ويرد الخونة المعتدين فى إصرار وثبات وشجاعة وصمود .

ونحن يارئيس الجمهورية اليوم ننتظر نتائج التحقيقات وليس لنا أن نقول مالا نعلم ولكن من حقنا أن نفكر وأن نستنتج وإن نتوقع وأن نرى المقدمات لعلها تصل بنا إلى الحقائق .

إن المتمردين مجرمون لاشك فى إجرامهم ولكن المجرم الأكبر مازال خافيا عن العيون وإن كانت بعض ملامح منه بدأت تطل علينا من بين هذه الملامح تلك الجنيهات فى جيوب الفقراء الثائرين من أين جاءوا بها وكيف توالت أرقامها تصيح إنها من مصدر واحد وما المصدر ؟ هذه واحدة من الملامح .

وبعض الملامح التى تدل على المجرم الأكبر جاءت واقعة عظيمة الدلالة هذه السيدة المصرية العظيمة التى تقفل شباكها ولم تهرب إلى العمق . من سراديب بيتها وإنما وقفت فى النافذة تصور الأحداث وهى تعلم تمام العلم أن هؤلاء المجانين لو رأوها أو رآها واحد منهم لكان القتل هو أهون مصير لها هذا إذا لم يصحبه حرق لعمارتها كلها وأهلها وذويها وجيرانها جميعا .

صورة من حب المصريين لمصر ، تحمل صورة للخونة الذين لا نريد أن نصرح بما نستنتجه فى شأنهم وإن كان أمرهم معروفا للجميع ولكن الأمر فى يد العدالة فمن حقها علينا أن ننتظر كلماتها فى ثقة كاملة بأمانتها وذكائها فى وقت معا وبعد فمن حقنا اليوم ان نقول مع شوقى .

أرى مصر يلهو بحد السلاح
ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقول
يجل السياسة غلمانها

وما القتل يحيا عليه البلاد
ولا همة القول عمرانها
فأين النبوغ وأين العلومْ
وأين الفنون وإتقانها
وأين من الربح قسط الرجال
إذا كان فى الخلق خسرانها
لقد عبثت بالنياق الحدأة
ونام على الإبل رعيانها

●●

لا يخلف الله وعده

أنا من المقتنعين كل الاقتناع أن رئيس التحرير هو وحده المسئول عن السياسة العامة للجريدة وطبيعى أن رئيس التحرير يعنيه غاية العناية أن تحقق الجريدة التى يرأس تحريرها النجاح الأدبى والمادى معا ولذلك فهو بطبيعة الهدف الذى يتغياه يبعد نفسه كل البعد عن إساءة استعمال الحق المخول له بالقانون وبالأعراف الصحفية .

وأشهد أن إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام من هؤلاء الذين لا يسيئون استعمال حقوق رئيس التحرير ولعل القراء لا يحتاجون فى هذا إلى دليل فنحن نكتب ما نشاء فى حرية تامة ولكن يحدث ـ ونادرا ما يحدث ـ أن يتصل رئيس التحرير بواحد منا يطلب إليه فى أدب جم أن يخفف من حدة مقالة أو عبارة أو قد يحدث مرة كل عام أو عامين أو أكثر أن يطلب رئيس تحرير الأهرام أن يكتب أحد كتاب الأهرام مقالا آخر غير الذى كتبه وطبيعى أن يغضب الكاتب ولكن هذا الأمر حين يحدث إنما يتصل بالسياسة العامة للجريدة التى يقع على رئيس التحرير وحده واجب توجيهها وأنا أدرى بما أعرفه من خلق إبراهيم نافع أى حرج يشعر به وهو يطلب إلى الكاتب هذا المطلب العسير .

ولعلك سائل نفسك فيم هذا الحديث اليوم الواقع أن مقالة الأستاذ سيد ياسين التى نشرت فى صفحة الأدب فى الأسبوع الماضى وصلتنى متأخرة فبادرت بطلب جمعها وعزمت فى نفسى أن أرد على ما جاء فيها اليوم وكان طبيعيا أن أخبر الأستاذ إبراهيم نافع بما تتجه إليه نيتى فكلانا كاتب فى الأهرام ومن الطبيعى أن يكون رئيس التحرير على دراية بما يكتبه كل منا ردا على الآخر أو تعليقا عليه وهكذا رأيت ـ ولأول مرة ـ أن أنبىء الأستاذ إبراهيم نافع بما أنتويه من أننى أجلت ردى على الأستاذ سيد ياسين إلى الأسبوع التالى فإذا هو فى أدب جم يرجو أن نوقف النقاش عند هذا الحد .

وقد كان الأستاذ إبراهيم من الرقة والعذوبة بحيث لم أستطع مناقشته وصبرت نفسى وقرأت المقال فإذا الأستاذ سيد يعفيى من الرد تماما فهو لم يزد فى مقاله على أنه صنفنى وصنف نفسه بالصورة التى يطيب له أن يطالع بها نفسه ولو

كان الأستاذ سيد ياسين قد تفضل فناقش ما جاء فى مقالتى لكنت عاودت الكرة ورجوت رئيس التحرير أن يسمح لى بالمناقشة .

ولكن الأستاذ سيد لم يناقشى وإنما صنفنى فيا أستاذ إبراهيم نافع أنا إذن أستجيب لطلبك وأكف قلمى عن الرد ولن أراجعك لا ولن أناقشك فأنت وحدك المسئول عن مقدار الحجم الذى ينبغى للنقاش بين كتاب جريدتنا الكبرى .

فلنضرب صفحا عن هذا ودعونا نلقى نظرة على أمنا التى تتجاذبها صراعات من الشعارات البعيدة عن الحرية فى وقت لا حياة لنا فيه إلا بالجدية والويل لنا أقصى الويل إذا ظللنا نمضغ الألفاظ الجوفاء التى ألقت بهزلها وهزالها على كبريات المرافق فى حياتنا فإذا نحن نصير الى هذا الذى صرنا إليه .

ما بال أقوام يثور ثائرهم وتحفر معاطسهم وتبرق أقلامهم بالترهات إذا ذكر كاتب أو نائب فى مجلس الشعب أو الشورى كلمة القطاع العام .

أى عفريت كافر خبيث ألقى فى روعهم أن مصر تستطيع ان تستغنى عن القطاع العام كل القطاع - هيهات قسما ما ارتعدت مفاصلهم ولا وجلت قلوبهم الا بما يعلمون كل العلم ما جره القطاع العام بصورته الحالية من خراب ودمار على الاقتصاد وأخلاق أبنائنا الذين عملوا فيه فظنوا أنه مرتع للسرقة والإتلاف والرشوة والاختلاس .

أما القطاع العام كفكرة فلا يمكن أن يلغى ففى إلغائه إنهيار لاقتصادنا لاشك فيه ولكن ألا ينبغى علينا وجوبا أن نجعل منه مصدر كسب لا خسارة ومورد دخل لا مصرف إنفاق وإذا نحن لم نفعل فما مصيرنا وما مصير علاقتنا بالدول التى تقدم إلينا الاموال معونات أو قروضا أما القطاع العام فى ذاته فهو مبدأ معمول به فى كل الدول الديمقراطية وما من دولة فى العالم تخلو من القطاع العام وقد درسنا فى كلية الحقوق نظام الريجى الذى كان معمولا به فى فرنسا وقد كانت الدول فى ظل هذا النظام تحتكر صناعة الكبريت وفى ثلث القرن الأخير إتسع حجم القطاع العام فى فرنسا إتساعا كبيرا وشمل الكثير بل والكثير جدا من الصناعات الكبرى .

وكذلك الأمر فى انجلترا وكذلك فى جميع البلاد التى تعمل فى نظام الحكم الحر أو الديمقراطى ولا أعرف دولة على وجه الأرض تستغنى عن القطاع العام أو ترفضه ولو أننا استقصينا بالإحصاء لتأكد هذا الذى أذهب إليه .

وإنما ندعو فى مصر إلى أمر آخر بعيد كل البعد عن إلغاء القطاع العام جميعه إن كل ما نرجوه أن يبحث أئمة الاقتصاد وأساتذته فيما يجدر بالدولة أن تجعل منه قطاعا عاما وما يجمل بها ان تتركه للقطاع الخاص .

واعتقد أن أحدا لا يستطيع أن يناقش أن الصناعات الكبرى لابد أن تكون من القطاع العام مثال ذلك الحديد والصلب والغزل والنسيج وكل ماترى الدولة بالنظرة الاقتصادية الواعية أنه يحقق للدولة الفائدة الكبرى وليس من الحتم أن تتمثل الفائدة فى الناحية المالية فقط بل قد يكون بقاء هذه المؤسسات فى إطار ملكية الدولة أمرا يتصل بما هو أهم من المال مثال ذلك الإذاعة والتليفزيون والتليفونات والسكك الحديدية .

ومن المؤسسات الهامة فى مصر على سبيل المثال لا لحصر شركات الأقطان التى فرضت لها الدولة ضريبة خفية تصل إلى قرابة خمسمائة جنيه على الفدان الواحد وبطبيعة الحال أصبحت هذه المؤسسات ترد على الدولة مبالغ خيالية لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن ننقصها من ميزانيتها وإلا إنهار الاقتصاد المصرى كله وهكذا نرى أننا لا نفكر مطلقا أن تنظر الدولة المصرية إلى الدول الأخرى فيما تبقيه فى قطاعها العام وما تعفيه منه فليس فى العالم الحر ـ فيما أعتقد ـ دولة تستولى على محاصيل الأرض بالثمن الذى تفرضه إلا فى مصر .

ولكن لابأس فقد أصبح هذا ضرورة لاغنى عنها .

فولولة المنتفعين وأصحاب اللافتات وأبناء الشعارات كلما ذكر القطاع العام بنوع من التهريج مرنوا عليه وأصبح ذلك دأبهم مرضا أصيبوا به وليس لهم منه شفاء إذن فلنتجه بالحديث إلى الجانب الآخر من القطاع العام .

هل حققت الفنادق ما كان يجب أن تحققه من أرباح ومن طيب سمعة ومن اجتذاب سائحين علم الله أن أميرا عربيا ينزل الآن باحد الفنادق ويصرخ من سوء الخدمات فى الفنادق صراخا يكاد يصل إلى بلاده يطلب الطلب وتمر الساعات وينساه قبل أن يستجيب له المسئول وترسل إليه الرسائل فتظل فى حيازة من تسلمها من موظفى الفندق يوما ويومين قبل أن تصل ليد الأمير أو مرافقيه والطعام فى الفندق لا يسيغه أحد إلى غير هذا بما نعلم جميعا .

ولكن أبناء الشعارات يصرخون حذار أن يقترب أحد من القطاع العام أو يمس ذكره بكلمة يناقشون الإيمان . . نعم الإيمان ويرفضون أن يمس أحد قدسية القطاع العام .

هل قدر الله لك أن تدخل محلا تجاريا من محلات القطاع العام لاشك أنك فعلت وإنى أسألك بربك رجلا كنت أو كان القارىء سيدة هل شعرت أن مكانا ما من مناحى الحياة جميعا يمتهن إنسانيتك كما يمتهن إنسانيتك محل تجارى من محال القطاع العام ولم لا والبائع لا رقيب عليه من ضمير وهو سينال مرتبه سواء

اشتريت أو لم تشتر وليس من أحد فى المحل جميعا يهمه أن يزداد البيع فالمحل يفقد الحافز الشحصى فقدانا تاما .

وأذكر هذه المتاجر حين كانت بيد أصحابها وأذكر ، صيدناوى باشا صاحب محلات صيدناوى واقفا على باب المتجر الخارجى وتمر به امرأة خارجة من المتجر وهى فى الملاءة الملفوفة وفى يدها طفلها ويقترب منها صيدناوى بمنتهى الأدب .

ـ لماذا لم تشتر شيئا ياسيدتى ؟

وتقول السيدة :

ـ لم أجد ما اريد

ـ وما الذى تريدينه ؟

تقول له . . لقد كنت أريد مترا من قماش معين رخيص الثمن فاذا بالباشا يقول لها فى أدب :

ـ موجود عندنا تفضلى معى :

ـ ويذهب إلى القسم الخاص ببيع هذا القماش ويجد لها ما تريد وينزل عقابه على العامل الذى استهان بالسيدة وبمطلبها .

إذهب أنت اليوم إلى متجر من متاجر القطاع العام واطلب شراء أغلى ما عندهم من أى بضاعة وستكون سعيد الحظ إن وجدت إنسانا يكلمك كإنسان .

إننى أتصور أن تكون الدولة منتجة للصناعات الكبرى ولكن لماذا تكون الدولة وسيطا بين المصانع والمستوردين والجمهور فى نظام يدعى الحرية الاقتصادية .

لقد شهدنا الدولة المصرية تبيع سندويتشات الفول والطعمية وهكذا لم يكن عجيبا أن تبيع الكباب والفراخ المشوية .

أيهما أجدى على الدولةأن تكون التجارة حرة وتفرض ضرائبها التصاعدية على التجار ويدخل الربح المؤكد إلى خزائن الدولة أم أن تنزل الدولة منافسا للتجار وتخسر الخسائر الفادحة التى أصبحت حديث الناس فى العالم أجمع .

ويتباكى المتباكون على العاملين فى القطاع العام لكم الويل يوم يحشر المنافقون إلى جهنم وبئس المصير هل وجد هؤلاء العمال مكانا فى القطاع الخاص وتركوه إلى القطاع العام إن العمال جميعا يعلمون أن دخلهم فى القطاع الخاص سيكون أضعاف ما يتقاضونه من القطاع العام وإذا كانت الدولة فى القطاع العام تعين أصحاب الشفاعات فإن القطاع الخاص يجعل العامل يشعر بأهميته لأنه محتاج إليه فعلا بغير وساطة أو شفاعة .

وبعد فما هذا إلا مثلا أضربه . له مئات الأشباه والأمثال وأساتذة الاقتصاد وجهابذته أقدر منى على دراسة القطاعات الخاسرة جميعا وهم أيضا قادرون بعون الله على جعل مصارف الخسارة موارد كسب للدولة لو أننا رددنا عنهم الرعب الذى يثيره أصحاب الحناجر الكاذبة والشعارات الملفقة والذين لا عمل لهم إلا تخريب الاقتصاد المصرى ليزرعوا أشجارهم التى لا تنمو إلا فى الأرض الخراب فليعمل الاقتصاديون بحرية العلماء وشجاعة الوطنيين وليكونوا على ثقة أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . بهذا وعد عباده ولا يخلف سبحانه وعدا .

●●

كانت دعوة جمعت الكثيرين من أصحاب الرأى وبدأنا نتجمع وكان من أوائل الذين جاءوا صديق صاحب نظرة وعمق . . . وما أن اجتمع بعض المدعوين حتى بدأ الحديث وراح الصديق صاحب النظرة العميقة يقول وقال كثيرا .

الشيوعيون يسيطرون على وجه الإعلام المصرى وليس الأمر مجرد ظهورهم بعنف وإصرار وليس هو مجرد إلحاح شيوعى على شعب يكره الشيوعيين وإنما الأمر أخطر من ذلك وأجل شأنا حيث أن الإعلام هو واجهة مصر كلها وواجهة مصر هو اقتصادها ويحدثنا العاملون فى السفارات الأجنبية إنهم يتابعون كل ما يقال فى الإعلام المصرى فى شتى المناحى وهم يكتفون بالأخبار ولذلك فهم يدهشون لماذا يتجه الإعلام هذا الاتجاه الشيوعى . الأدب الآن شيوعى ومسيطر وهذه أشياء لها دلالات خطيرة وخاصة على الاقتصاد وعلى الشباب الذى لم يختر بعد طريقة وهذا الشباب يريد ان ينتشر وسيضطر أن يتلون بالشيوعية ليجد أمامه المجال مفتوحا للنشر .

ولم نجد بداً أن نوافق القائل فى كل ما قال فجميع الحاضرين كانوا يشعرون بأن الذى يقوله هو الحقيقة الكاملة .

ويعود إلى الحديث :

وهكذا حين اطمأن الشيوعيون إلى مكانتهم فى الإعلام المصرى تفشوا فى الجامعات تفشيا لم يتمتعوا به فى حياتهم كلها ولا أظنهم يتمتعون به فى أى دولة من دول العالم وهاهم أولاء يتاجرون بمصر ويستغلون الأحداث الفردية التى لا تحمل اى مدلول ليقيموا الأبطال وليجعلوا أنصارهم يحركون الاضطرابات كل يوم ويذيع زملاؤهم من العملاء فى المحطات الأجنبية الأكاذيب ويهولون من شأن التحركات الطلابية ويجعلون منها ثورات شعبية وهذه التصرفات كلها متصلة الحلقات فيؤيدهم فيها أعداء الحكم والطامعون فيه والحاصلون على الأموال من الدول التى تكن لمصر الديمقراطية كل عداء تلك الدول التى تنفق فى سبيل إثارة القلاقل فى مصر الأموال المجنونة فى انهار لا ينقطع سيله ويحاول هواة البطولات

الزائفة ان يركبوا الموجة ويبلغوا من هواياتهم البطوليةما يتيحه لهم المتطرفون من الملحدين وغير الملحدين وليس يعنيهم أن الناس منهم يسخرون وهم يجعلون أنفسهم أشبه بالقراقوزات ويبتعدون بتصرفاتهم الرعناء السخيفة عن ساحة الساسة المحترفين وهكذا ترون أن كل هذه الأمور لم تأت عفوا وإنما هى مؤامرات حبكت عقدتها بأيد متمرسة فى حبك المؤامرات وهل هناك أكثر تمرسا من المتطرفين ملحدين وغير ملحدين فى حبك المؤامرات ولا يستطيع أحد منا أن يناقش مايقول صديقنا فجميعنا يرى أن ما يقول صدق لا شك فيه وحق لا يحتمل النقاش ويعود إلى القول ويزداد الأمر سوءا حين نجد من يمتدح أيام الطغيان والاعتداء على الأعراض والأنفس والأموال بل إن بعضهم يهدد من يحاول أن يتنقص من عظمة هذه الأيام وجلالها ويقول فى وقاحة لم نر لها مثيلا فى العالم كأن الاعتداء على الأعراض وعلى الأموال وعلى الأنفس قد وقع على كل فرد فى مصر وهو يعلم أنه مادام قد وقع على فرد واحد فكأنما وقع على مصر جميعها . . وأذكر أننى قرأت كتابا لكاتب فرنسى يقدس نابليون بونابرت ويعجب به فى كل ما صنعه ولكنه حين يصل إلى الحرية يقول إن بونابرت كان طاغية إلى درجة أن عدد الصحفيين الذين اعتقلوا فى عهده كان أربعين صحفيا وأذكر أن الكاهن الأكبر لعهد الطغيان فى مصر دافع عن عهده فى جريدة الاهالى قائلا ما معناه . . ماهذه الضجة الكبرى التى يضجونها عن المعتقلين إن كل الذين كانوا فى السجن عند وفاة الرئيس الأسبق لم يتجاوزوا الأربعة عشر ألف سجين ويأتى الكاتب الآخر المدافع عن أيام الطغيان فيرى أنه مادام الاعتداء على الأعراض والأنفس والأموال لم يقع على كل فرد من أفراد مصر فهو مقبول مباح لا عيب فيه ولا ضرر منه وهو بعد ذلك يهدد ماله . يفعل وهو ربيب عهد القهر والتهديد .

ويصمت الجميع ولا يجدون شيئا يجبرون به إلا الأسى والحزن ويعود الصديق إلى الكلام ويزيد الأمر سوءا إن الأحكام حين تصدر لا تنفذ من فورها فيحسب المجرمون أنهم يستطيعون أن يتمادوا فى غيهم ويمرحوا ما شاء لهم إجرامهم ونسمع عن لصوص سرقوا المال وتتطاول السنوات قبل أن نسمع خبرا عن مواجهتهم ثم نجدهم يتحصنون بشتى الحيل حتى يؤجلوا مواجهة القضاء والقضاء نفسه بطىء ولعله الجهة الوحيدة المعذورة فى هذا البطء فالعاملون فى السلطة القضائية هم أقل بكثير مما يعرض عليهم ولكن هذا البطء يجعل الشعب يتململ ولا يستطيع أحد أن يلومه إذا ظن أن العقاب لا يقع على من يستحق فى الموعد المعقول والأدهى من ذلك أن التراخى فى مواجهة اللصوص يشجع الآخرين على قبول الرشوة حتى أصبح الأمر ظاهرة عامة الاستثناء فيها يدعو إلى

الإجلال والإكبار وغاية الاحترام وقد كان ينبغى أن يكون عكس ذلك فتكون الأمانة هى اصل والرشوة هى الاستثناء وأنتم تعرفون كم يؤثر هذا على سمعة مصر عند المستثمرين كما تعرفون أن الاستثمار يعتبر هو العمود الأول فى آمالنا الاقتصادية اليوم ونوافق ويستطرد الصديق فإذا نظرنا إلى الصحف المعارضة نجدها تذكر وقائع بذاتها الإجابة عليها اذا لم تكن حقيقة غاية فى البساطة واليسر ولكن لا تقرأ تكذيبا فإذا نشر فهو يستخفى فى خجل وكأنه هو الأكذوبة ترى ألم يصبح الشرف للذمة أمراً ذا أهمية وأصبح الحفاظ على نقاء السمعة أمرا لا يستحق أى عناء فإن يكن الأمر كذلك ـ وكم أرجو ألا يكون ـ فما لنا لا نقرأ إلا تكذيبات نادرة وتظل الاتهامات فادحة تصيب كرامة الكبار الموظفين فى مقتل دون أى تكذيب وقبل أن يتم الصديق حديثه فقد كان يبدو أنه يحمل فى جعبته أكثر مما أفضى به أقبل أحد الوزراء كان مدعوا إلى مكاننا هذا وجاء متأخرا كعادة الوزراء كان الله فى عونهم يشهدون من المناسبات ماتنوء به العصبة ذات العدد ولم يكمل الصديق الحديث بطبيعة الحال وانتقل الكلام إلى موضوعات أخرى ووجدت الصديق يقول حديثا غير الذى كان يقول . ولم أعجب فمن الطبيعى فى دعوة إجتماعية وليست سياسية ألا نحاول أن نسىء إلى أحد من المدعوين فهم إنما جاءوا جميعهم لينسوا أعمالهم ويروحوا عن أنفسهم فليس عجيبا أن يحاول الجالسون جميعا أن يختاروا من الأحاديث مالا يثير جدلا وتفرق الحديث بددا وأخذ كل منا بطرف وبعد أن كنا جميعا أذنا واحدة نسمع ما يقول الصديق أصبحنا آذانا وألسنة وتناسينا مآسينا العامة والخاصة وسمرنا وانصرف كل منا إلى شأنه .

صديقنا هذا ليس كاتبا وليس صحفيا ولكنه يكتب فى الصحف من حين إلى آخر مقالات يشارك بها فى الرأى العام قرأت مقالا نشره بعد اجتماعنا هذا .
وما أعجب ما قرأت له :

إنه يقول فى مقاله أشياء تتناقض كل المناقضة مع كل الذى قاله لنا فى أمسيتنا تلك إنه يخاف الشيوعيين والمتطرفين وينافقهم وبالقطع هو لا يخاف الحكومة فالحكومة اليوم أصبحت لا تخيف أحدا . . . ويل لنا من أنفسنا إذن .

إذا كان الفلاسفة قالوا إن الحقيقة لابد أن تكون واحدة وإذا كانت اليوم قد أصابتها قنبلة النفاق فأصبحت جذاذات وقطعا صغيرة متناثرة على شتى الأفواه وفى كل جهات العالم .

وإذا كانت الحقيقة اليوم عاجزة أن تكون واحدة فى مفهومها العام .

فلا بد . . لابد . . أن تظل الحقيقة واحدة بالنسبة للشخص الواحد كيف تكون الحقيقة شتى حقائق بالنسبة للشخص الواحد وكيف يستطيع شخص واحد أن يعد حقيقة لحديث الأصدقاء وحقيقة أخرى لحديث المسئولين وحقيقة ثالثة للنشر فى الصحف وعلى الناس .

أين الحقيقة ياأخى وما نقول جميعا .

وإذا كان أصحاب الرأى لا يحافظون على الحقيقة الواحدة فمن يحافظ .

تولانى حزن شديد وأنا أقرأ مقال الصديق فأنا لا أتصور أن شخصا له علمه يصنع بنفسه هذا الذى صنعه .

ماذا هو قائل إذا التقى بى أو بأحد الذين شهدوه وهو يقول آراءه الصريحة الصادقة فى ليلتنا تلك .

أغلب الأمر أن أمثال هؤلاء لا يعتمدون على حياء الآخرين فأنا لا أستطيع أن أقول له مواجهة أيها الصديق أنت منافق ولكننى لاشك أستطيع أن أنقل أمره إلى الناس جميعا وأحتفظ باسمه لا أذيعه فى هذه المرة ولكننى أشفع الحديث بتهديد لا تأمن أيها المنافق أن أذيع اسمك إذا تكرر منك ما رأيت فإن أصحاب الأقلام مسئولون أن يقدموا الحقيقة كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة إلى قرائهم وإلى التاريخ فى وقت معا .

●●

وجهان لعملة واحدة

كنت أحسب أن الكتابة فى موضوع ينبغى ألا تزيد على مرة واحدة أو مرتين على أكثر تقدير وكنت أحسب أن المهتمين بالحياة العامة يتابعون عن كثب ما يكتبه الكتاب ولكن يبدو أننى كنت ساذجا فى حسبانى هذا غاية السذاجة والدليل على ذلك كتبت مرة عن صلة بالأدب والسياسة فلم تكف ووجدت من يجادلنى فى هذا الشأن فكتبت ثانية فلم ينته الجدل فكتبت ثالثة واعتقدت أننى وفيت الموضوع حقه فى جميع أبعاده وأننى لن أجد من يناقش هذا الأمر مرة أخرى معى على الأقل .

ولكن خذلتنى الحقيقة وتبينت أننى كنت فيها أظنه واهما فقد فاجأنى أستاذ فاضل من أكثر الناس صلة بالحياة العامة بل هو من العاملين فى غمارها بل لا عمل له إلا هذه الحياة العامة فهو كاتب متمكن وصحفى ذو مكانة وأنا من المعجبين بما يكتب ومن المعجبين به صديقا وإنسانا وصحفيا .

فاجأنى صديقى برأى له عن الصفحة التى أشرف بالقيام بأمرها فى الأهرام فهو يقول إنك تكتب فى هذه الصفحة السياسية بينها القراء ينتظرون أن يقرأوا فيها أدبا ومساحة السياسة فى الأهرام ضخمة بينها الأدب ليس له إلا نصيب قليل وصفحتك تمثل جانبا ضخما من هذا النصيب فإذا كتبت مقالاتك فى السياسة أسهمت فى إضعاف هذا النصيب .

وناقشت الصديق ثم رأيت أن حجتى ينبغى لها أن تكون للناس كافة وليس للصديق وحده .

وبادىء ذى بدء أنا لست أستاذا جامعيا أكتب فى الأدب الخالص فإن أحدا لا ينتظر منى أن أكتب فصلا فى خصائص الشعر الجاهلى أو أكتب مقارنة بين الأدب فى العصر العباسى الأول وبين الأدب فى العصر الحديث .

كما أن أحدا لا ينتظر منى ـ وأنا الروائى والقصاص ـ أن أكتب فصلا فى نقد رواية أو مجموعة قصصية وحين أفعل ذلك أدخل فى ميدان ليس لى لأن النقد حين أكتبه افعل ذلك عن تذوق شخصى وليس عن المبادىء الأكاديمية وأنا نفسى كاتب

رواية وقصة ومن الطبيعى أن أكون من بين المتعرضين لنقد النقاد وليس من المفروض أن أكون أنا نفسى ناقدا .

والواقع أن المقالات النقدية القليلة التى أكتبها هى على سبيل التنويه وليست على سبيل النقد المنهجى المتخصص فلهذا النوع من النقد أساتذته المهيأون له بثقافتهم ودراستهم وطريقهم الذى اختاروه فى الحياة وإذا كان بعضهم يميل مع الهوى ومع الصداقات ومع المذاهب الأيديولوجية التى يعتنقها فهذا لا ينفى أن للنقد أهله وإذا كان أغلبهم لا يقوم بواجبه من متابعة الاعمال الأدبية التى تظهر فى حياتنا فهذا لا ينفى أن للنقد كتابه .

ومن المؤكد الذى لاشك فيه أننى لست من بينهم والآن أعود إلى صديقى الذى دهمنى برأيه فأى نوع من الأدب الخالص تريدنى أن أكتب ؟

أنا أعرف . .

الذى ينبغى لى فى ميدان الأدب الخالص ولا ينبغى لى غيره أن أكتب رواية .

وأحسب يا صديقى أننى لا أتكاسل عن هذا ما أسعفتنى الفكرة فالرواية ليست بحثا وإنما هى فكرة تطرق ذهن الكاتب ويظل بها وتظل حتى يرى أنها تصلح أن تكون رواية فيكتبها .

والذى ينبغى لى فى ميدان الأدب الخالص أن أكتبه قصة قصيرة أو صورة قلمية وأحسب يا صديقى أننى أفعل ذلك ماوافتنى فكرة القصة أو الصورة القلمية ولكن الأمر ليس يسيرا وأنا فى هذا الشأن لست مطلق الإرادة إنما أنا أتلقى الفكرة وحيا فإن لم تأت فهيهات لى أن أكتب افتعالا أو تعسفا ولكن الأمر يا صديقى أخطر من هذا وأجل شأنا كيف استطعت وأنت تعمل فى الصحافة وفى الأدب أن تضع هذه التفرقة بين الأدب والسياسة ؟

إن الأدب إذا انفصل عن السياسة أصبح أدبا ميتا غير جدير بالوجود . . . .

فالأديب شاهد على عصره والأديب أديب بأسلوبه فى كل موضوع يتناوله .

والأديب حين يكتب الرواية سياسى وهو حين يكتب القصة بل إن الأديب هو الناقد السياسى أيضا لانه حين ينقد الرواية ينقدها فى ظل الحياة الاجتماعية التى تصورها والحياة الاجتماعية سياسية .

السياسة هى كل الحياة التى يعيشها الأديب فى كل باب من أبواب الأدب يكتب هذه الحياة ويترجمها إلى الناس الى الذين يعايشونه وإلى الأجيال القادمة جميعا وعميد الأدب العربى كتب مقالات سياسية صريحة ثم هو سياسى حين كتب

أحلام شهر زاد والمعذبون فى الأرض وشجرة البؤس والأيام ودعاء الكروان وأديب

وهيكل باشا من الزعماء السياسيين وصل إلى الزعامة السياسية بأدبه وحده وهو أديب سياسى حين كتب كتبه الإسلامية وأديب سياسى حين كتب روايته إن رسم المجتمع سياسة وآمال الأديب فى الحياة سياسة .

والعقاد ما رأيك فى أدبه السياسى ألا يكفيك إسم العقاد مثالا رائعا على اندماج الأدب بالسياسة فعبقرياته أدب سياسى ومقالاته الصريحة فى السياسة أدب سياسى وكتبه فى البحث أدب سياسى ولا يستطيع الأدب إلا أن يكون سياسة أم هو غير كائن .

وتوفيق الحكيم أديب سياسى منذ كتب أهل الكهف حتى يومنا هذا وقد كانت له فى أخبار اليوم مقالات سياسية أسبوعية ورواياته كلها سياسية منها الصريح الذى لا شك فيه مثل شجرة الحكم والسلطان الحائر وايزيس ومنها ما تتوارى فيه السياسة خلف الرمز مثل بنك القلق والورطة والصفقة وكل رواياته لا استثنى منها شيئا فمسرح المجتمع كله سياسة لأن السياسة هى المجتمع والمسرح المنوع كله سياسة . . . حتى وإذا تركنا هذا الجيل الى الجيل التالى له .

كلها سياسية منها الصريح الذى لا شك فيه مثل شجرة الحكم والسلطان الحائر وإيزيس ومنها ما تتوارى فيه السياسة خلف الرمز مثل بنك القلق والورطة والصفقة وكل رواياته لا أستثنى منها شيئا فمسرح المجتمع كله سياسة لأن السياسة هى المجتمع والمسرح المنوع كله سياسة . . . حتى وإذا تركنا هذا الجيل إلى الجيل التالى له .

أليست روايات نجيب محفوظ كلها سياسة . فماذا تكون إذن أن منها الصريح مثل ميرامار والثرثرة والحب فوق الهضبة وإمام العرش ومنها غير الصريح وكلها تتناول المجتمع الذى هو السياسة .

إن مجال السياسة هو المجتمع ومجال الأدب هو المجتمع فلا يمكن ان يكون بينهما انفصال بأى حال من الأحوال .

إن ما كتبه عبد الرحمن الشرقاوى فى الأدب التاريخى سياسة وكل مسرحياته سياسة فليس عجيبا أن يكون مقاله الأسبوعى فى الأهرام سياسة أدبية .

هو سياسة أدبية وأدب سياسى فى وقت معا إن الأسلوب الذى يكتب به الأدباء فى السياسة لا يتأتى إلا لأدباء وهذا هو الأدب السياسى .

وأرجع معك إلى شوقى أليست رواياته سياسية وعزيز أباظة أليست رواياته سياسية واستعرض معى بعض ديوان شوقى إنه تاريخ مصر فى عهده قدمه إلى الأجيال شعرا إقرأ معى لشوقى .

ألم المالكين بنى أمون
ليهنك أنهم نزعوا أمونا
ولدت له المامين الدواهى
ولم تلدى له قط إلا مينا
فكانوا الشهب حين الأرض ليل
وحين الناس جد مضللينا
مشت بمنارهم فى الأرض يوما
ومن أدوارهم قبست إلينا

واقرأ معى لشوقى فى وداع كرومر :

أيامكم أم عهد إسماعيلا
أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم وفى الرقاب بباسة
هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت
فكانت الداء العباء رحيلا

وبعد فماذا أنت قائل ؟ هذه المقالة التى قرأتها الآن أليست أدبا ؟ إنها أدب ولكنها أيضا سياسة إنها وجهان لعملة واحدة لا ينفصلان . .

ما هكذا كنا ولا هكذا كان الزمان ولا كانت مصر ماذا دهانا وماذا ألم بالزمان والمكان جميعا . . لقد عايشنا هذا الزمن واختلط تراب مصر بكل ذرة من كياننا البشرى فاختلط بالقلب منا وبالمشاعر وبكل شهيق لنا أو زفير .

ما هكذا كنا لم يخل زمن من الأزمان من شرار الناس وخيارهم وقد بدأت الجريمة من عهد قابيل وهابيل ولكن بدأت معها التوبة أيضا وعرفت الجريمة منذ ذلك الحين الأسف والندم يقول سبحانه وتعالى فى سورة المائدة فى الآيتين ٣٠ ، ٣١ « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين » .

ولكن الجريمة اليوم أصبحت تتبجح فى غير خزى فلا هى تعرف التوبة ولا الخجل ولا الندم . . كانت الجريمة تتوارى فى أستار الخفاء فإذا هى اليوم تسفر عن وجهها فى ضياء العلن وفى وقاحة الاستهتار وكان المجرم إن ارتكب عملا ينافى ما استقر المجتمع على احترامه يخفى فعلته ويواريها كما وارى قبيل سوأة أخيه فاذا هو اليوم . . يفضح ويكشف ما استتر ولا يبالى أن يعرف الناس عنه ما ارتكب .

وتشهد مصر صحفا تتقدم فى كل يوم ولفترة إستطالت أسابيع متصلة أحاديث واعترافات عن سفاح قاتل وكيف يقتل ضحاياه وكيف كان يعذبهم فلا المجرم السفاح يخجل ولا الصحف تعود إلى الرشد منها .

وتشهد مصر اللصوص ينهبون الأموال العامة نهبا ضاريا لا يستحون فهم يصرخون فى الناس معلنين أنهم لصوص وأنهم خانوا الأمانة التى استأمنتهم عليها دولتهم والتى سلمها الشعب إليهم ، وأنهم ليس يعنيهم أن يعرف الناس جميعا ما اختانوا وما استلبوا .

وأن صراخهم ليتصل فى السرايات ذات القلاع يسكنونها وأبناء الشعب لا يجدون حجرة يظلهم سقفها وفى السيارات ذات الفجور ويركبونها ويغدون بها

ويروحون فى وضح النهار وفى مفضوح المجاهرة وأبناء الشعب لا يجدون موضعا لقدم فى وسائل المواصلات العامة وهم يصرخون بإثمهم بالملابس الفاخرة يرتدونها وبما يشترون من أدوات التسلية ذات الأسعار التى أصابها السعار .

لقد انقلب هؤلاء الآدميون إلى ذئاب ضارية تنهش فى غير رحمة وتسرق فى غير مبالاة وتقتلع جذور الإنسانية وفى وحشية لا تجرؤ عليها الوحوش وهى الوحوش وقد تتوارى الوحوش هى وتأكل الفريسة فى حين يعلنون هم جرمهم بكل وسائل الإعلان .

وإذ الزمان غير الزمان وإذا المكان غير المكان .

لقد كانت الأزمان تجعل المجتمع يرفض هؤلاء القتلة ويحقرهم ويرفض أن يوسع لهم مكانا أى مكان فى القمة منه أو فى القاع .

كان الناس يرفضون أن يعرفوهم أو أن تقوم بينهم وبين هؤلاء أى صلة . .

أما اليوم فهم القمة وهم الصدارة وهم بأموالهم المنتهبة ذؤابة المجتمع وسادته لا يرفضهم أحد بما عربدوا وبما قتلوا من ضمير وما اجتثوا من أشجار الكرامة والخلق الرفيع وكأن المكان فى مصر يضيق بهم فتزحف أموالهم التى سرقوها الى رقابهم يختنقون بها وتصبح عليهم وبالا ونقمة غابت عنها نعمة الثراء وما المال بغير مجتمع يوقر صاحبه من مكانته شيئا مذكورا .

أما اليوم فالمكان موسع لهم غاية السعة وهم فى كل محفل لهم من المكان موضع الصدارة والناس تتصايح بأفضالهم وتتغنى بأمجادهم وتسكب عليهم سيول المديح ، والإجلال والإكبار والمفاخر والتهليل لهم - لا عليهم - يحيط بهم ويسبقهم فى كل مكان .

ويل للزمان من الزمان وويل للمكان من المكان .

أصبح الشرف غريبا فى مصر طريق الأنبياء ومنارة الأديان ومصباح الهدى وملهمة الوحى على مدى الأزمان وفى كل مكان كان الكتّاب فى مصر ثروتها وغناءها وأنشودتها وكلمتها وكان الكتّاب مثلا يقدرون حق الأمانة التى يحملونها وكان الكاتب إذا نافق أو اعوج سيره أو مال به الطريق ينصرف عنه الناس غاضبين غضبا قد لا يبدونه لغيره . فقد خذلهم وحطم الثقة التى شرفوه بها .

وأنظر اليوم فأرى كثيرا من الكتّاب يقولون مالا يفعلون ويبشرون بالطهارة وهم غارقون فى العفن ويدعون الأمانة وهم يخونون أقلامهم ويتصايحون بحب مصر وهم يطعنونها بأسلحة شرسة فتاكة فى صحف لا تصدر فيها مستغلين النفوس الحاقدة على مصر مادين أيديهم لأعداء لاعمل لهم إلا عداوة مصر

يتربصون بها الدوائر ويحلمون بأوهام المخابيل أنهم بما يفعلون سيتمكنون من حكم مصر التى هى مصر وما بالهم لا يحلمون مادام بعض الكتاب يباركون أحلامهم ويصورونها لهم على أنها أفكار معقولة مؤكدة التحقيق .

ونسمع أن فئات من المصريين يعقدون اتفاقات مع بعض المتهوسين من الحكام أنهم سيمهدون لهم الطريق إلى زعامة مصر ليصبحوا بعد ذلك زعماء العالم العربى أجمع ويقدم هؤلاء الخونة المصريون معسول الكلام ويقدم أولئك الحكام أموال شعوبهم التى فرضوا أنفسهم أوصياء عليها بقوة السلاح وبغير شرعية حق .

وإذا الزمان غير الزمان وإذا المكان غير المكان .

ويرى الشاب هذا الهول ولا يجد المثل الأعلى الذى سمع عنه بل يرى اللص يحيط به التمجيد والإجلال والخائن تصفق له الأيدى .

وتنقلب أمام الشباب أمل الغد موازين الأمور .

والوقت عصيب والمال يسيطر على حياة الناس بشراسة لم يعرفها التاريخ فحين يبارك المجتمع السرقة والخيانة وانعدام الشرف تصبح الصورة أمام الشاب مطموسة المعالم مشوهة السمات فالشرف الذى عرفه من الكتب يراه مشوها فى الحياة وقد حلت مكانه كل نقيصة كان المجتمع فيما مضى يزدريها ويرفضها فكيف نريد لهذا الشاب ان يكون عماد المستقبل ودعامة الآتى من حياة مصر .

لكل زمن مفاخره ونقائصه ولكن النقائص كانت تنزوى خجلا وتتباعد عن النهار وتتخفى فى أطواء الظلام وكانت المفاخرة شهيرة جهيرة واضحة المعالم بينة المعارف يمتدحها المجتمع ويتغنى بهاالشعراء والكتاب .

ولكن زماننا هذا انقلبت فيه المعايير أصبح الذى يرتكب المعاصى يهتف بها ويصنعها وهو جهير الصوت فخورا سعيدا فرحا .

وأصبح الشريف يتوارى خجلا أنه يأبى أن يسرق ويعف عن المال الحرام ويمنع نفسه أن تقبل ما ليس لها .

نحن فى زمان يشربون فيه الخمر علنا ويقيمون فيه الصلاة سرا نحن فى زمان يسرقون فيه وتهتف لهم المظاهرات والمظاهر ويعفون فيه فى الخفاء وحتى لا يرميهم المجتمع أنهم أغبياء سذج جهلوا الدنيا وضلوا طريقها الذى يؤدى بهم إلى الثراء والعظمة والسعادة والهناء .

إن الدين الحنيف يأمر بالصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فلا وربك لا يرضينى التهوس الدينى والإرهاب باسم الإسلام الحنيف وإنما يرضى المجتمع حين يرى المعاصى تخجل والشرف يعلو وليس يرضى المجتمع حين يرى

من يدعون الحفاظ على الإسلام يشهرون السلاح ويريدون أن يركبوا الدين مطية إلى عرض الدنيا.

فلئن تعف نفس واحدة وتسمو عن المخازى أكرم ألف مرة من أن تتكون جماعات تريد أن تحكمنا فى دنيانا باسم ديننا الذى نفديه بالأرواح وهم أبعد ما يكونون عن الدين وزمانهم أيضا الدين الإسلامى صلة مباشرة بلا وساطة بين المسلم وربه . حتى ليقول سبحانه لنبيه « لست عليهم بمسيطر » فإذا كان النبى وهو النبى ليس بمسيطر فبأى حق يريد هؤلاء أن يسيطروا علينا وعلى مقادير أمورنا ويل للزمان من الزمان حتى الدين وهو الدين لم تتركه النفوس الجشعة وتريد أن تتخذ منه وهو الرحمة المطلقة سلاحاً للعدوان والقهر والإذلال .

غرباء نحن فى هذا الزمان وغرباء نحن فى هذا المكان ولكننا سنصعد وستنجلى الغمة وعما قريب ستعتدل الموازين ويعود الشرف إلى قمته ويذهب الزبد جفاء .

فإن ربك لا يخلف وعده وهو غالب على أمره وهو ناصر دينه وما غرسه هذا الدين من سمو وعظمة وكبرياء .

●●

لك الله وحده يا مصر أم الأمجاد ويا واهبة الحضارة للتاريخ ويا مشرق العلوم والفنون والآداب . . وما هذا الذى يحيط بك اليوم حتى بعد أن زالت وانكشفت عن سمائك سحب القهر والدمار .

إن أبناءك حتى اليوم لا يزالون يعيشون فى هذه الأيام المريرة من حياتك تسيطر عليهم بالسلب حينا وبالإيجاب حينا آخر .

وإلا فما هذا الذى تصنعه بعض الصحف وما هذا الذى به يعبثون أتراهم قد جهلوا أن هذا الهذر الذى يهذرون لا يصيب إلا مستقبل مصر وحريتها وغدها وآلامها .

هل هانت مصر عليهم فجعلوا منها لعبة لأقلامهم . .

لك الله وحده يا مصر . . .

لقد غابت الحرية عن حياتنا فترة سوداء حالكة السواد ثم عادت وكنا نحسب أنها حين تعود سنكون أهلا لها وكفنا لأعبائها رجالا فى حريتنا شدادا فى الحق مترفعين عن الصغار متباعدين عن الهوى متعففين عن السقوط .

فإذا بعض ممن أتاحت لهم الحرية صدور الصحف يذكروننا بالطفل الأهبل الذى نال بعد طول الحرمان لعبة جديدة فلا يزال بها يستخدمها فى غير ما أهلت له ويجربها فى غير طريقها ويقذف بها ذات اليمين وذات اليسار حتى تتحطم . وينسى الطفل فى سذاجته وجهله أنه هو . . هو نفسه أول الباكين عليها ، ويذهل عن نفسه ذهولا أرعن مأفونا ناسيا أن هذه التى حسبها لعبة قد تتمخض عن قنبلة تنفجر فتصيبه هو أول ما تصيب ثم تصيب معه أهله وبيته أجمعين .

ما لهؤلاء الكتاب يلعبون ويلهون ويعبثون والوقت جد كل الجد والأمر خطير غاية الخطورة والشدة التى تمر بها مصر تحتاج إلى العزم كل العزم والحزم كل الحزم وهى فى غنى كل الغنى عن ثرثرة المخابيل وهراء المهازيل .

إنهم يريدون - وبكل الجهد يريدون - أن يزحزحوا مصر عن حريتها ويريدون - وبكل الجهد يريدون - أن تستعمل السلطة إجراء استثنائيا ويسعون

أشد السعى أن يصدر أمر بمصادرة وآخر باعتقال . . وهيهات . . خاب سعيهم فهو إلى بوار ولن يكون هذا .

إنهم اليوم أصحاب أصوات عالية وسيوف يحسون أنها باترة . .

واناشدهم الله والحق والوطنية أين كانوا أيام المعتقلات تفغر أفواهها تلتهم أبناء مصر فى غير مرحمة ولا مسالة ولاحتى تفكير . .

وأنهم اليوم يهددون بالويل والثبور وعظائم الأمور . ويحسون أنهم بهذا الذى يهرأون يهزون أعمدة الديمقراطيه التى لاتزال مصر تهفو إلى تثبيتها وتعميق أسسها ولو أن رئيس الجمهورية شخص آخر لما جرأوا أن يقولوا ما يقولون ولا فكروا أن يكتبوا ما يكتبون ولكنهم يعلمون أن حسنى مبارك ثابت كالجبل الأشم يكبر على الصغار ويعلو على الوهاد وإذا مَرَّ باللغو مر كريما ، وإن خاطبه الجاهلون قال سلاما .

يطالبون فيما يطالبون أن يترك رئيس الجمهورية رئاسة الحزب ولعمرى أى ديمقراطية تلك التى لا ينتسب فيها رئيس الجمهورية إلى حزب فلينظروا إلى ديمقراطيات العالم الرئاسية أجمع أليس كل رئيس دولة فيها ينتمى إلى حزب من أحزابها فأى عجب أن يكون رئيس جمهورية مصر رئيسا لحزب مصرى .

ويقولون - ولا أدرى أيصدقون ما يقولون أم هو اللعو - إن الحزب الديمقراطى لا يمثل الشعب فكيف السبيل إلى معرفة رأى الشعب إن لم يكن بالانتخاب وإن الانتخاب بالقائمة بالذات هو أصدق معيار على رأى الشعب فى الحزب نفسه فى حين نجد أن الانتخاب الفردى يختار الشخص لشخصه فى أغلب الأمر دون النظر إلى حزبه والاختيار فى هذا النوع من الانتخاب يتم للصلات الشخصية والمنافع الفرديه وأقرب مثال على ذلك يوم اتهم أحد أعضاء المجالس النيابية بالاختلاس وأدانته المحكمة الابتدائية وتقدم إلى الانتخابات فكان الناخبون يهتفون . حرامى حرامى لكن بنحبه والله . . والله . . أهذه الديمقراطية التى يريدون .

وإن قالوا إن الحزب الديمقراطى ليس له تاريخ أو جذور فأبسط ما يقال لهم : وكيف تريدون له جذورا أو تاريخا بعد أن انعدمت الديمقراطية وقتلت الأحزاب فى مصر لمدة ربع قرن وكيف كان يمكن للديمقراطية أن تعود الا بأحزاب جديدة .

وربما وافقتهم أن الحزب الجديد ينبغى أن تكون له مبادىء واضحة المعالم محددة السمات جلية الملامح ولكننا مازلنا فى خطواتنا الأولى من الديمقراطية ولابد مع الأيام - أن يصبح للحزب الوطنى مبادؤه ومعالمه وسماته .

ونسألهم أين أنتم من المبادىء وكيف تطبقونها وأنتم الحزب الذى نشأت دعائمه منذ أكثر من ستين عاما .

طلبت الحكومة رأيكم فى الدعم وكيف يصل إلى مستحقيه فتكتمتم عن إبداء الرأى ولذتم بترهات وحجج منهارة دون أن تفكروا فى مصلحة مصر ولا فى موقفها الاقتصادي وأصررتم أن تدخروا رأيكم وتحتفظوا به حتى تعارضوا أى قرار قد تتخذه الحكومة فى هذا الشأن . . وكان الأحرى بكم أن تؤيدوا الحكومة كل التأييد فيما تفكر فيه لأن هذا المذهب الذى تذهب إليه الحكومة يتفق كل الاتفاق مع مذاهبكم وآرائكم التى تدعون أنكم تعتنقونها وحين تكلم أقوام عن مجانية التعليم فى المدارس والجامعات كان رأيكم غمغمة مبهمة وكلاما معجما يسوده الحرص كل الحرص على المعارضة لوجه المعارضة وليس المعارضة من أجل مصر .

وبدلا من أن تحاربوا الإصرار على بقاء الخمسين فى المائة من العمال والفلاحين فى المجالس التشريعية ومجالس الإدارات رحتم توجهون أسهمكم إلى الأشخاص وليس إلى الأفكار وتحتسبون أنفسكم أبطالا دون بطولة فى الهجوم على رئيس الجمهورية وأنتم تعلمون كل العلم أنه لن يصادر لكم جريدة . ولن يحبس قلما ولن يعتقل أحدا فهكذا هو هكذا تعرفونه وعلى الرغم من وثوقكم بهذا أولأنكم واثقون من هذا - رحتم تهاجمون بسيوف ورقية وجعلتم من أنفسكم أضحوكة بين الناس .

ثم أنتم - ويا للعجب - تطالبون بإلغاء حزب الأغلبية أليس لكم وازع من عقل أو منطق كيف تظنون أنه يمكن أن يصدر أمر بإلغاء حزب الأغلبية والإبقاء فى الوقت نفسه على أحزاب الأقلية .

ألا تدركون أنكم بهذا الذى تطالبون به تفتحون بابا واسعا لإلغاء الديمقراطية جميعا . . أتراكم الى هذا تسعون .

إحذروا أنفسكم واذكروا مصر فإنكم بما تصنعون وتعملون جاهدين على أن تدمروا الديمقراطية تدميرا كاملا ولو لم يكن رئيس الجمهورية كالجبال الرواسى لكان جوابه عليكم غير هذا الذى تشهدون .

بعض هذا الذى تصنعون بمصر فإنكم لستم منطقيين مع أنفسكم ولا مع مبادئكم بينما أرى الشيوعيين والناصريين منطقيين مع أنفسهم ومع مبادئهم .

فهاتان الفئتان إذن تسيران فى الطريق الطبيعى للمبادىء التى يدينان بها فالشيوعيون يعلمون أن لا حياة لهم مع الديمقراطية وإن نادوا بها فيما ينادون بها إلا ليقتلوها ويجهزوا عليها .

والناصريون يريدون أن يعود الطغيان والجبروت والحكم العاتى ذو الظلام الدامس والإرهاق والعنت ليعودوا هم إلى السلطان وامتصاص دم الشعب وأكله حيا أو ميتا .

الفئتان فى طريقهما الذى اختارتاه .

أما أنتم فتسيرون فى عماية من طريقكم وعلى مبادىء غير التى تدينون بها وترفعون شعارات غير الشعارات التى ينبغى أن ترفعوها .

وقد عرفتم الظلم وذقتم علقمه وطحنكم الطغيان فيما طحن فأفيئوا إلى الرشد منكم وكونوا من الذين اتقوا والذين قال عنهم الله « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

« الأعراف ٢٠١ »

ولا تنسوا قوله سبحانه وتعالى فى سورة الأنفال « ٢٥ » « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

« صدق الله العظيم »

. وأنا أخشى أن تكون الحكومة وقد أصدرت البيانات الطوال بضرورة الإنتاج وحتميته قد اطمأنت أن الناس سيسارعون إلى الإنتاج وأن كل شيء سيسير فى نهجه الأمثل . هيهات .

احسب

أنا لم أجد فى حياتى شيئا الجهد المبذول فيه لا يأتى بثماره قدر هذا الذى يسمونه بالتوعية .

كم من أموال أنفقت فى سبيل التوعية بعواقب زيادة النسل والانفجار السكانى – وما يصحبه من أهوال فى الغد . من ضيق فى العيش ومن تقتير فى الرزق . وكم قالوا أنظر حولك وانظر أمامك وانظر خلفك . فكانت النتيجة مزيدا من الانفجار السكانى . ولعل التوعية صنعت عكس ما أريد منها فذكرت منصرفا عن زيادة النسل فجعلته يزيده حين كان لاينوى أن يزيده .

والناس لا تحب النصيحة . والذى يستنصحك إنما يريد أن تؤيده فيما استقر عليه هواه فإن كانت نصيحتك تؤدى إلى غير ما يميل إليه بحث عن ناصح قال فيها إن النصائح هى أثقل الطيبات على النفوس وهو محق .

لن تجد عاملا يستغل ما أتاحته له قوانين العمال من أجازات ومن تهرب ومن قعود عن العمل يترك هذا جميعه ويسارع إلى ما تفرضه عليه الأمانة وشرف المعاملة ويقبل على العمل الإقبال المفروض فيه .

إستجابة إلى النداء الصادر من الحكومة أو من غيرها لا شيءيرد السادر المنصرف عن الجدية فى الحياة إلى الطريق القويم إلا القانون . أما التى يسمونها بالتوعية فلا خير فيها مطلقا .

إن العامل حين يتهرب من العمل ويدعى المرض ويستنفد أجازاته جميعا يعلم كل العلم أن الذى يصنعه لا يتفق مع الأمانة ولكنه يصنعه مع ذلك . وهو مستعد أن يبذل نصحه لجميع الآخرين أن يقوموا بواجبهم خير قيام ولكنه يستثنى نفسه فالإنسان يعتقد أنه دائما إستثناء من القاعدة إنه هو . . وهل فى العالم أجمع مثله هو فلتة الطبيعة . وهو الاستثناء الوارد على مخلوقات الله وهو يحق له ما لا يحق للآخرين .

فأى توعية توجه إلى هذه الأنانية يعتقد هو أنها أصلا تقال للآخرين ولا تقال له هو لأنه هو يعرف كل شيء ولا يحيط إنسان بما يعلمه هو .

ولما كان الله هو الذى برأ النفوس وخلقها فإنه يعرف مخلوقاته بكل ما يتذبذب فى جوانحهم من هواجس وهكذا أرسل سبحانه كتابه إلى العباد بالوعد والوعيد والإنظار والأمل .

لأنه يدرى أن الإنسان لا يسير على الهدى إلا خوفا وطمعا والآيات التى تعد الإنسان بالفوز بالجنة وبالنعيم كثيرة والأخرى التى تتوعد الإنسان بالنار والعذاب كثيرة .

ولكنى أختار من بينها قوله تعالى فى سورة الأعراف الآيات ١٦٥ وما بعدها « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلم عتوا عن مانهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » صدق الله العظيم .

والله سبحانه وتعالى كان يستطيع أن يضع مخلوقاته جميعا على الجادة ويلزمهم الطريق القويم ولكنه جلت مشيئته أراد أن يحمل الإنسان الأمانة ويختار وأرسل إلى الناس رسله يبشرون بكل ما فى الجنة من هناء لم تره عين وما سمعت بمثله أذن من قبل وينذرهم بالسعير والغسلين والزقوم لمن لم يخش الوعيد .

فالبيانات إذن التى تدعو إلى زيادة الإنتاج ثرثرة فارغة لن يستجيب لها أحد . فكل الذين يعطلون الإنتاج يدركون جريمتهم التى يرتكبونها وهم فى غير حاجة الى هذه الدعوة إلى زيادة الإنتاج ومالهم لا يستلبون من الدولة ما أباحه القانون من أجازات تزيد على مائة وعشرين يوما فى العام وأغلبهم يعتقد أن ما يسرق من الحكومة والقطاع العام حلال مباح فمال الحكومة عندهم سائب لا صاحب له .

إن القوانين التى تحكم العمال عندنا لا مثيل لها فى العالم وإنى لأعجب كيف نريد أن تنهض الصناعة عندنا فى ظل هذه القوانين وأقرأ ما يكتبه المتخصصون من أن عمال العالم أجمع يعملون ثمان ساعات فى اليوم ومنهم من تصل ساعات عمله إلى عشر ساعات بينما لا يكمل العامل عندنا العمل الساعة ونصف الساعة فى اليوم .

وكيف نريده أن يعمل وهو يعلم أنه لا رئيس له .

فى أى دولة فى العالم يفصل رئيس مجلس الإدارة فى توقيع قلم ولا يفصل العامل المسىء الكسول غير المنتج بل إن الوزير وهو الوزير يبعد عن الوزارة فى غمضة عين بينما لا يستطيع الوزير أن يفصل أى عامل فى وزارته أو المصانع التابعة لوزارته .

الوزير تحاسبه المجالس النيابية والعامل لا حسيب عليه ولا رقيب .

وأذكر قصة رواها لى مدير عام لمصلحةالسكك الحديدية إستقال منذ بضع سنوات وكان معروضا عليه العمل فى شركة أجنبية بمرتب يفوق مرتبه عدة أضعاف . واستدعاه رئيس الوزراء ورجاه أن يبقى فقال المدير السابق .

- إننى من أجل مصر مستعد أن أترك المرتب الضخم المعروض على فى العمل خارج الحكومة وأبقى ولكن بشرط واحد .

وقال رئيس الوزراء .

- ما هو .

قال

- حين عينت مهندسا بالدرجة السادسة بمصلحة السكك الحديدية تسلمت دفتر جزاءات فإذا وجدت أى تقصير أثناء تفقدى للآلات والعربات وقعت الجزاء الفورى على العامل المقصر واليوم وأنا فى أكبر منصب فى المصلحة لا أطلب شيئا إلا أن يكون عندى دفتر مثل الذى تسلمته وأنا موظف أبدأ حياتى فى هذه المصلحة نفسها .

وقال رئيس الوزراء

- هذا غير ممكن

واضطر المدير أن يقول -

- وأنا أسف لا أستطيع البقاء فى منصب لا مسئولية لى فيه إلا أن أتمتع باللقب دون أى فعالية .

واستقال المدير العام وأعتقد أن كل الذين جاءوا بعده يريدون أن يقولوا نفس الذى قاله هو ولكنهم يعلمون أنه مستحيل التنفيذ .

إن عهد الطغيان قدم الرشاوى من دماء مصر إلى التجمعات الكبرى واليوم تغلق دوننا المسالك .

فإذا قلنا أدركوا المجالس التشريعية فى مصر وحافظوا على كرامة مصر بإلغاء نسبة الخمسين فى المائة فى مجلسى الشعب والشورى وجدنا من يقول هذا مخالف

للدستور وإذا قلنا إن الاقتصاد المصرى قد دمر تدميرا تاما بالقطاع العام على صورته الراهنة والقوانين التى تحكم العمال وجدنا من يقول هذا مخالف للدستور .

وإذا قلنا إن مصر قد تدهور التعليم فيها حتى أصبح جهلا وحتى صارت الشهادة العالية فيها لا تعنى أن صاحبها نال ما ينبغى من التعليم وإذا قلنا أدركوا التعليم بالمال من القادرين . . ومن القادرين وحدهم وجدنا من يقول هذا مخالف للدستور .

ووسائل تغيير الدستور واردة فى الدستور نفسه فإذا لم يتغير الدستور لإنقاذ مصر فلأى شىء يتغير الدستور .

الأمر الذى لا شك فيه أن هذا الدستور قد وضع من أجل المصلحة العليا لمصر وإذا كان الدستور قد وضع من أجل مصر فلا يعقل أن نضحى بمصلحة مصر من أجل الدستور وإذا كان ما نطالب به عدلا فالعدل أحق بأن يتبع فى الدستور أولا

فالدستور هو أبو القوانين فإذا لم تتحقق فيه العدالة فهيهات لها أن تتحقق فى أى ناحية من نواحى الحياة .

وإن هذه الموضوعات التى نثيرها أساسيات فى حياتنا ونحن ندرك الآن الأزمة الطاحنة التى نواجهها فإذا لم نأخذ طريقنا فى شجاعة وفى إصرار إلى الأساسيات فكل الذى يصدر من قرارات ومن قوانين لن يفيد إلا كما يفيد كوب ماء نلقيه على حريق يلتهم بلدا بأكمله . . ويأبى الله هذا والمؤمنون .

●●

ليس شيئا بغريب على الشيوعيين وقد تعودنا أن يطلعوا على الناس فى كل يوم بلون جديد من الجرأة على الحق والإساءة إلى مشاعر الناس قاطبة والتهجم على العدل الواضح الذى لا يختلف عليه اثنان مادام ليس بينهما من هو صاحب غرض أو مائل مع الهوى أو حائد عن الطريق القويم الذى لا شك فيه ليس شيئا على الملحد بغريب وما من شىء منه يدعو إلى الدهشة وأى تصرف يمكن ان يثير العجب من قوم باعوا دينهم بالمال وتخلوا عن أوطانهم ورضوا أن يكون وطنهم بلادا أخرى وانسلخوا عن جماعتهم ليخلصوا ولاءهم لجماعة أبعد ما تكون عن مقدسات جماعتهم ومثلها وقيمها وأخلاقها .

ليس شيئا بغريب من قوم هذا دأبهم ولكننى مع ذلك فجعت دهشة وعجبا وأنا أتابع الحملة الجديدة التى يشنها الشيوعيون على أبطال أفغانستان وزادت فجيعتى وهم يطلقون على الشعب الأفغانى الذى يقاوم الاستعمار متمردين أيكون المدافع عن حقه متمردا ماذا يقول هؤلاء الملاحدة ؟

إنهم لا يشنون حملتهم على الجيوش الغازية المعتدية ولا على الحكم العميل السفاح لا . . ليست على هؤلاء حملتهم .

وإنما حملتهم على المجاهدين الأبطال الذين يقفون بأيد عزلاء أمام الوحوش الضارية الذين يغزون وطنهم .

ترى أتولاك العجب أيها القارىء أعرفت فى حياتك وقاحة مثل هذه الوقاحة وما أضعف الكلمة فى وصف هؤلاء المصريين أو الذين يقولون إنهم مصريون وهم يؤيدون الاحتلال والغزو والجبروت وسفك الدماء والاعتداء على أمن الدول وسلامتها بلا وازع من ضمير أو حياء .

لا يشك أحد أن الأوامر قد صدرت لهم من حزبهم بشن هذه الحملة الرعناء الظالمة الهوجاء على قوم يقولون لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا رسول الله ثم يرمون بأنفسهم إلى أتون الهول الذى فتحه عليهم الغزاة .

ولا يشك أحد أن هذه الأوامر كانت مشفوعة بالمغريات وبالتهديدات فى وقت معا ولكن ألم يبق للشيوعيين فى مصر بقية مهما تكن هينة من خجل ؟ أو ظل مهما يكن واهنا من حياء ؟

أو أثارة مهما تكن واهية من الحفاظ على مشاعر المسلمين الذين يعيشون بينهم بل لا يبالون بمشاعر المؤمنين جميعا لكم قرأنا كتابات فى أزمان مختلفات وفى عصور عديدة فما وجدنا كاتبا واحدا يدافع عن الاحتلال والقهر وغزو الدول المطمئنة الوادعة فأى كتاب هؤلاء الذين طلع علينا بهم الزمن الأخير وفى أى مداد يغمسون أقلامهم إلا أن تكون الدماء هى مدادهم والمال المنهوب والرشوة المنهمرة باعثهم والذى تنكسر أمامه كل مشاعر الإنسانية التى أودعها الله فى نفوس البشر .

يشهد غزو أفغانستان اليوم العام السابع له بعد أن بدأت روسيا هذا الغزو بجيش قوامه ثمانية آلاف وخمسمائة جندى وثمانمائة دبابة وثلاثمائة طائرة وما أضخم هذه الأعداد فى مواجهة شعب أعزل ليس بيده إلا بنادق عتيقة الصنع ولأن روسيا لا تعرف معنى الإيمان فقد حسبت أن الغزو لا يستغرق أكثر من بضع ساعات من نهار أو ليل ولكن روسيا تجهل أن هؤلاء الضعاف أجساما هم العمالقة نفوسا وأن هذه الأجساد الهزيلة تملك قوة أعظم من أسلحة العالم أجمع .

إن قوتهم هى إيمانهم أن لا إله إلا الله التى تخفق بها قلوبهم وأن محمدا رسول الله التى تجرى بها دماؤهم فى العروق وبهذا الإيمان صد هؤلاء الغزاة الزحوف الغازية وبهت الذى كفر وإذا الغزاة الجبابرة يطلبون المدد ويتوالى المدد إرسالا فإذا جنود الغزو ترتفع أعدادها إرتفاعا مذهلا فالآلاف الثمانية لا تصبح عشرة أو عشرين أو خمسين أو مائة .

بل تصبح مائتين وثلاثين ألف جندى وإذا الدبابات التى تحارب اليوم فى أفغانستان تصبح ثلاثة آلاف دبابة وإذا الطائرات تصبح سبعمائة طائرة كل هذه الجيوش تحارب الحق والحق وحده .

ومع كل هذه الجحافل الضخمة لا يستطيع الغزاة أن يستولوا على أكثر من عشر مساحة أفغانستان ويظل المجاهدون المؤمنون محتفظين بتسعة أعشار أرضهم .

وترغم الحكومة العميلة الجيوش الأفغانية النظامية أن يحاربوا آباءهم وإخوتهم وأبناءهم ويحاول بعض منهم أن يرفض هذا القتال المفروض عليهم مع ذوى قرباهم وأصحاب الأرض والحق فإذا بالحكومة العميلة ترغمهم إرغاما

ساحقا أن يستمروا فى حرب أنفسهم وتطلع علينا وكالات الأنباء بخبر عنوانه إعدام عشرين جنديا أفغانيا رفضوا القتال ضد الثوار .

وتستمر الحرب سبع سنوات والجيوش الزاحفة بكل جبروتها محاصرة بالإيمان حولها وتصبح كمن مشى إلى رمال متحركة تبتلع كل قادم إليها ولا تتركه حتى يموت خنقا فيها ويزداد السعار وتتحول الجيوش السفاكة المغلوبة المدحورة من حرب الرجال إلى محاربة الأطفال فإذا هم يعذبون الأطفال ويقتلونهم أمام أنظار آبائهم وأمهاتهم ويذكر الأفغانيون ما شهده أتباع الرسول من كفار ذلك الزمان الجاهلى ويزدادون إصرارا على التمسك بإيمانهم وبأرضهم .

وقد يقول قائلهم ولكن عتاة مكة والمجرمين من أهل الكفر لم يعذبوا الأطفال أمام والديهم ثم ما يلبثون أن يرتدوا إلى إيمانهم إذن فبشرانا فبقدر الهول الذى نشهده يكون إكرامنا عند العدل المطلق عالم الغيب والشهادة .

هذه الوحشية التى لم يشهد أى تاريخ لها مثيلا يباركها الشيوعيون في مصر بإيعاز من شياطينهم وتتوالى مقالاتهم في أكثر من . . مجلة تؤيد الغزو وتتمدح به وتذكر أفضاله وأثاره العظيمة على البلاد وهم فى حمأة اندفاعهم فى المديح لاينسون أن يقولوا إن الغزو يعمل على نشر التعليم جميعه والتعليم الدينى خاصة ولايذكرون أن الهاربين من جنات بلغوا فى باكستان وحدها ثلاثة ملايين نفس ولايهمهم ما تتناقله وكالات الأنباء عن السرقات والرشى والاعتداء على الحرمات التى تمارسها القوات الغازية على أفغانستان جميعا حكومة وشعبا .

مالهم هم وهذا ؟ إن الأوامر قد صدرت لهم أن يمدحوا وأن يقولوا إن الغزو حمل معه إلى أفغانستان الحياة السعيدة الهانئة وأنه طبق قوانين الإصلاح الزراعى ومبادىء ماركس الخالدة ووهب الشعب المكاسب الاشتراكية وتتزايد جرأتهم على الحق فيصبون سخيمتهم على السادات الزعيم الخالد أنه سلم أسلحة روسية للمجاهدين ويرون أن هذا الذى صنعه السادات عمل من أعماله الجديرة باللوم فهم اليوم يرون أن كل ما صنعه السادات سيء حتى مساعدة أصحاب الأرض أن يستردوا أرضهم .

ويقول قائلهم إن الروس اكتشفوا البترول والغاز وفتحوا لهم العيادات الطبية وجهزوها وأنشأوا مصانع للسيارات بل أنشأوا عشرات المصانع ونشرت الجيوش المعتدية المحبة والسلام فى ربوع البلاد إلى غير هذا من المآثر والأفضال التى تعود الاحتلال أن يدعى أنه يفعلها فى الأراضى المحتلة وكلها أكاذيب لاظل لها من الحقيقة وما يقولها قائل إلا نال ثمن قولها .

أحسب أن الغيظ قد تملكك مما تقرأ . ولكن ما يهم المهم أن يتمدحوا بالغزو والاحتلال والقضاء على الدين والإيمان وحق الإنسان الطبيعي فى أن يعيش آمنا فى وطنه مطمئنا وقد سمع من يقول وأى عجيبة فيما يصنعون أنسيت أنهم أيدوا احتلال إسرائيل لفلسطين هاتفين بحياة روسيا التى كانت الدولة الثانية فى العالم إعترافا بالدولة الإسرائيلية لم تسبقها فى ذلك إلا أمريكا التى مازالت الوطن الأم لإسرائيل حتى اليوم وهم أنفسهم اليوم الذين يلصقون بالسادات العظيم كل ما فى قاموسهم من سفالات لأنه وقع السلام مع إسرائيل وهم هم أنفسهم أعلى الناس صوتا فى الدفاع عن فلسطين وعن القضية .

متى كان لهم رأى يقفون إلى جانبه أو مبدأ يثبتون عليه إلا الإلحاد بالله ورفض الانتماء إلى الوطن .

ولايكتفون بالقول بل هم يشفعونه بالعمل ويؤلبون العمال فى المحلة وفى شركة إسكو بعد أن خاب سعيهم فى تجمعات الطلبة يريدون لمصر أن يتحطم فيها الإنتاج وأن يعمها الخراب لأن تربتهم هم هى الأرض الخراب . ولولا أن رئيس مصر مسلم قوى الإيمان مصرى عميق المصرية لطالبوه أن يستدعى الجيوش الغازية فى أفغانستان لتنشر فى مصر الخير والبركات والسعادة والهناء التى لايخجلون أن يقولوا إن الجيوش الغازية قد نشرتها فى أفغانستان .

ليقل الشيوعيون ما يشاءون ولكن أحسب أنه ينبغى أن يقف بهم الأمر عند الكلام فإذا تعداه إلى العمل وإلى التسلل فى الجماعات من عمال إلى غير عمل وعمال فنحن لهم بالمرصاد فإن الأمر جد لايصلح معه الهزل وإذا كانوا يركبون الحرية ليقتلوا بها الحرية فليكن هذا فى الكلام فقط وهم فى هذا الميدان يمرحون ماشاء لهم المرح حتى لقد طغا صوتهم في أجهزة الإعلام على كل صوت وهم يقولون فى مجلاتهم وفى الصحف القومية ما شاءوا أن يقولوا ولكن الفرق بعيد بين صيحاتهم هذه وبين أن تصبح هذه الصيحات عملا وفتنة تؤلب المخابيل البلهاء على الديمقراطية والحرية التى تنعم مصر بها اليوم .

وإذا كانت الحكومة قد وسعت لهم مجالات الإعلام جميعها من صحف إلى مجلات إلى إذاعة إلى تليفزيون فإن على هذه الحكومة نفسها أن تمنعهم أن يثيروا الفتنة ويشعلوا الثورات .

وإذا كان وجودهم الواضح بالإعلام يهدد الاقتصاد المصرى تهديدا عنيفا تدريه الحكومة كل الدراية .

فإن الفتنة التى يريدون إشعالها هى القضاء الكامل على هذا الاقتصاد الذى لايحتمل اليوم أقل هزة فحسبه ما يعانى وحسبنا نحن المؤمنين بالله فإنه نعم الوكيل .

●●

لا اقتصاد بغير ثقة

ان رئيس جمهورية مصر رجل نادر المثيل فى طهارة اليد وشرف الذمة والبعد كل البعد عن مواطن الشبهات . . أذكر أننى كنت يوما فى مكتب أحد الوزراء بالمملكة العربية السعودية فإذا أحد الجالسين يوجه إلى الحديث .

ـ أسمعت مافعله رئيسكم منذ قريب قلت

ـ لا أعرف ما تقصده

قال :

ـ لقد شاعت هنا قصة نتناقلها جميعا وكلنا إعجاب برئيسكم فقد قيل إن ابنه سافر إلى فرنسا فى رحلة دراسية فإذا أبوه يشترى له تذكرة سفر سياحية فى الدرجة الثانية بعد أن أجرت عليها الشركة التخفيض الذى تمنحه للطلبة جميعا وسافر إبن رئيس الجمهورية دون أن يحيط به أى مظهر من المظاهر التى تلحق بأبناء الرؤساء .

قلت :

ـ أنا لم أسمع بهذ القصة ولكنها ليست عجيبة على رئيسنا فهكذا هو وحين عدت إلى القاهرة تأكدت من صدق ما رواه لى المواطن السعودى وللناس همس مسموم ولهم بينهم حديث يستعذبون فيه الخوض فى أقدار الناس وأمانتهم .

ومثلى بعدما يسمع كل ما يدور همسا وأغلب إن لم يكن جميع ما يتناقله الناس فى تنادمهم أقسم ـ وما أنا بحاجة إلى قسم ـ أن أحدا لم يذكر الرئيس محمد حسنى مبارك إلا وتحدث عن طهارة يده وبعده كل البعد عن أى مظنة لشائبة ولقد قلت إننى لست بحاجة إلى قسم لأن هذا الذى أقوله سيؤيدنى فيه كل قارىء سواء كان مؤيدا للرئيس مبارك أو معارضا له .

كان من الطبيعى إذن أن تصبح الطهارة هى سمة العهد جميعه وأن تكون هى الصفة التى يتحلى بها كل من يجلس على مقعد ذى سلطان وإدارة .

ولكن ـ وا أسفاه ـ الهمس يدور فى كل مكان بكبائر التهم والناس تلوك كثيرا من الأسماء بشتى سرقات واحتيالات واستغلال للنفوذ واقتناص للفرص واستيلاء على ما ليس لهم بحق وتستر على لصوص وحماية لمن يستحلون أموال الدولة .

والهمس يدور أن كثيرا من الاتهامات حولت إلى المدعى الاشتراكى وقد أكرمنا الله فى منصب المدعى الاشتراكى بقاض من أمجد القضاة وانقاهم سمعة وأحسنهم سيرة وأشرفهم قصدا وغاية وتصرفا إلى جانب علم وافر وقدرة فائقة على مواجهة قضاياه فالذى لا شك فيه إذن مع ما يعرفه الجميع عن هذا القاضى أن جهازه ليس فيه العدد الكافى للاضطلاع بذلك الكم الوفير الذى يتدفق على محكمته .

وليس الأمر يسيرا فإن وظيفة المدعى الاشتراكى تعتبر من أخطر الوظائف إن لم تكن أخطرها فى هذه السنوات التى نجتازها ومصر فى أشد الحاجة إلى هذه المحكمة لتواجه الفساد الذى يحيق بأجهزتها والذى حاق بها فى خروج مصر من الاقتصاد المغلق الى الاقتصاد الحر ومن عصر الحكم المفرد الى عصر الديمقراطية والحرية .

وأن التقرير الذى طلع علينا به مكتب المدعى الاشتراكى يظهر بجلاء حاجة مصر الماسة إلى هذه المحكمة ولكن لابد أن يتهيأ للمدعى الاشتراكى كل ما يتطلبه عمله الخطير من معاونين يستطيع بهم أن يواجه هذه الموجة الطاغية من الفساد والرشوة والسرقة واستغلال النفوذ .

ولا مجال للقول هنا إن وظيفة المدعى الاشتراكى وظيفة إستثنائية فى السلطة القضائية فإن الحالة الاستثنائية لابد أن تواجهها الدولة بقضاء إستثنائى والقائمون بالأمر فى مكتب المدعى الاشتراكى قضاة جميعهم من السلطة القضائية وعلى رأسهم قاض من أعظم قضاة مصر فمن الطبيعى إذن أن يكون عددهم كافيا لما استشرى فى مصر من فساد فإنه لولا المدعى الاشتراكى لهربت من مصر أموال تزيد على الأموال التى هربت أضعافا مضاعفة ولولاه لأفلت من العقاب مجرمون ارتكبوا أبشع الجرائم معتدين على الآمنين من بنى مصر وشر عدوان لهم على اقتصاد مصر نفسها .

إن مصر اليوم تعانى أعظم ما تعانى من شاغلى مناصب كبرى ثارت حولهم وحول أقاربهم الأقربين تهم دامغة .

وتعانى مصر اليوم من قيادات تنحرف باتجاهها إلى أسوأ ما واجهته مصر من أهوال سياسية واقتصادية وخلقية واجتماعية .

وقد عاشت مصر فترة طويلة من الزمن فى ظل حكم حطم القيم الأخلاقية والإنسانية شر تحطيم ونرى الكثيرين ممن عملوا فى ظل هذا الحكم يتولون أخطر المناصب وأكثرها حساسية وفعالية .

وللسياسة والحكم رجال أولا وقبل كل شىء فإذا فقد الشعب ثقته فيمن يتولون المناصب الخطيرة فى دولته فكيف يمكن أن يثق باقتصاد دولته وكيف يجوز لنا أن نطالبه أن يقدم أمواله فى المشاريع الاستثمارية وكيف نريد ممن يملك العملية الصعبة أن يساهم بها فى اقتصاد مصر وكيف نأمل أن يساهم أبناء مصر فى الخارج فى دعم اقتصاد مصر ويرسلوا أموالهم إلى مصر وديعة والوديعة لابد أن تكون وادعة أمينة فمن أين يأتى الأمن الى نفوس المصريين فى الخارج وهم يرون المصريين فى الداخل يخافون على أموالهم من هول الإشاعات التى تحيط بهم مع الهواء الذى يتنفسون ومع الماء الذى يشربون وأين الأمان فى بلد تتعالى فيه صيحات أقوام يشرفون على قطاعات هامة فى حياتنا نسمع فى رنين صيحاتهم القضاء على الحرية الاقتصادية أو الحرية السياسية .

وهكذا كان حتما علينا أن ننظر فى أمر هؤلاء الذين يتولون مناصب ولابد أن يكون اختيارنا لهم مبعثا للفوز بثقة الشعب فيهم فإنه لا أمل لنا أن ينتعش إقتصادنا إلا إذا استقرت الثقة كل الثقة بمن يتولون عظائم أمورنا .

إن انصار الطغيان ودعاة الشيوعية اصبح لهم اليوم فى مصر صوت مرتفع عالى الطبقات تؤيد كوارثهم بعض مناصب غاية فى الأهمية وعلى درجة عالية من الحساسية .

والصوت المرتفع يستطيع أن يبتلع فى أطوائه الحقائق المؤكدة والذى لا شك فيه أن شعب مصر يكره الطغيان كما يكره كل شعب أن يحكمه طاغية .

والذى لا شك فيه أن شعب مصر يرفض الإلحاد ويؤمن بالله إيمانا عميق الجذور بعيد الأصول .

ولكن الأصوات المرتفعة التى هيأ لها الإعلام المصرى أن تكون صيحات بعيدة المدى إستطاعت أن تبتلع المبادىء الحقيقية التى يعتنقها الشعب المصرى والتى يحافظ عليها حفاظه على الحياة وهى الحياة وهو يؤكد ذلك بالأدلة الدامغة وأقربها الانتخابات التى لم يستطع الشيوعيون فيها أن يفوزوا بمقعد واحد .

ولم يكن عجبا أن يكون هذا دأب الشيوعيين فى كل مكان فى العالم ولعل آخر ما بدا من كراهية الناس لهم إنتخابات السودان وقد كان صوتهم فى السودان

مرتفعا عاليا ذا هزيم كهزيم الرعد حتى لقد ظننا أنهم سيفوزون بالأغلبية فى انتخابات المجلس النيابى وتتم الانتخابات وتظهر النتائج فإذا هى حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها مقالى تسفر عن نتائج تؤكد أن الشعوب لا تطيق الشيوعية ولا تتصور أن تحكم بها فحين يفوز حزب الأمة السودانى بثمانية وثمانين مقعدا ويفوز حزب الاتحاد بستين مقعدا ويفوز المستقلون بخمسة مقاعد لا ينال الشيوعيون إلا مقعدين ربما نجحا برغم أنهما شيوعيان لا لأنهما شيوعيان .

هكذا الشعوب فى جميع أنحاء العالم من غربه إلى شرقه لا يختلف فى ذلك شعب عن شعب ولا أصحاب بيت عن أصحاب بيت آخر .

وهكذا كان حتما علينا أن ننظر فى أمر هؤلاء الذين يتولون مناصب ولابد أن يكون إختيارنا لهم مبعثا للفوز بثقة الشعب فيهم فإنه لا أمل لنا أن ينتعش إقتصادنا إلا إذا استقرت الثقة كل الثقة بين من يتولون عظائم أمورنا .

●●

رأيته شابا يافعا فى أروقة حزب الأحرار الدستوريين لم تكن سنه قد بلغت العشرين بعد وكان متحمسا للحزب حماسا جنونيا مندفعا حتى لقد كان رجالات الحزب لا عمل لهم معه إلا كبح جماحه والحد من اندفاعه وكان فى الاجتماعات هو دائما البادىء بالهتافات وكان يظل يهتف حتى يضطر الخطيب إلى أن يرجوه أن يعطيه الفرصة ليكمل خطابه .

حتى إذا انتهى الخطباء تجده وقد بح صوته حتى لا تستطيع أن تسمع منه كلمة إلا إذا أملت أذنك حتى تلتصق بفمه .

وفى هذا السيل الجارف من التحمس المندفع المتدفق عرفنا أنه يذهب الى الهيئة السعدية وأنه يبدى من الحماس لمبادئها نفس ما يبديه لمبادىء حزب الأحرار الدستوريين وأنه يهتف لزعماء الهيئة السعدية كما يهتف لزعماء حزب الأحرار الدستوريين . .

وكان الحزبان مؤتلفين فى الوزارة وأغلب الأمر بل من المؤكد أن أعضاء الهيئة السعدية عرفوا أمر اتصاله بحزب الأحرار الدستوريين كما عرف حزب الأحرار أمر اتصاله بالهيئة السعدية .

ومن المؤكد أيضا أن رجالات الهيئة كانوا يكفكفون من غلوائه ويعقلون المندفع من تهوره وظل هذا حاله حتى سقطت الوزارة المؤلفة وتألفت الوزارة الوفدية وكان الفتى قد أصبح فى الجامعة فإذا هو فى سهولة ويسر يهجر حزب الأحرار الدستوريين والهيئة السعدية جميعا وينقل تحمسه إلى الحزب الوفدى فهو عضو فى لجان شبابه وهو هو المتزعم للهتاف حتى يبح صوته وهو هو المتصدر فى احتفالات الحزب ـ وما أكثرها ـ يوزع الأدوار على الهاتفين ويؤلف كلمات الهتاف ويخص كل وزير من الوزراء بفيض من الثناء ويغمر كلا منهم بموفور من المديح والفتى مرن على الهتاف مرانا قل أن يجيده أحد فى مثل سنه وتلك ميزة ليست قليلة الشأن فى مكان توجد به تجمعات أو اجتماعات أو خطباء .

وكان الفتى يستفيد من هتافاته هذه فوائد ليست بالهينة الشأن ولا الضئيلة العائد فهو قد حصل على مدى سنوات هتافه على كل الإعانات التى تقدمها الوزارات لمن ضاق عليهم الزرق .

نال من وزارة الأوقاف ومن وزارة الشئون الاجتماعية وعمل فى كل صحف هذا الزمان لا كمحرر فلا شأن له هو بالتحرير وإنما عمل كمورد للإعلانات من الحكومة وناهيك بإعلانات الحكومة من مورد لا ينقطع سيله ، ولا ينضب غمره ، ولا يفيض ماؤه وقد كانت أغلب الصحف والمجلات تكاد تعيش على هذه الإعلانات وهكذا استطاع الفتى أن يصلح شأن نفسه أما شأن ذويه فهو غير مسئول عنهم فقد كان أبوه موظفا ضئيل الدخل هزيل المرتب وكان إخواته ثلاثة لم يفكر يوما أن يعين أهل بيته بما يجعل الحياة معقولة أو ممكنة بل أنه يرغم أباه ؟؟ أن يشترى له الملبس أيضا أما أنه يطعم بالبيت فهذا أمر يراه طبيعيا فما دام أبوه قد أتى به إلى الحياة فهو مسئول أن يطعمه حتى يتخرج وهو لا يرى أن هذه القاعدة يمكن أن يرد عليها استثناء مهما يكن هو موفور الدخل ومهما يكن أبوه مجهدا قليل المال كثير النفقة .

ومع المران والأيام صار يسافر إلى بلدته يبحث عن طلاب الحاجات ويتشفع لهم وينال من جداواهم ما يعتبرونه رشوة وما يعتبره هو حقا له لا شك فيه .

وما هى إلا زيارة أو إثنتان إلى البلدة حتى أصبح الفتى مقصد قريته والقرى المجاورة جميعا وأصبح أمره مشهورا وأصبحت أسعاره معلومة لا يجهلها أحد أما قصاده فيكثرون وكل من يقصده بمعضلة يحلها له فشفاعته عند ذوى الشأن مقبولة وهو دائما عندهم موضع ترحيب .

وأركان الصفقة معروفة واضحة المعالم يستجيب الوزير للشفاعة من الفتى ويهتف الفتى باسم الوزير فى حفلات الحزب ومن الناحية العكسية لا يستجيب الوزير بشفاعة الفتى فلا يهتف باسم الوزير وحتى أكون صادقا مع نفسى ومعك لم يكن كل الوزراء فى العهد الوفدى أو غيره من العهود يهتفون فى كثير أو قليل بهتافات الفتى أو صراخه فإذا استجابوا لشفاعة منه فهى استجابة حزبى كبير لشاب من شباب الحزب والفتى لا يهمه الباعث عند الوزير وإنما كل ما يهمه أن يحقق ما كلفه به دافعو الرشاوى وليكن الباعث بعد ذلك ما يكون فهو لا شأن له به .

· واحترقت القاهرة .

وراحت الوزارة تتنقل تائهة من عهد إلى عهد فما استقرت على رئيس ولا تريثت عند وزير وزاغت أعين الفتى فأصبح لا يدرى اسم من يهتف ولا بمن يصل أوشاجه ولا إلى أى كرسى يمد حباله .

وجاءت الثورة واتضحت المعالم ووضحت له الأمور وضوحا تاما .

كان صوته بالمران والممارسة أعلى الأصوات فى الهتافات وتنقل الهتاف من رئيس إلى رئيس فى مثل السهولة واليسر التى كان يتنقل به من حزب إلى حزب فيما قبل الثورة وحين استقر الحكم كان الفتى أصبح شابا ذا خبرة واسعة بمعرفة الطريق الذى يختار أعظم الهاتفين شأنا وأعلاهم صوتا .

إنضم الشاب إلى هيئة التحرير وما هى إلا لفتة زمن حتى أصبح من أعظم أعضائه نشاطا فكان طبيعيا أن يرشح نفسه لمجلس الأمة وكان غريبا أن ينتخبه الذين قضى مصالحهم فهم ينتخبونه على الرغم من أنهم هم أنفسهم كانوا يقدمون له الرشاوى فى جميع العهود .

وحين أصبح فى هذا المكان المرموق رفع أسعاره فى القيام بالشفاعات ثم ضاعفها عدة أضعاف وقال - ووجد من يصدقه - إنه لا يأخذ لنفسه وإنما هو يشرك معه الكثيرين الذين يعاونوه فى قضاء الحاجات وبصورة تلقائية إنتقل الشاب من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ورفع أسعاره مرة أخرى .

ثم أصبح فى مقدمة العاملين فى الاتحاد الاشتراكى وكان من المعقول جدا أن يصبح عضوا فى التنظيم الطليعى .

وكان عضوا فى المجلس الذى رقص للهزيمة وكان تصفيقه يومذاك واضح المعالم بين السمات وذهب عهد بأكمله وجاء عهد آخر تسلل إليه فى أناة وخبرة فإذا هو عضو فى منبر مصر ثم هو عضو فى حزب مصر ثم هو عضو فى الحزب الوطنى وهو دائما عضو بمجلس الشعب وهو دائما يحصل على أعظم الأصوات من الناخبين .

وما دام قد صفق للهزيمة فقد أصبح من الطبيعى بل من المحتم ان يصفق تصفيقا مضاعفا عشرات المرات للنصر الرائع الذى لم يشهد العرب له مثيلا فى العصر الحديث وصفق فى حماس لا مثيل له لما أعقب النصر من خطوات السلام الخالدة .

ولكن العجيب فى أمره أنه إذا جلس فى جماعة يهاجمون كامب دافيد وافق المهاجمين فى رأيهم فإذا إنتقل إلى جماعة يؤيدون كامب دافيد كان أشد منهم حماسا فى تأييدها .

ظاهرة عجيبة هذا الفتى .

أم ترى لم يصبح ظاهرة عجيبة .لست أدرى ؟!

وتسألنى - ولا شك أنك ستسألنى من هو ؟

أهو هذا الرجل أم هو ذاك وكيف لى أن أعلم ربما كان هذا وذاك جميعا فقد تشابه الخلق علينا ومن أين لى أن أدلك عليه وأنا أروى لك قصة تمتد جذورها نيفا وأربعين عاما وما أحسب أننى مقصر فالملامح المحددة قد ضاعت فى عينى ولم يبق أمامى منها إلا الخطوط العريضة أقدمها إليك وأنا واثق أنك أنت ، أنت أيها القارىء ستعرف الملامح بكل وضوح وستتبينها بكل دقة فإن ذاكرتك أنت دائما أكثر نشاطا وأعظم تركيزا فما على بأس أن أترك لك أنت أن ترى من ألمحت إليه وأن تتعرف على اسمه وسماته ، بل إننى واثق أنك ستصل من الأمر إلى أبعد من ذلك فإنك قادر لا شك أن تذكر لى إسم أمه وأبيه واسم زوجته وبنيه وما ساروا فيه جميعا من دروب وما ارتادوا من طريق فأنت دائما أيها القارىء أعظم الناس علما بمن حولك وما حولك فشأنك وهذا الفتى الذى أصبح شابا ثم صار كهلا يأخذ طريقه إلى الشيخوخة ولكن بخطوات نشطة وصوت عال مرتفع الضجيج لم تنل السن منه وما أوهنته السنون .

●●

اعجب غاية العجب حين أمر بحرم الجامعة فأشهد صفوفا لا تنتهى من السيارات من بينها سيارات فارهة يتناقل الناس فداحة أثمانها وتصل هذه الأثمان إلى عشرات الألوف وأرى الشباب من تلاميذ الجامعة يتقاطرون الواحد تلو الآخر ومن بينهم من هو فخور بسيارته ذات الثمانين ألفا أو التسعين .

أهؤلاء يتلقون تعليمهم بالمجان ؟

أهؤلاء يحتاجون من الدولة إلى دعم ليتعلموا به ؟

كره الله هذا والمؤمنون .

وعند بدء العام الدراسى أجد آلاف البيوت تسعى لإدخال الأطفال البادئين إلى المدارس الخاصة ويتخرج هؤلاء الآلاف فى المدارس الخاصة وقد حملوا فى أيديهم شهادة الثانوية العامة بذل آباؤهم وذووهم آلاف الجنيهات ليتيحوا لهؤلاء الأبناء أن يحصلوا على هذه الشهادة ويحصلوا معها على لغة أجنبية تكون لهم سندا فى الحياة أعظم به من سند ويخطون هؤلاء إلى الجامعة المصرية فإذا التعليم فيها بالمجانية الكاملة ؟

فهل هذا معقول ؟

أينفق الطالب عشرة آلاف جنيه أو إثنى عشر ألف جنيه أو أكثر ليحصل على شهادة الثانوية العامة التى تؤهله للدراسة فى الجامعة حتى إذا أدرج اسمه فى كشوف طلبة الجامعة وأصبح يتلقى تعليمه من أساتذة أغلبهم حاصل على الدكتوراه إذا كانت الكليات نظرية أو هو يكلف الدولة التى تئن وتتألم من قلة الموارد مبالغ طائلة ليتعلم فى الكليات العملية مثل الطب والهندسة دون أن ينفق مليما .

واحد كيف يسوغ هذا كيف يدفع هؤلاء الطلاب الآلاف الجنيهات للمدارس الخاصة ويتعلمون تعليمهم العالى بالمجان ولماذا تهون الأموال وتقدم فى سماحة ويسر إلى أصحاب المدارس الخاصة والأجنبية حتى إذا بلغت هذه الأموال أبواب

الجامعة المصرية التي تقوم الدولة بأعبائها جميعا أحجمت الأموال عن حرم الجامعة وتسربت إلى سيارات مجرمة وقحة لا حياء فيها ولا خجل .

أحـــرام عـلى بـلابـله الـدوح
حـلال لـلطـير فى كـل جـنـس
كـــل دار أحـــق بـالأهــــل إلا
عـــن الحكـــومة أنهـــا ستســـمح للموظفـــين
فـــى خبيـث مـــن المـــذاهب رجـــس
بالقيـــام بأعمـــال أخـــرى فـــى غيـــر أوقـــات

إن الجامعة أولى بهذه الأموال والدولة أكثر حاجة إليها من المدارس الخاصة ومن السيارات التى لاتتقى الله فى فجور أثمانها .

ليكن التعليم فى الجامعة بالمجان ولكن ليكن هذا مقصورا على غير القادرين فقط أما هؤلاء الذين يحصلون على شهادة الثانوية العامة من المدارس الخاصة ويبذلون آلاف الجنيهات المؤلفة وأولئك الذين يشترون السيارات ويقفون بها على أبواب الجامعة فليكن تعليمهم بالمصروفات الكاملة بل ينبغى أن تكون المصروفات منهم كافية لتقوم بشأن غير القادرين من الطلاب فما قيمة المال إذا لم يكن عونا لزميل محتاج أو لأخ ضئيل المصدر .

وليس يصلح حجة الدستور ينص على مجانية التعليم ففى ظل هذا الدستور نفسه تتقاضى الجامعة الأمريكية المبالغ الفادحة نظير المصروفات .

ولم يحدث فى تاريخ العالم أن اجتمع فى بلد واحد نوعان من القوانين يعارض كل منهما الآخر ومصر الآن تمر بظروف استثنائية وإذا لم تواجه مناحى الإنفاق بالحزم وبالصدق وبغير محاولات رخيصة للتشدق بالألفاظ فإن مصيرنا إلى بوار لا يعلم إلا الله مداه .

فى أى بلد من بلاد العالم تلتزم الدولة بتعيين جميع الخريجين يعلم الله أن هذا القانون يصدر حين صدر لرشوة الخريجين وتسميم الآبار أمام كل من يريد إصلاحا فى هذه الدولة ويعلم الله ويعلم الناس أن هذا القانون لم تبذل فيه أى دراسة ولم يحظ بأى تعمق ولم ينل أى نظر رشيد إلى المستقبل وهل أدل على ذلك من أن الخريج الآن يظل قابعا فى بيته السنوات الطوال فى انتظار خطاب القوى العاملة حتى إذا جاءه هذا الخطاب تم تعيينه بجنيهات أصبحت لا تستطيع أن تواجه مطالب فرد وحيد فما ظنك بأسرة كاملة قد يكون الخريج مسئولا عنها .

وهل هناك دليل على صدق ما أقول من هذا البيان الذى صدر منذ قريب عن الحكومة أنها ستسمح للموظفين بالقيام بأعمال أخرى فى غير أوقات العمل الرسمية ماهى هذه الأعمال .

إذا لم نكن نعرفها فنحن نتعامى عن الحقيقة ونسبح بعيدا عنها فى إصرار على التجاهل ولا أقول الجهل .

ألا يعمل هؤلاء الخريجون كسائقين للسيارات الأجرة أو هم يعملون فى الفنادق أو فى المقاهى أو عمالا فى المحلات العامة .

أكنا نعلمهم فى الجامعة لينتهى بهم المطاف سائقين للسيارات أو عمالا فى المحال العامة .

وأى الطريقين كان أجدى لهم أن يتعلموا فى الجامعة لمجرد الزهو والتفاخر أم أن يتعلموا هذه الأعمال التى انتهى إليها مصيرهم .

أما كان الأولى بهم أن يتعلموا الميكانيكا أو يتعلموا فى المعاهد الفندقية بدلا من إضاعة سنوات حياتهم للحصول على شهادات لايعملون بها .

وأخرى :

ماقصة الخمسين فى المائة من العمال والفلاحين وما الإصرار عليها إن كان ذلك للمحافظة على حقوق الفلاحين والعمال فإنه يعلم ومصر جميعا تعلم أنه ليس بين ربوعها من لايتصل نسبه بالفلاحين أو العمال .

إن جميع أبناء مصر بلا استثناء أبناء فلاحين أو عمال ليس فى مصر طبقة تنتسب إلى غير الفلاحين أو العمال حتى طبقة التجار آباؤهم فى أغلب الأمر من الفلاحين والندرة منهم من العمال فما هذا التقسيم العجيب الذى لا يعرف بلد فى العالم له مثيلا .

لامثيل له فى دولة شيوعية ولا فى دولة إشتراكية ولا فى دولة ديمقراطية .

هو فى مصر وفى مصر وحدها دون سائر الأمم . . وكيف يصح فى الأذهان أن يختار الشعب أعضاء مجالسه التشريعية والمحلية من العمال والفلاحين الذين لم ينالوا إلا أقل قدر من التعليم .

إن الفلاح أو العامل إذا كانت له قضية هينة الشأن فى محكمة قصد إلى محام وأغدق عليه الأتعاب لأنه هو المختص فى الشئون القانونية .

والفلاح أو العامل إن شعر بألم فى ضرس له قصد إلى الطبيب ودفع ما يطلبه منه هذا الطبيب ليريحه من ألم ضرسه . فكيف يجوز أن تختار الدولة نصف المشرعين فيها من غير المختصين لمجرد أنهم فلاحون أو عمال .

ليس بعجب إذن أن تصدر القوانين دون دراسة مستوفاة فقد قام بدراستها نصف الذين يجب أن يقوموا بهذه الدراسة .

ألا يدرك الفلاحون والعمال أن ضرر هذه القوانين الهزيلة يعود عليهم هم أولا وأخيرا فما مصر كلها إلا عمال وفلاحون أو أبناء عمال وفلاحين لا أستثنى فى مصر أحدا كيف نقبل ان يتولى المختصون أعمالنا الخاصة الضئيلة الشأن إذا قيست بأمور الدولة حتى إذا احتاجت الدولة جميعا والشعب كله إلى تشريع أحلناه إلى غير مختص إن قانون العمال والفلاحين الذى يحتم انتخاب خمسين فى المائة منهم يثير من الأحقادبين أبناء الطبقة الواحدة مالا يستطيع أى قانون فى العالم أن يثيره فالفلاح أو العامل لايرى أى غضاضة أن يمثله فى المجلس التشريعى أى فتى من أبناء قريته أو من أبناء زملائه العمال فى المصنع .

ولكنه لا شك يشعر بالغضاضة كل الغضاضة أن يذهب فلاح مثله أو عامل مثله إلى المجلس التشريعى وحين يقول لنفسه أو للناس فيم يزيد عنى إبن فلان هذا حتى يصبح عضوا بالمجلس التشريعى ولا يجد جوابا تثور فى نفسه نيران الحقد ولا لوم عليه .

ومن ناحية أخرى ما مصير العامل والفلاح الذى ينتخب فى المجلس التشريعى لمدة دورة ولا يصادفه النجاح فى الدورة التالية إنه يلاقى الهول الأخذ المبين فلا ظل فلاحا ولا هو ظل عاملا عضوا بالمجلس التشريعى ولا هو يستطيع أن يعود إلى حقله فلاحا ولا هو يستطيع أن يعود لمصنعه عاملا وكيف له أن يعود وقد ظل سنوات وهو مشرع بين المشرعين لبس الحلة وركب السيارة التى يسر له المجلس الحصول عليها وأصبح فى دنيا أخرى ليس للفأس أو النول مكان فيها .

ليس فى مصر من لايعلم آن هذا القانون إنما كان تسمييا للآبار لجميع الحكومات التى تتولى الأمر بعد يوم صدوره .

وليس شيئا يصنعه بشر مقدسا إنه لا تقديس إلا لكلمات الله وحدها ولشريعته أما كل ما يصنعه الإنسان فهو قابل للتفكير وللتدبير وللتغيير ومن المؤكد الذى لا شك فيه أن هذه القوانين البشرية جميعا ليست مصنوعة فى السماء ومن المؤكد أيضا أنها ليست مقدسة وإنما ينبغى علينا وجوبا أن نقلب فيها النظر ونمعن الفكر فإن تكن مصر قد هزلت فى فترة طويلة من حياتها فقد حان اليوم لها أن تعدل عن الهزل الى المجد ومن التهريج الى الصدق والتبصر . .

ان شعبا إنتصر على المستحيل فى حرب ٧٣ ليس كثيرا عليه أن ينتصر على الخرافات فى بيته .

ومادمنا قادرين على أن ننتصر على الأعداء فلابد لنا الآن أن ننتصر على أنفسنا ونكف عن الهراء ليكون الجد وحده هو طريقنا فإنه لاسبيل لنا أن نخرج من أزمتنا إلا بمواجهة ما شاع فى حياتنا من هزل وترهات والله من فوقنا وهو ولى التوفيق .

●●

---------- بيـــن النـــظريـــة والتـــطبيـــق

في أهرام الجمعة ٧ مارس مقال للأستاذ سيد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام والمقال يحمل إسم المركز وهذا يوحى بشكل لا يقبل الجدل أن الأستاذ سيد ياسين إنما يتحدث باسم المركز وأعتقد أن فى هذا إفتئاتا على المركز فإن الأستاذ سيد ياسين ـ إذا شاء ـ أن يكتب معلنا رأيه هو أما أن يكتب تحت راية المركز الذى يمثل الأهرام جميعه فأنا أرى لإن هذا يؤدى إلى نوع من الخلط بين رأى فرد ورأى جهة بأكملها فأنا أشرف بالإشراف على القسم الأدبى فى جريدة الأهرام ولكننى حين أكتب أنا أعبر عن رأيى وحدى ولا يجوز لى أن أضع شعار القسم الأدبى على مقالتى كما لا يجوز أن أضع شعار اتحاد الكتاب الذى أشرف برئاسته .

وبعد فهذا أمر يتصل بالشكل كان من الحتم أن أعرض له أما المقالة نفسها فتحمل عنوان « الديمقراطية » والعنف والسياسة الاجتماعية . المقالة تحمل سمات المعارضة العنيفة ولابأس على الأستاذ سيد أن يعارض ما طابت له المعارضة فنحن جميعا نعارض حينا ونؤيد حينا نتغيا المصلحة العامة ما وسعنا الجهد وما أسعفتنا الحجة .

وقد قدم الأستاذ سيد ياسين آراءه فى إصلاح أحوال مصر من وجهة نظره وأنا لم أمسك القلم اليوم لأناقش هذه الآراء .

وإنما ثارت نفسي وفزعت إلى قلمى وإلى كتابة هذا الذى تقرأه الآن حين انتهى بى المطاف إلى العنوان الفرعى فى آخر المقال وإنى ناقل إليك ماقاله بادىء ذى بدء .

يقول الأستاذ سيد ياسين تحت عنوان فرعى « إعادة صياغة السياسة الاجتماعية » مايلى . . السياسة الاجتماعية فى بلد ما تترجم بشكل محسوس التوجيهات الأيديولوجية الأساسية للنظام السياسى ومن هنا تختلف السياسة الاجتماعية إختلافات جذرية فى النظم الاشتراكية والرأسمالية وفى النظم الاشتراكية يعلو الصالح العام على حساب الصالح الخاص وتوجه السياسات الاجتماعية الى

جماهير الشعب جميعا لكى تنهض بها من الناحية الثقافية والاقتصادية والسياسية ويظهر ذلك فى صورةبرامج التعليم المجانية التى تسمح لأفقر العناصر الاجتماعية أن تبرز مواهبها وأن تكشف عن إبداعها وكذلك فى سياسات الدخول والأجور والتى تسمح للقلة أن تشترى ـ إستغلالا ـ على حساب الأغلبية وهى التى تفتح آفاق الثقافة بلا حدود أمام كافة الجماهير للشعب وتصل إلى القرى وهى أخيرا تدعم من إيجابيات الشخصية الإنسانية وتكافح سلبياتها من خلال القدوة والتربية والتعليم والردع والإصلاح العقابى وعلى العكس تماما فى النظام الرأسمالى حيث يعلو صوت الصالح الخاص على حساب الصالح العام وتصاغ السياسات الاجتماعية أساسا لخدمة الأقلية والصفوة المختارة وهى حين تتجه إلى الجماهير العريضة فهى تتجه بقدر وبطريقة محسوبة والغرض الأساسى هو إشباع بعض الحاجات الأساسية لها تلافيا لعوامل السخط الاجتماعى وتفاديا لاحتمالات الصراع الطبقى .

واكتفى بهذا القدر الذى يعلم الله كم قاسيت من جهد لأنقله وأنا أسأل الأستاذ سيد ياسين هل مازالت الشيوعية نظرية لفظية إنها تجاوزت هذا إلى التطبيق الطويل الذى يقارب اليوم نصف قرن من الزمان .

ومادام الأمر كذلك ألا يرى أن الأمانة العلمية النظرية تقتضى مناقشة التطبيق وإذا كنا لانناقش التطبيق بعد خمسين عاما من إعمال النظرية فمتى إذن ؟

ومادام قد اختار أن يضع على رأس مقاله مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ألم يكن واجبا حتميا عليه أن يذكر الرأى والرأى الآخر وبعد فلننتقل الآن إلى ما قاله :

أيعرف الأستاذ حكومة فى العالم الحر جميعه تعمل لغير الصالح العام أين تقع هذه الحكومة وفى أى دولة رأسمالية على وجه الأرض وكيف يصح فى العقول أن الحكومة لا تعمل لصالح أفراد ولاتعطى الشغل إلا الفتات .

وهل ما يناله العامل فى أمريكا يقارن بما يناله العامل فى روسيا وهل فكر الأستاذ سيد ياسين فيما يتمتع به الإنسان فى ظل الحكومة الديمقراطية من حرية وديمقراطية وانطلاق وهل تستطيع مقارنته معا بما يشقى به الإنسان فى ظل الحكومات الشيوعية .

هل الثقافة متاحة فى الدول الشيوعية وغير متاحة فى الدول الديمقراطية أيصدق هو هذا القول .

فأين إذن أدباء الاتحاد السوفيتى ومبدعوه أين ورثة تولستوى ودتسيوفسكى وتشيكوف وجوجول ألم يقتل النظام الشيوعى كل عبقرية حاولت التحرر من الخوف سواء كان ذلك فى ميدان الفن الأدبى أو كان فى ميدان العلوم والأمثلة حاضرة من قريب وهو يعرف كل المعرفة أليس النظام الديمقراطى يقوم فى جوهره على أساس الحافز الشخصى .

أو ليس هذا الحافز الشخصى هو الهاوية التى تردى فى فقدانها النظام الشيوعى حتى لقد اضطر ليدين روسيا نفسه أن يسمح بالملكية الزراعية فيما يعرف بسياسة النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) عام ١٩٢١ ليحقق حافزا شخصيا للزارع بعد أن أصبحت روسيا التى كانت مخزن القمح تستورده من الدولة الرأسمالية الكبرى أمريكا .

ألم تستبدل النظرية الشيوعية الحافز الشخصى الذى يتمشى مع الطبيعة الإنسانية بنظام الردع والإصلاح العقابى وهل يعنى هذا التعبير شيئا إلا القهر والنفى والقتل والمعتقلات .

أولا يعنى هذا أن النظام الشيوعى يقول للإنسان علانية وفى غير خفاء سأقتلك وأهين إنسانيتك وأدمر كل ماهو شريف فى حياتك لأجعلك سعيدا رغم أنفك فإذا لم تسعد فلك الويل ولك النفى إلى الصحراوات الجليد ولك الاعتقال فى السجون وإذا لم تسعد بعد هذا جميعا فلك القتل أليس هذا هو تطبيق النظرية يا أستاذ سيد أم شيئا آخر .

أوليس هذا التطبيق هو الذى جعل كل الدول التى فرضت عليها الشيوعية تهرب منها وعلى رأس هذه الدول جميعا أضخم دولة فى التاريخ ألا وهى الصين وهى دولة عدد سكانها الف مليون نسمة وقد كان ينبغى أن ينجح فيها النظام الشيوعى فإن ينال الفرد فى هذا الزحام البشرى المروع لقمة عيشه أمر يدعو وحده إلى التمسك بالنظرية ولكن النظرية فشلت فى أن تهب للإنسان فى الصين حتى لقمة العيش ونجحت فى قهر وقتل إنسانية الإنسان وتركت الصين النظرية كلها واتجهت إلى حرية الحياة ولاشك أن الدولة بحثت عن النظام الأمثل لمواجهة متطلبات ألف مليون نسمة بعد أن خذلتها النظرية الشيوعية خذلانا مبينا .

ولعل انتخابات فرنسا الأخيرة تعطيك مثلا على فشل النظرية حتى لم تتحملها فرنسا إلا فترة انتخاب واحدة .

أو ليس روسيا تعيش بامتصاص دول الستار الحديدى كلها وكل هذه الدول تحاول ان تتخلص من جنة الشيوعية فتجد أمامها الوحش السفاح يسوى جثث

الأطفال والشيوخ والعجائز بالأرض ولا تملك إلا الخنوع فى ألم قاتل ولتذكر إن كنت لاتذكر ما حدث فى المجر وتشيكوسلوفاكيا ولايزال يحدث فى بولندا ناهيك بالغزو الأخير لأفغانستان ومحاولة ضمها إلى جنتها .

أترى يا أستاذ سيد أن كل الدول الديمقراطية التى تعيش فى حرية لاتعمل حكومتها للصالح العام .

أم ترى كل دول الستار الحديدى لاتعمل حكوماتها للصالح العام حين تحاول التخلص من عبودية الجنة السوفيتية .

وبعد أيها الصديق هل ترى أن التعليم المجانى فى مصر خرج مثقفين . أترك هذا لضميرك بل وأتنازل عن آمالى قليلا وأسالك هل خرج التعليم المجانى متعلمين أم أن الأمر لم يزد على لافتة على فراغ بعد ان اصبحت المدارس المصرية تعلم الجهل فتحسن تعليمه .

- هل أفلح الإصلاح الزراعى فى مصر فى الارتقاء بالزراعة يا أستاذ سيد .

إذن فاجعل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية يجيب على السؤال بالأرقام لا برأيك أنت .

هل ترى أن نظرية الخمسين فى المائة من الفلاحين والعمال نظرية مقبولة وهل لها مثيل فى العالم إجعل مركزك يجيب ولاتجيب أنت .

هل القطاع العام بصورته الراهنة فى مصر خراب لمصر أم ازدهار لاقتصادها إجعل المركز يجيب ولاتجيب أنت .

وبعد ياأستاذ سيد فلو مضيت فيها أخذت فيه لما توقف القلم ولولا إننى أرده عن المضى فى طريقه لما انتهى به الحديث إلى مئات الصفحات .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

إذا قصد إليك شخص ما لا تعرفه ولا يعرفك وقال لك إنه عازف ماهر على العود فما أيسر أن تطلب إليه أن يحضر عودا ويعزف عليه وما هى إلا غمزة ريشة أو غمزتان حتى يصبح الادعاء حقيقة فهو إما أن يكون عازفا أو لا يكون . .

واذا قصدك شخص آخر وقال لك إنه رسام وعرض عليك بعض أعماله فما هى إلا نظرة ثم لاتحتاج إلى الثانية حتى تعرف إن كان رساما أم مدعيا .
كل الفنون كذلك إلا الأدب ـ وما أكثر ما يظلم الأدب بجميع أشكاله .
كان الشعر له عمود وقافية فحين هدموا العمود وطمسوا القافية ظن الكثيرون أن الشعر تحرر من كل القيود حتى لأستقبل فى الجريدة كثيرا من شباب وغير شباب لا يعرفون ماهو الوزن ولا ماهى التفعيلة ويريدون أن ينشروا شعرهم بالأهرام . .

وأذكر ان صديقا لى طلبنى ذات يوم وقال لى إن ابنته تكتب شعرا رائعا وإنه يريد أن يصحبها إلى مكتبى لأقرأ شعرها وجاء الصديق وابنته وألقيت نظرة على ما تعتبره شعرا وقلت لها بكل بساطة يا ابنتى هذا ليس شعرا .
كان هذا منذ سنوات وقد نسيت هذه الواقعة تماما حتى لقينى هذا الصديق منذ قريب وإذا هو عابس مغضب يقول لى إننى حطمت موهبة ابنته وأصبحت تكره الأدب والأدباء منذ لقائى فكثير من الناس يظنون أن موهبة الأدب هذه متاحة للجميع وأنه حتم علينا أن نقبل منهم هذا الظن . والحقيقة أننى أعتبر هواية أى فن نوعا من الجموح الذى يجعل صاحبه منجذبا إنجذابا مغناطيسيا شديد الاسر يأخذ عليه كل حياته . وإذا ركب هذا الجموح إنسانا لاموهبة له أكله الفن واعتصره دون أن يحقق من حياته شيئا .

ونظرة واحدة على الممثلين الذين يقومون بأدوار ثانوية يجعلك تعرف كم هو قاس ذلك الفن وكم هو متكبر لايرحم ولايعطف ولايلين لرجاء أو توسل أو وساطة فكل هؤلاء كانوا يريدون أن يصبحوا نجوما وانتهى بهم الأمر إلى ما

ترى . وإنك لواجد بقايا الاعتصار هذه فى كل فن من الفنون بلا استثناء . فأنا حين أقسو إنما أحاول أن أحمى من أقسو عليه أن يكون ضحية جديدة للفن .

ولكن الأدب بالذات مظلوم بكثير ممن انتسبوا إليه عنوة واقتدارا بفرامانات من بعض ذوى النفوذ . فما أكثر من تكتب أسماؤهم فى كشوف الأدباء وهم من الأدب براء .

وأذكر فى الستينات أن عرض على لجنة القصة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب خطاب موجه إلى رئيس الجمهورية يشكر صاحبه القائمين على أمر القصة أنهم لايعترفون به مع أنه ظاهرة لامثيل لها لأنه يكتب القصة دون أن يعرف القراءة والكتابة والخطاب موقع ببصمة إبهامه ، فهو حتى لايملك ختما .

وأنا أعرف بين من نراهم فى المحافل الأدبية أمثالا كثيرة لهذا الأمى ومع ذلك يجدون فى أنفسهم الجرأة أن يتصدروا الساحة الأدبية ويفرضوا جهلهم عليها والغريب أو ربما ليس غريبا أنهم ظلوا يوهمون أنفسهم أنهم أدباء حتى صدقوا الفرية وآمنوا بها واعتبروا انتسابهم إلى الأدب أمرا مفروغا منه لايحتمل مناقشة أو جدالا .

وهم بطبيعة الحال لايخجلون أن يصدروا أحكامهم على الأدباء جميعا وهم فى إصدارهم لهذه الأحكام لايقبلون استئنافا أو مراجعة أو مناقشة . وإنهم فى ذلك لمعذورون فإن أى إنسان مهما يكن شأنه يستطيع أن يصدر أحكاما ولكن القضاة المثقفين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يكتبوا الحيثيات والأسباب .

قد يظن البعض أن هؤلاء قد وصلوا إلى هدفهم مهما تكن الوسيلة التى اصطنعوها لوصولهم هذا . ولكن الحقيقة غير ذلك .

لقد توسلوا فعلا إلى الأدب بغير طرائقه المشروعة من موهبة وثقافة وقدموا بدلا من ذلك نفاقا أو إلحاحا أو استغلالا أو أموالا أو غير ذلك من وسائل الوصول . ولكن هل وصلوا ؟ .

باليقين الذى لايتزعزع أنهم لم يصلوا إلى شىء .

فالأدب لايكون إلا إذا اتفق طرفان وقع كل منهم بدلا من عقد واحد عشرات ومئات من العقود . وإن لم يكتب العقد ولم يتم توقيع .

إن الأدب لايكون إلا إذا تم إيجاب وقبول يمثلان الطرفين فى العقود . أما الإيجاب فهو ما يكتبه الكاتب . . وأما القبول فهو إقبال القراء على ما يكتب .

وهكذا يتضح لك أن هؤلاء الأدعياء لم يصلوا إلى شىء مطلقا لأن العقد لم يتم فإن عقد ما لايتم بالإيجاب وحده وقد قدموه وألحوا فى تقديمه ، ومرغوا

رؤوسهم فى التراب ليتاح لهم تقديم هذا الإيجاب حتى إذا أتيح لهم ذلك وقدموه إمتنع الطرف الآخر عن التوقيع وذهبت صيحات الإيجاب صرخات بلا صدى . وأصوات بلا سامع . إن القارىء لايحفل بهم ولن يكون الكاتب كاتبا ولاالشاعر شاعرا حتى يكون له قارىء . وهذا القارىء هو أعدل قاض عرفه التاريخ لأنه القاضى الذى لاتجوز عليه الحيلة ولايجرؤ أحد أن يوجه إليه أمرا ولايجسر إنسان أن يقف ببابه حاملا بطاقة توصية حتى وإن كان كاتبها أعظم أدباء العالم .

فالصلة بين الكاتب والقارىء صلة خيوطها من حرير تنسجه فى انسجام ومحبة روح الكاتب ومشاعر القارىء خفية لايحس بها أحد لكنها مع ذلك صلة تبقى إلى الأبد ويسلمها زمان إلى زمان فى أمانة وفى حب وفى إعزاز . وربما كانت هذه الصلة هى أغلى ما يعتز به الكاتب وأنها ولاشك هى التى تجعله دائما يكتب بمداد من دمه ويضع فيها . . يكتب سنوات طويلة يقتطعها من عمره ومن متعته ومن سعادته ثم يحس وهو يبذل كل هذا أنه يبذله لمن يستحقه ويستحق ماهو أكثر منه إن كان هناك ماهو أكثر من الحياة ومن الدماء ومن نبض القلوب .

●●

عشت في بيت قدر الله له أن يكون ميسور الأمور فى مطالب الحياة ، ولكنه باذخ الغنى فى معرفة الناس وترددهم عليه . فمنذ وعيت الحياة وألفت أيامها لم أذكر أننا تناولنا طعاما دون ضيف معنا . ونحن أسرة يظن الناس بها الغنى ونحن نسعد بهذا الظن ولاننفيه على الرغم من مجانبته للحق . لأننا حقا أغنياء فارع بنا عماد الغنى . ولكن ثروتنا ليست من المال كما هى عند سائر الأسر وإنما ثروتنا هى الناس .

وهو فرع من الإقطاع الذى لم تستطع قوانين الإصلاح جميعا أن تقترب منه ولذلك لم يفقد أبى ولا فقدت أنا ولا إخوتى سهما واحدا من أرض أو غير أرض فى قوانين الإصلاح الزراعى . وكذلك ـ والحمد لله ـ لم نفقد سهما واحدا من الثروة البعيدة مرامى الحصر من حب الناس . وحين تقدم أخى الدكتور شامل إلى انتخابات عام ٧٧ ذهبت لأمر بالبلاد معه كان الظن منى أنهم سيعرفوننى مما ينشر لى أو عنى أو مما يصنعه لى التليفزيون وما أذيعه فى الإذعة . ولم يكذبنى هذا الظن ولكن الذى خذلنى أن كل هذا لم يكن يعنيهم فى شىء وكانوا يقولون لى ولأخى فى وجهنا وبغير محاولة للمداورة إننا لن ننتخبك من أجلك أو من أجل أخيك ولكننا سننتخبك من أجل أبيك وكان قد مر على وفاة أبى فى تلك السنة أربعة وعشرون عاما . ونجح شامل .

لاتعجل بربك فقد أراك تقول مالى أنا وهذا تكتب وأى شأن لى أن تكون غنيا أو تكون فقيرا وما شأنى أن يكون ثراء أسرتك من المال أم من الرجال ولك فى ذلك العذر ولكنك لو تحملت المقدمة لبلغت معك إلى النتيجة .

ولأعد الآن بعد هذا الاعتذار العارض إلى حقيقة الغنى فى الأسرة التى أنتسب إليها فعلى الرغم مما تواتر عنها من غنى فإن الذين خالطوها وأوغلوا فى صلاتهم بها عرفوا حقيقة الأمر منها وقد كان العالم الأديب ظريف ظرفاء عصره الشيخ البشرى من هؤلاء وكان يقول عنا إذا رأيت شخصا مرتفع القامة عريض

المنكبين شديد الأناقة وكل ثروته قرش تعريفة فاعرف أنه أباظى وهكذا كشف البشرى ما نحاول أن نخفيه وما تساعدنا طبيعة أجسامنا على أن نستره .

فأنا إذن ربيت بين الناس منذ تفتحت عيناى على معالم الدنيا وكان أبى عضوا بمجلس النواب طوال فترة الحياة النيابية من بدايتها إلى نهايتها وكان هذا يجعلنى أخالط كل البيئات مخالطة معاشرة متعمقة فى حياتهم واسعة الأبعاد فى خاصة شئونهم . وكانت هذه المعرفة مفروضة على لا أملك فيها حق الانتقاء الذى يملكه كل إنسان فى اختيار أصدقائه ولهذا تعودت أن أتحمل ألوانا من الناس شتى أعرف عيوبهم وأغفرها لهم وأتبين نقائصهم وأتغاضى عنها ولهذا يعجب أصدقائى حين يروننى أقبل من الناس مالا يقبله غيرى وأقول حين أجادلهم إنكم تحاسبونهم بمقياس طبائعهم فتغضبون ولو حاسبتموهم بمقياس طبيعتهم هم لالتمستم لهم العذر . فليسوا هم الذين خلقوا أنفسهم ولاهم الذين نسجوا عقولهم ورغباتهم ومطامعهم وآمالهم ومطامحهم وإنما تداولتهم الحياة فصنعت منهم هذا الذى ترون وأنا أستطيع أن أقبل مافيهم من عيب محاولا دائما أن أذكر مالهم من حسنات . ولكل إنسان جانباه فماذا علينا إذا نحن أغضينا العين عن عيبه وقبلناه من أجل ما فيه من فضل .

نوع واحد من الناس لا أطيقه ولا أحب أن أعرفه ولا أحتمل أن أنظر ولا أشتهى أن تجمعنى به صلة أو وشيجة . ولكنه نوع مفروض على الحياة يدمغها فلا تستطيع الحياة منه خلاصا ولا أستطيع أنا فكاكا من مخالبه أو مجانبة له . فحيثما قلبت وجهك ستراه وأينما وليت سحنتك أنت ملاقيه لافى أنحاء العالم الأربعة بل أنحائه الثمانية .

أنت ملاقيه فى عملك وأنت ملاقيه فى مسلاتك وأنت ملاقيه فى كل مجتمع يضم بعضا من الناس . . أنت ملاقيه . .

إنه الرجل ذو الصغار أو قل إذا شئت الرجل الصغير ولا تقل الطفل فالرجل الطفل حبيب إلى النفس فيه براءة . تسعده إبتسامة وكلمة ترحيب وتشقيه تقطيبة وفتور لقاء . وهو قريب لاخبث فيه ولاتحايل ولا دخل ولا قذى .

أما الرجل الصغير فشىء آخر وكلمة شىء هنا مقصودة لذاتها ويقول القاموس فى معنى من معانى الصغار ـ صغر أى هان وذل ـ وهذا هو الصغار الذى أقصده صغار الهوان والذلة . . وهو نوع من الخلق يستطيع الإنسان إن كان إنسانا أن يجتنبه فى نفسه لأنه هو الذى يصنعه بنفسه فى نفسه فهو يشعر فى داخله أنه هين أو أنه ذليل ولهذا يخشى الأعزة الكبراء . ولأنه يخشاهم يحاربهم . وكلما حاربهم غاص

فى حمأة الهوان لأن الأعزة الكبراء لايشعرون بالصغار فحين تنشب الحرب بينهم يسفر الأمر عن شخص يمسك بسيف من ورق يحارب به أحذية عدوه لأن أقصى ما يملك أن يبلغ الصغير من الكبير هو الحذاء فإذا هو بين الناس أضحوكة ويظل الكبير كما هو كبيرا بل إنه سيزداد شموخا لأن الناس ستضطر أن تقارن بين شخصين أحدهما رأسه فى السماء والآخر رأسه فى الحذاء .

الهوان يصنعه الإنسان إكتسابا لا وراثة . فهو دائما يشعر فى دخيلة نفسه أنه صغير لأنه لم ينشىء نفسه على أن يكون كبيرا . . فإن كان صاحب مهنة تراه لايتقنها لأنه فضل أن يلهو حين كان غيره يعمل وإن كان صاحب مال بدده لأنه آثر أن يستمتع حين آثر مثيله ان ينمى ثروته .

وشر مكان ترى فيه الصغير إذا نال منصبا أو جاها . فهم أيضا ينالون أحيانا منصبا لأن المهين الذليل يستطيع أن يجعل رأسه موطىء نعال ويقبل مالا يقبله الكريم وتلك عند الأخلاق منقصة ومضيعة لماء الوجه وسقوط بأقدار الرجال ولكنها عند الصغار مفخرة وقدرة على مالا يستطيعه غيره وذكاء وتحايل وحسن مدخل ومعرفة بمكامن الأبواب .

إذا قدر لك ـ لاقدر الله لك ـ أن تعامل صغيرا فى مكان كبير عرفت حينئذ لماذا قال القاموس والقاموس لايقول إلا ما قاله العرب والعرب من أعظم الشعوب حكمة ومعرفة بالناس « صغر أى ذل وهان » .

ومن أطرف جمل الحوار التى قرأتها تلك التى دارت بين اثنين قال أحدهما والله ما أبالى مدحنى الناس أم نموا .

فقال له صاحبه

ـ إسترحت من حيث تعب الكرام .

ترى هل عرفت الآن لماذا سقت هذه المقدمة الطويلة . . ربما قلت إن النتيجة بسيطة ولم تكن فى حاجة إلى كل ما قدمته بها ولكن أليس الحديث بضاعتنا فإن لم أكن أمتعتك بالمقدمة فالذى لاشك فيه أننى أرحتك بالنتيجة .

●●

حكمت فلم تنصف

للنقد

متعة خاصة عند الناقد وعند السامع . ولا أقصد النقد الأدبى وإنما أقصد النقد بعامة . ولا أقصد النقد بمفهومه الفنى الذى يعنى تقويم الأعمال والناس وإنصافهم بذكر ما فيهم من خير ومافيهم من شر . وإنما أقصد النقد الذى جرى الناس على أن يطلقوه على الهجوم والتجريح والتشنيع والإساءة . لهذا النوع من الحديث متعة خاصة يحس طعمها المتحدث فهو بها يؤكد ذاته ويحس أنه فى مشرف رفيع يطل منه على الحكام ووجوه الساسة والمجتمع والناس ويطلق عليهم أحكامه القاطعة الجامعة المانعة . وليس يعنيه أن يقوم حكمه على أساس ، ولايهمه أن يستقيم به المنطق ، ولايبالى أن يقدم الحيثيات للحكم . ولا يأبه إن كانت معلوماته صادقة أم كاذبة . إنما المهم أولا وأخيرا أن يهاجم ويجرح وقد يصل التجريح إلى القتل الأدبى ولكن . ما البأس مادام هو قد لاك الهجوم بلسانه واطمأنت به نفسه إنه عظيم وإنه يعرف مالا يعرفه أحد وإنه نافذ النظرة قاطع اللسان قادر على الهجوم .

ويعلم الله أن حينا من الدهر قد مر على هؤلاء القوم كانوا إذا فكروا فى هذا الذى يصرخون به اليوم لسارعوا إلى صنابير المياه والحنفيات يغسلون رءوسهم خشية أن تشى بهم رءوسهم إلى مصادر الرعب والسفاكين من الحكام . فى هذا الحين من الدهر كانت النفوس تخاف من نفوسها وتهلع الأفئدة من أفئدتها والجوانح من جوانحها .

ولكن الحرية هى الأصل وعودة الحرية ليست فضلا وإنما هى حق . ولكن مع كل حق واجب فإذا نحن نلنا حقنا فينبغى علينا أن نفرض على أنفسنا واجباتها .

فتلازم الحق والواجب حضارة . وليس من الحتم أن يفرض بقانون وإنما ينبغى على الإنسان المتحضر المثقف أن يشفع كل حق يمارسه بالواجب الذى يلازمه . وحق الحرية يلازمه واجب العمل فالحرية بغير عمل فوضى والحكم بغير ضمير ظلم والحرية نور والظلم ظلام وكما نطالب الحاكم بأن يكون عادلا فى

حكمه لنا لابد أن نطالب أنفسنا بأن نكون عادلين فى الحكم عليه ومهاجمة الحكام لمجرد الرغبة فى الهجوم والتظاهر بصورة الأبطال أو لاستغلال ما نتمتع به من حرية أو لإشعار أنفسنا بأننا أصحاب رأى ونقد وشجاعة إفتئات على كرامتنا نحن لا على كرامة من نهاجمه .

ثار فى نفسى كل هذا وأنا أقرأ مقالا لأستاذ جليل أكن له كل إكبار واحترام فى إحدى المجلات . والأستاذ أستاذ فى التاريخ والمقال محاكمة لأجيال من الحكام سالفة واذا بالأستاذ المؤرخ يتناول تاريخ مصر كله بالسخرية الشديدة فكل تاريخنا ظلام وكل رجاله لصوص وكل الناس فيه سفاحون أو أذلاء . وأشهد الله أن نفسى جزعت مما كتب الأستاذ . فإذا كنا نرفض الظلم من عامة الناس ومن جهلائهم فنحن أشد رفضا للظم من الأستاذ المؤرخ العالم .

فللسخرية مواضعها ولأحكام التاريخ جلالها وليس يرضى الله ولا الناس ولا الحق والحق إسم من أسماء الله ـ أن يحكم رجل فى مثل مكانة هذا الأستاذ مثل ما هو مفروض فى سنه من حكمة ووقارعلى بنى وطنه ـ حكاما ومحكومين بكل هذا العسف والحيف والبعد كل البعد عن الضمير والحق والعدل .

يستطيع الأستاذ ـ إذا شاء ـ أن يستمتع بالكتابة الساخرة فى قصة أو رواية أو مسرحية أما أن يعرض لمصر وهى مصر ولناسها وهم ناسه بهذا الاستخفاف والهزأ فواضيعتنا إذن لكل معنى شريف وواضيعتنا أيضا للوطنية وللخلق الذى ينتظر من أمثاله .

إن الأستاذ الجليل قديم فى صناعة العلم ولايحتاج لمثلى وقد أكون منه بمثابة الإبن أن أذكره بأمانة القلم الذى يحمله . ولايحتاج لمثلى أن يسائله ماهذا الذى تبثه إلى شباب ليس يدرى عن تاريخ وطنه ؟ ويسائله ألم تفكر فيما قد تجره كتابتك هذه الجائرة على المثل العليا من آثام .

وأين الحق فيما تقول وكيف أصبحت مصر كما هى اليوم إن كان حكامها كلهم لصوص وشعبها كله ذليل كيف أنبتت الأئمة الأجلاء فى الفن والأدب والعلوم جميعا وربما اعتبرك البعض واحدا من هؤلاء الأئمة .

وكيف كانت ثانى دولة فى العالم تسير بها القطارات وكيف كانت أعظم دولة فى منطقتها . إن العدم لاينبت إلا عدما وما كانت مصر عدما قط .

بل إنها من القوة والعظمة بحيث استطاعت أن تقاوم كل مامر بها من أهوال وتعيش وقد عاشت وستحيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أصرف سخريتك إلى غير كرامتنا أيها الأستاذ والعب بقلمك فى غير تاريخ مصر . وتسل فى أيامك بغير ماضينا الذى هو باعث حاضرنا وأمل مستقبلنا .

يقع كثير من الناس فى خطأ فادح حين يقسمون الناس إلى طبقات ويطلقون على كل طبقة أحكاما عامة وكأنهم فصائل من البقر والماشية يصدق على الوحدة منها ما يصدق على المجموع والفضل فى تصنيف هؤلاء البشر يرجع إلى النظرية الشيوعية التى تشابه البقر عليها وجعلت البشر وهم البشر من خشب وحديد . فالنظرية لاتعترف بالروح ومن ثم فهى لاتعترف بإنسانية الإنسان. وكل غنى شرير سافل مستغل وكل فقير شريف نبيل مظلوم .

ويأبى الواقع هذا . فأنت تجد بين الأغنياء الشريف واللص . والنبيل والسافل والكريم والخسيس . وتجد هذا التباين نفسه فى كل فئة من فئات المجتمع بل إن الأسرة الواحدة التى يعيش أفرادها فى ظروف إجتماعية واحدة يخرج الأبناء فيها لكل إبن خلقه الخاص وأفكاره التى ينفرد بها لايماثله فيها أحد . وتجد فيها الإبن اللص وتجد فيها المتطرف فى الشرف الذى يرفض أن يحيد عنه قيد أنملة . وتجد فى الأسرة الفتاة المستهترة وتجد فيها الفتاة المغالية فى المحافظة على القيم والأخلاق إن كانت هناك مغالاة فى المحافظة على القيم والأخلاق .

والتركيبة الخلقية هذه عجيبة فى شأنها فهى كملامح الوجه لاتعرف كيف تكونت مقوماتها . فكما تجد فى الأسرة الأسمر والأبيض وخشن الشعر وناعمه تجد ذلك التباين فى الأخلاق أيضا .

وتطالعك الحياة بأشياء مذهلة . فالحقد كما يقول العلم وكما تقول طبيعة الأشياء لايكون إلا من إنسان يشعر بالصغر إذا قارن نفسه بإنسان آخر فيشعر المفضول بالحقد على الفاضل وكثيراً ما يشعر بالحقد على المفضل الذى وهب له من الخيرات مالم يكن يتوقعه .

ولكنى رأيت حاقدين وهب الله لهم الثراء العريض والشهرة البعيدة والهناء العائلى وفضلهم على كثير من نفس فئتهم وجيلهم .

ولكنها تركيبة النفس هذه التى لايعرف أحد كيف تتكون ولا لماذا ولايستطيع أى عالم فى الاجتماع أو فى علم النفس أن يجد لها السبب المقنع أو الرأى الفصل .

وما بعجيب ان يفضل بعض الناس بعضا فى الرزق فكذلك خلقهم الله . يقول سبحانه وتعالى فى سورة الزخرف الآية ٣٢ « أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون » .

تعاليت يا الله سبحانك وتقدست آلاؤك . أترى كيف ينهى الآية بأن رحمة ربك خير مما يجمعون . فالتفاوت فى الرزق لايكون إذن إلا هنا فى هذه الحياة الدنيا وليس فى العليا : أما هناك فرحمة ربك خير مما يجمعون ولايرتفع بعض فوق بعض درجات أو درجة . وإنما تشملهم جميعا رحمة ربك فى كريم سببها . فلاسيد هناك ولا مسود ولا مسخر ولا مسخر له . إنما هى رحمة ربك فحسب .

وتحاول أن تجد فى الحياة الدنيا نظاما يمكن أن يسير بغير رئيس ومرءوس فلاتجد هذا النظام فى أبشع صورة وأبعدها عن الإنسانية فى البلاد الشيوعية فرئيس الحزب هناك هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر متعسفا غاية التعسف ظالما كل الظلم . واضعا نفسه فى مكان رحمة السماء التى تعطى فلا تعطى إلا بالعدل الإلهى وتقدر الرزق فلا تقدره وتجعله قليلا أو ضئيلا إلا بالميزان الأعلى من القسط الأوفى من رحمة عالم رحيم متعال .

ولكن الشيوعيين يقولون مالا يفعلون ويدعون مالا يعملون فيطالبون بالعدل للكادحين ثم يسحقون هؤلاء الكادحين ويطالبون أن يكون الحكم للطبقة العاملة ثم يلقون بأثقال أحزابهم فى مختلف الدول الشيوعية على هذه الطبقة أفدح مايكون الأثقال .

ويحاولون مع ذلك أن يجتذبوا إليهم هذه الطبقة فى الدول التى لم يصبها وباؤهم بالألفاظ الجوفاء وبالخطب الرنانة وبالمنشورات الكاذبة .

ويتساءل بعض قوم لماذ لايستطيعون مع كل هذه الجلبة وهذا الضجيج وهذه الأمانى التى يزينون بها نظريتهم أن يجتذبوا إليهم العمال فى كل أنحاء العالم وخاصة البلاد التى لايحظى فيها العمال بتلك الأجور العالية التى ينالها عمال العالم الرأسمالى . والأمر لايحتاج إلى إعمال فكر ولا إلى إمعان نظر فإن الإيمان بالله يقف دائما حصنا منيعا ضد الشيوعية فى جميع أنحاء العالم ولا أقول فى مصر وحدها . فقد رأيت فى بولندا طاقة من الإيمان لم أتصور أن أجدها فى بلد قط .

أما فى مصر ذات الألف مئذنة تقدمها مئذنة الأزهر الشريف ومنارته فهيهات للشيوعية والإلحاد أن تجد فيها مراحا أو مرعى خصيبا أيا كان هذا المرعى أو غير خصيب . وإنما ستظل نبتا شائنا فى مباءة عفنة من الكفر والاعتداء على كل نبيل

وشريف فى حياتنا وسيظل الصانتون بها جماعة من المهازيل والهذاة ينشئون الخرائب وينعقون فيها وتبقى مصر مشرقة الآفاق مضيئة الجنبات بلا إله إلا الله محمد رسول الله . » بل وبأجراس الكنائس وحرص المسيحى المصرى على دينه وعلى إيمانه وعلى إخوته من أبناء وطنه .

وأخرى تقف كالصرح المريد أمام أكاذيب الشيوعية والشيوعيين تلك هى الحقيقة التى اتضحت معالمها عند تطبيق النظرية وحسبك نظرة عابرة سريعة إلى عدد الهاربين من جحيم الشيوعية إلى البلاد التى يسود فيها القانون الإلهى والقانون البشرى . وأذكرك بذلك القطار الذى جمع فيه سائقه عشرات ممن خنقت الشيوعية أنفاسهم وسار القطار حتى بلغ ذلك الجدار الذى يفصل برلين الشيوعية والتى يسمونها ديموقراطية تمحكا فى الديمقراطية وتمحلا - عن برلين الغربية واذا بسائق القطار يدخل بقطاره وبمن معه فى الجدار نفسه معرضا نفسه وصحبه لموت الصدمة مفضلا ومفضلين الموت عن تلك الحياة المقيتة التى تجثم على إنسانيتهم فى الحكم الشيوعى . وما حدث فى تشيكوسلوفاكيا وماحدث فى المجر وما يحدث اليوم فى بولندا كل هذا وأشباهه كثير أثبت لعمال العالم أن وعود النظرية الشيوعية كذب واهم لاتعرف الحق ولايعرفها الحق . والذين يقاومون الشيوعية شباب وكانت قبلهم أجيال أخرى قاومتهم وأذكرك بكتاب كرافتشنكو الشهير « أثرت الحرية » ولكن هؤلاء المقاومين ليسوا جيلا بأكمله فالحياة لاتعرف التماثل فى الأجيال وإنما تجد فى الجيل الواحد الجسور الجرىء وتجد الخانع الخائف وكذا لاتنطبق صفة واحدة على جماعةبأكملها أبدا فالله سبحانه شاء برفيع حكمته أن يلزم كل إنسان طائرة فى عنقه . ومادام الأمر كذلك وهو كذلك فكل فرد فى كل جيل له مقوماته وله معالمه الخلقية الخاصة به وإن كانت بعض أوضاع سياسية قد أنشأت بعض قيم فاسدة إلا أن الخير بقى خيرا والشر بقى شرا وليس هناك أحد لايعرف الخبيث من الطيب ولا الحلال من الحرام . وأن بين الشيوعيين أنفسهم وهم من أنكروا الله وهو الله ، من ترغمه الإنسانية أن يكون شكورا إذا مسه خير من إنسان ومن لايستطيع أن يجحد المعروف إذا نال معروفا . مع أن النظرية تحذرهم أن يخدعهم غير الشيوعيين باللمسات الإنسانية فيصرفوهم عن مذهبهم الدموى الذى لايعترف بتفرد الكيان البشرى إلا أن بعضا منهم مع ذلك لايستطيع أن يتخلى عن إنسانيته ولايطيق أن يجحد الفضل للمفضل وهكذا يحطمون هم أنفسهم بتصرفاتهم فكرة أن الطبقة ينطبق على الفرد منها ما ينطبق على الجميع وأن الجيل بأكمله يصدق على الواحد منه ما يصدق على الجيل بأسره بل إن الحزب

الشيوعى أثبت ما أثبتته جميع أحزاب العالم إن ما يتصف به أحد أفراد الحزب ليس من الحتم أن يتصف به جميع أفراد الحزب حتى وإن ربطت بينهم بعض مبادىء وأفكار الحزب الشيوعى والأحزاب المتطرفة عامة تمثل عند من يقتنع بها دون دافع مالى أو نفع شخصى فترة أكثر مما تمثل عقيدة .

فهى عند غير المنتفعين قطعة زمنية من المراهقة الفكرية ما يلبث الفتى إذا شب عن طيش الشباب ورعونته أن يرتد عنها . فالإنسان رغم أنف الشيوعية يتأثر بسنه وبثقافته قد يترك أقصى اليسار أو أقصى اليمين إلى موقف عادل فى الحياة يتعمقها ويبلغ من أسرارها وجذورها ما يجعله إنسانا سويا كما أراده الله أن يكون فهو سبحانه الذى خلقه فسواه فعدله فى أى صورة ما شاء ركبه ؟ .

●●

لســـت وحيـــداً

يخطىء من يظن أن الإنسان إذا اختار الحق طريقا والصدق منهجا يلقى دائما التأييد من الناس . فليست الحياة بهذا العدل الذى قد يظن وإلا ما سميت الدنيا دنيا . وما سادت فيها الفوضى ولا تعملق الأقزار ولا ساد الهزلاء ولا استأسد البغات .

فصاحب الحق من الطريق كراكب الأسد قد اختار أصعب الوسائل مركبا وأبعدها عن الأمن فما هو مركب ذلول . وما هذا بعجيب فالطريق الذى اختاره وعر يعنف بالسائر فيه أشد العنف ويزلزل كيانه كل مزلزل حتى ليكاد يرميه عن الطريق إلى طرق أخرى كلها يسر ونعومة وهناء ورغد .

فالمؤيد للحق مؤيد لأقل فريق فى الدنيا عددا . فأغلب الناس على غير الحق منهم الباحث عن مال مهما تكون الوسيلة إليه خطفا أو سرقة أو دعارة خلقية . ومنهم الباحث عن الجاه قد اتخذ سبيله إليه نفاقا وخداعا ، وكذبا ، ودفاعا عن الباطل ، ومساندة للظالم بستار المظلوم . وتأييد للسفاح بدرء الفضيلة ومنهم الباحث عن سرادب إلى منصب أو كنز من ذهب مسروق وليس يعنيه أسباب وصوله وطرائقه فالطريق كلها عفن وإهدار لكرامة ، وسفك لدماء وإراقة لماء الوجه . وبعد كل البعد عن الحياء .

وينظر السائر على طريق الحق إلى البشر الآخرين على هذه الطرق فيجدهم يصلون إلى غايتهم بهزة خصر من مومس يستجلبونها . أو قبضة مال من خزائن لايملكونها أو سكبا من نفاق يبذله من لاحياء له لمن لا عقل له . ثم تنفتح المغاليق ويبلغ السائر على الموبقات إلى هدفه ومبتغاه .

وقد تعود الناس ـ أغلب الناس ـ ذلك من الناس ـ أغلب الناس . حتى أصبح جمهور البشر لا يصدقون أن أحدا يمكن أن يقول الحق لوجه الحق فهم دائما يبحثون عن سبب خبيث للرأى الطيب فإن عزهم أن يجدوه وأعياهم البحث إختلقوا من الخبث ما حلا لهم ولفقوا من التهم ما يعن لأفكارهم .

وحين يتبينون أن صاحب الكلمة الحق كان يقولها لوجه الله والشرف والضمير يكون القائل قد مات أو يكون قد قارب الموت حتى لا يعنيه أنصفه الناس أم ظلموه . وليس يبالى إن كانوا أدركوا أنه كان يصدقهم ولا يخادعهم أم لم يدركوا .

وهكذا ـ والحديث إلى الشباب ، لا تنتظر أن تنال من طريق الحق إذا أنت اخترته تكريما أو إعجابا بموقفك الصلب فى سبيل الحق . فإذا كنت ترضى الناس ـ أغلب الناس ـ فاختر غير الحق طريقا وغير الضمير شريعة وغير الشرف سبيلا . وابتعد ما استطعت عن مثل هذه المعانى السامية واختر عكسها تماما رفيقا ومنهجا .

ولكن لا تحسب أنك إذا سرت مع الشرف فلن تنال أحسن الجزاء . بل إنك ستنال مالا يستطيع غيرك أن يحصل عليه بشرط أن تقدر هذا الذى تحصل عليه فإن الجوهرة المنقطعة النظير لا تصبح ذات قيمة إلا إذا وقعت فى يد من يقدرها .

من المؤكد يا أخى أنك لن ترضى كل الناس بل ومن المؤكد أيضا أنك لن ترضى أغلب الناس . ولكنك سترضى أهم مخلوق فى حياتك وهو أنت وضميرك . . إذا كان ضميرك خالصا وأرضيته فقد أرضيت ربك وأرضيت الشخص الوحيد الذى يلازمك لا يفارقك فى صحو وفى نوم وفى زحمة الناس وفى انفراد . تراه فى المرآة وتراه وأنت لا تراه فإن رضى عنك هذا الذى هو أنت فقد بلغت مالم يبلغه أحد مهما يكن له من جاه ومال وسلطان .

وحتى يرضى عنك هذا الأنت الذى هو ضميرك الخالص لله لابد أن تدفع الثمن من حقد الحاقد الذى يريد أن يصبح مثلك ولا يستطيع ومن كيد المنافق الذى يبيع نفسه لكل من يدفع الثمن ومن غضب السفلة على الشرفاء وسخط الوضيع على الكرام وحسد الخطائين لمن يبتغون إلى الله الوسيلة .

واذا وجدت قليلا من الناس معك فى الطريق يعينونك على الوحدة ويؤيدون موقفك ويشدون أزرك فالفرد من هؤلاء أمة بأسرها فالجزاء كما ترى أعظم بكثير مما تتصور بشرط ان تقدره وتحسن تقديره وتذكر البيتين الرائعين :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

من أعظم الأبيات التى صادفتها فى قراءاتى ذلك البيت العظيم :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

فالبيت مع جمال صياغته يضع قاعدة وطنية تظل الأيام ترددها وتؤيدها على مدى السنوات الطوال وقد قيل هذا البيت منذ ألف عام ونيف وباليقين لم يكن الشاعر يدرى أن مصر ستلاقى من العنت والقهر ما لاقته ولم يكن يدرى أن الآلاف من أبنائها سيتركونها مهاجرين ويتركها أيضا غير أبنائها الذين اتخذوا منها موطنا واختاروها دون بلاد الله بلدا لهم . ولكن المصرى الذى يهاجر يحمل مصر معه ويأبى فى اعتزاز لا أعرف له مثيلا ان يتخلى عن جنسيته المصرية قد يقبل أن يحمل جنسية أخرى ولكنه قط لم يترك جنسيته المصرية . بل إن الأغلبية الكاثرة منهم تتوق أن ترجع إلى مصر لتكون ملاذه الأخير ومراح اطمئنانه ومبعث دفئة من برد الغربة وهجير الوحدة .

وكنت مع أخى وصديقى الأديب الفنان فاروق خورشيد فى اليونان وكنا نمشى فى شوارع أتينا نتبادل الحديث باللغة العربية فإذا أقوام يتحلقون حولنا وقد رنت فى آذانهم أنغام اللغة المصرية ولا أقول العربية فهم لا يعرفون إلا اللغة المصرية أو أكثرهم على الأقل لا يعرف غيرها ويصيحون بى وصديقى : أنتم من مصر . . أنتم من البلد الحبيب . . كيف الحال هناك أنستطيع أن نرجع الآن . وفى يوم كنت أحادث صديقى فاروق ونحن فى طريقنا إلى صيدلية لنشترى منها بعض دواء . ودخلت إلى الصيدلية ووجهت حديثى بالإنجليزية إلى صاحبها فإذا هو يجيب فى لغة عربية خالصة وليست مصرية وفى لسان فصيح ليس فيه من العجمة أثر قال صاحب الصيدلية .

ـ نعم ياسيدى إن هذا الدواء عندى ودهشت وصديقى من هذه اللهجة العربية النقية وسألته :

ـ كيف عرفت أننى أتكلم العربية وضحك وهو يقول :

ـ لقد سمعت حديثكما وأنتما قادمان إلى الصيدلية وراح الرجل المثقف يسأل عن أنباء مصر ولم تكن فى ذلك الحين تسر فرحنا نحن نحاول أن نتستر على ما بها. وما ندرى إن كنا أفلحنا أم تعثر بنا الكذب .

وأرى فى كل عام فى لوزان بسويسرا عائلة يونانية تصر على أن تلتقى بى وتتعرف منى ومن زوجتى على أنباء مصر وعلم الله أننا قد نجد الأسرة تعلم من أبنائنا مالا نعلمه .

فإذا كان هذا حال الأجانب الذين تمصروا أو أقاموا فى مصر دون تمصر فما ظنك بنا نحن الذين رضعنا ألبانها وسرت شوارعها وحواريها وأزقتها وريفها وبحرها فى الحوافى البعيدة من مسارب نفوسنا . لنا بين ربوعها ذكريات الطفولة والصبا والشباب ومن أقام لحقت به أيدى الكهولة والشيخوخة ولنا فى باطن أرضها أجداد وأجداد أجدادنا وآباؤنا ولنا مشرق بسمة أبنائنا وعناؤهم وخطى أقدامهم فى لعب وفى جد ولنا مستقبل هؤلاء الأبناء وغدهم الذى أصبح غدنا نحن ما عشنا وأهم جزء منا إذا نحن فارقنا الحياة . ولا أستطيع أن أذكر مصر ولا أذكر الحنين اليها عند ملك الشعر العربى شوقى الخالد وهو يقول :

إذا الزمــان بنـا عينـاء زاهيـة	تـرف أوقاتنـا فيهـا ورياحينـا
الوصـل صافيـة والعيـش ناغيـة	والسـعد حاشـية والدهـر ماشـينا
والشمـس تختـال فى العقيـان تحسـبها	بلقيـس ترفـل فـى وشـى اليمانينا
والنيـل يقبـل كالدنيـا إذا احتفلت	لو كـان فيهـا وفـاء للمصافينا
والسـعد لو دام والنعمـى لو اطردت	والسـيل لـو عـف والمقـدار لـو دينـا
لم يجـر للدهـر أعـذار ولا عـرس	إلا بأيامنـا أو فـى ليالينـا
وهـذه الأرض مـن سـهل ومـن جبـل	قبـل القياصـر دناهـا فراعينـا
ولم يضـع حجـر بـأن علـى حجـر	إلا علـى آثـارنا أو فـى ليالينا
كـأن أهـرام مصـر حائـط نهضـت	بـه يـد الدهـر لا بنيـان فانينـا

وعدت على مصر العوادى ومازلنا وأحسب أننا سنظل لسنوات نعانى آثار الزلزال المدمر الذى ترك مرافق مصر ركاما متهتك الأوصال ممزق النواحى والناس تصرخ وتشكو . والناس تحب الشكوى . منذ وعيت السياسة لم يرض الشعب المصرى عن حزب حاكم قط حتى وإن كان هو الذى اختاره وأجلسه على كرسى الوزارة وحسبى لأذكرلك مثالا لا تنساه مصر . ألم ينجح الوفد فى آخر انتخابات دستورية فى مصر قبل الثورة وكان بحاله عارما أخاذا فقد كانت الانتخابات بعد أن ظل مبعدا عن الحكم أكثر من خمس سنوات . ومع ذلك فحريق القاهرة وقع بعد سنة وبضعة أشهر قليلة من تولى الوفد مقاليد الحكم . ومهما قلت إن هذا الحريق كان وليد مؤامرة فالذى لاشك فيه أن الشعب لو أراد التصدى للمعتدين لصدهم ولردهم على أعقابهم دون أن يلحقوا بالقاهرة الحبيبة ما ألحقوه بها من خراب .

وفى الأمس القريب وصل إلىَّ خطاب من مجهول وإن كانت الجهة التى تفضلت بإرساله إلىَّ غير مجهولة . وأعف عن الرد عما جاء بالخطاب من دناءة فما تعودنا من هذه الجهة إلا مثل هذا وإنما أجيب فى شأن واحد مما جاء فى الخطاب وهو غضبه على أننى لا أتكلم فى مشاكل الشعب . لكم يتاجرون بك أيها الشعب العظيم . وهل يحتاج الشعب لأحد أن يذكر له مشاكله . أليس هو أدرى الناس بها . ما أسخف الطبيب إذا وصف للمريض داءه الذى هو أدرى الناس به دون أن يصف الدواء .

فإذا أنا تصديت لهذه المشاكل على غير علم منى مكين بدوائها فأنا ذلك الطبيب الذى يردد على مسامع المريض أعراض مرضه ثم يتركه ويمضى دون أن يذكر له الدواء .

وانما قصارى الأمر معى أن أهيب بالحكومة أن تنفذ رأى العلماء . فهى قد استشارت رجال الاقتصاد أفتراها نفذت شيئا من آرائهم .

أما أن أتكلم عن مشاكل التليفونات فمن أين لى الخبرة بذلك ولكن لماذا لا يمتدح الناس التقدم الذى تحقق فى هذا المرفق أنسوا أن وسط القاهرة ومصر الجديدة والمعادى ظلت سنوات لا ينطق فيها تليفون . ألا ينبغى علينا أن نحمد التقدم حتى يجد العاملون عندنا بعض الاعتراف بالفضل بدلا من أنهار الذم التى لايقف سيلها .

أو أتكلم على مياه الصرف أو غير ذلك فإننى أكون كذلك الطبيب السخيف . أنا لن أردد كالببغاء ما يعرفه الناس مغتنما بالحديث الفرصة لأهاجم الحكومة فلست بذلك . فما أصبح الهجوم على الحكومة اليوم بطولة . وفيم البطولة وجرائد المعارضة تقول ماتشاء وتختلق ما تشاء أيضا وتصدر مع ذلك فى مواعيدها بل وتسافر إلى الخارج أيضا تحمل أنسام الحرية التى تشهدها مصر إلى العالم المتحضر الذى أصبحت الحرية فيه أمرا لا يحتاج إلى الإشادة به وتعلن هذا العالم أننا نسير فى هذا الطريق وأننا عنه لا ننكص . فلنضرب إذا صفحا عن الخطاب وأصحاب وعن ذلك المجهول المعروف ولا أحب أن أروى بيت المتنبى المعروف فقدر ما أبغض الناقصين أبغض أيضا أن أمدح نفسى .

●●

خطـــاب فـــى موعـــده

هى فتاة فى ربيع العمر ونضرته ، وكان فتاها شابا يعمل فى مطبعة وكان يكسب ما يقوم بشأن بيته . وتم بينهما الزواج ومشى بهما العمر رضيا هانئا تلك الهناءة التى تخلو من الأحداث الكبرى ولا تخلو من الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين زوجين فى أول حياتهما الزوجية . فالزوج ذو عادات وتربية خاصة ، والزوجة لها بدواتها وتربيتها الخاصة . وحين تصطدم التربية بالتربية والنشأة الغربية بالنشأة الغربية لابد أن تنشب هذه الخلافات الصغيرة وربما كانت الحياة تحلو بهذه الخلافات ، فهى آخر الأمر لرباط الزوجية أقدس ما خلق الله من صلة ومن عقود .

وأنجبت الزوجة الشابة ولدين ولكن حدث أمر ليس بعجيب ولا شاذ ، وقد يسأل سائل ففيم اهتمامك به وكتابتك عنه وأنت تعلم أنه ليس بعجيب ولا شاذ .

وربما راق لى أن أجيب على هذا التساؤل . . فالواقع أن الكاتب يكتب وهو لا يعرف لماذا يكتب وإنما كل الذى يدريه أن شيئا ما . . لا يدرى مأتاه هزه هزا عنيفا ودفع به إلى الكتابة ، وليس يعنيه فى شىء أن يكون هذا الذى يكتبه جديدا على الناس أم قديما .

وقال عنترة قبل ظهور الإسلام وفى غروب الجاهلية . هل غادر الشعراء من متردم . فوحقك ليس بين الناس من جديد ، فالشر قديم قدم قابيل وهابيل والخير قديم قد آدم ومن أعقبه من أنبياء .

كان جار الزوجين شابا فى مقتبل العمر ينتمى الى آسرة عريضة شهيرة بين الناس ، وكان للشاب سيارة وضيئة وابتسامة آسرة وأهم من هاتين كانت له سمعة أنه ثرى وأنه يحب أن ينفق من ثرائه هذا .

ولم تهتم الزوجة أن هذا الشاب جاهل لم يكمل تعليمه . وكان من الغباء بحيث لا تستطيع أن تستبين غباءه .

بالغ الفتى فى إظهار محاسن سيارته . وبالغ أيضا فى إطلاق ابتسامته على قلب الزوجة وترك سمعة ثرائه تنساب إليها من سيل جارف حتى إذا أيقن أنه وقع من نفسها حيث يريد أن يقع بدأ حديثا

ولم يكن هذا التخطيط عن غباء ـ لاقدر الله ـ وإنما هو مران تعود به أن يصاحب الفتيات . وفيم ينشغل الجاهل الجميل إلا بالنساء .

وقد تجد بين الناس أغبياء وإنما يتقنون من حياتهم جانبا واحدا . وهم فى هذا الجانب الذى يتقنون يصبحون أعلاما متمرسين حتى ليبدو الفرد منهم وكأنه ذكى شديد الذكاء .

أشار إليها فرفضت فألح فامتنعت فأغراها بنزهة بريئة بالسيارة فتمنعت تمنع الراغبات . وأدرك الفتى بخبرته أنها أصبحت من أولئك الراغبات فأعاد الإلحاح .

فقبلت ونزلت إلى السيارة

ـ أتعرفين كم أحبك

ـ إننى متزوجة

ـ أعلم

ـ وأم لطفلين

ـ أعلم

ـ فلم إصرارك هذا ؟

ـ وهل للحب أسباب؟

ـ أنت غنى وجميل

ـ أترينى جميلا

ـ وأنت تعلم

ـ إذن

ـ تستطيع أن تجد غيرى كثيرات

ـ ولكنى أريدك أنت

ـ وماذا تريد لعلاقتنا هذه ؟

ـ ما تريدين أنت ؟

ـ أنا لا أعرف إلا الزواج

ـ فليكن ما تريدين

ـ كيف

ـ تتركين زوجك

ـ هل هذا معقول

ـ وكيف يمكن أن يتم زواجى ؟

ـ لا يمكن

لم تقتنع فى النزهة الأولى بالسيارة ولكنها فى الثانية والثالثة والعاشرة إقتنعت .

وحين تريد الزوجة أن تترك زوجها لا يمنعها شيء خاصة إذا كان الزوج شريفا ولا يقبل أن يعيش مع زوجة لا تحبه .

طلقت الزوجة من زوجها وتركت طفليها له ومكثت شهور العدة فى بيت أبيها ثم تزوجت السيارة والابتسامة الأسرة .

كانت قد ورثت عن أمها نصف بيت فباعته . فهى لم تعد فى حاجة إلى رأس مال يؤمن حياتها فليس بعد غنى زوجها أمان . وهى تريد ثمن نصف البيت هذا لتشعر أنها غنية هى أيضا .

وكان أبوها رجلا فى أخريات عمره يعيش مما يتقاضاه من معاش .

ويبدو أن الأب لم يكن راضيا عن تصرف إبنته ، ويبدو أن الموت قد حلا له أن يختطفه دون إبداء أسباب فالموت غير محتاج إلى تقديم أسباب .

وأصبحت الزوجة القديمة الجديدة لا عائل لها إلا زوجها . وماهى إلا شهور قلائل إتضحت الأمور جميعا .

الابتسامة تكشير عن أنياب وليست ابتسامة فالفتى ذو الأصل العريض كثير الشجار كثير المطالب لا يرضيه شيء .

والسيارة كانت آخر ما يملك وكان لابد أن يبيعها فهو لم يعد لديه ما ينفقه عليها - بل لم يعد لديه ما ينفقه إلا ثمنها .

- ومن أين ستعيش بعد ذلك

- سأسافر إلى السعودية

- وإن لم تسافر

- المسائل منتهية

وأنفق ثمن السيارة ولم يبق إلا ثمن نصف البيت ينفقان منه وأوشك هذا المال ايضا ان ينفد .

ولكن مشروع السفر إلى السعودية إكتمل فاشترى تذكرة السفر من مال زوجته واتفق معها أن يسافر ويرسل إليها ما يمكنها من اللحاق به .

وفى الطريق إلى المطار

- هل بقى معك شيء من النقود

- خمسون جنيها

- هاتيها

- وأنا كيف أعيش ؟

- فى ظرف أسبوع سيكون عندك ما تشائين من مال

ـ وماذا أعمل فى هذا الأسبوع
ـ ليس صعبا أن تدبرى أمرك لمدة أسبوع
ـ أمرى إلى الله
وأخذ الخمسين جنيها .
وبعد أسبوع فعلا وصل إليها خطاب من زوجها
لم يكن به مال وإنما كان به ورقة الطلاق .
وتسألنى فيم أقص هذه القصة وهى فى كل يوم على شاشة السينما ، ولكننى اليوم أنقلها من الحياة لا من السينما وأنا مع كل ذلك لا أدرى لماذا أحببت أن أقصها عليك .

●●

علاقة الإبن بأبيه علاقة عنيفة آسرة فالإبن دمي وحياتى وما بعد مماتى . يختلف الإبن مع أبيه وما أسرع ما يتبين له الصواب الذى كان عليه أبوه ؟ يحبه ويحمد له أنه نصح فصدق النصيحة ونظر فأحسن النظر وتوقع فأفلح توقعه . أم هو يحس أن أباه دائما يتقدمه ، ويرى أبعد مما يراه هو ويعرف اكثر مما يعرف ؟ هل يحب الإبن أباه إذا أخلص النصح وصدق منه الحدس أم يحس بالغيظ منه إنه توقع فأصاب فى حين توقع هو فأكدى وأخطأ ولم يصب من الرأى مفاصلة ، أيحب الإبن أباه لقاء جب أبيه له . أم يضيق به ويحبه هذا الذى يقيد حركته ويحد حريته ويحبس عربدته . وماذا يستطيع الأب اليوم أن يفعل ؟ . أما فى علاقة جيلنا نحن بآبائه فقد كانت المشكلة محسومة او إذا شئت الحق لم تكن هناك مشكلة . وإنما كان الأب يأمر ولا يتصور الإبن أن يكون جواب الأمر إلا الطاعة والخضوع والمسارعة إلى الاستجابة . وإنما اليوم وقد انهارت كل القيم الموروثة . ماذا يستطيع الأب أن يفعل ؟ . هل يوافق إبنه فى كل ما يذهب إليه ويتركه يخوض تجربته مقدرا ان الناس اليوم لم تعد تؤمن بتجارب الآخرين وإنما تؤمن الأغلبية العظمى منهم أن ما يقع للآخرين لا يمكن أن يقع لهم ، وكل إنسان يحسب أنه جنس وحده غير البشر وأن ما يصدق على أحاد الناس وجماعاتهم لا يمكن أن يحدث لهم هم إذن فيترك الأب إبنه يخوض تجربته أم يقف فى كبريات الأمور وقفة حاسمة حازمة ليعلم الإبن أن الأب واحد من العقبات التى لابد أن يتخطاها إلى مبتغاه ومطلبه . وقد يكون كبرى العقبات واشدها مراسا واصلبها عودا واعتاها مكسرا ؟ .

إن حب الآباء العنيف لأبنائهم قد يؤدى بهم آخر الامر إلى كراهيتهم فى بعض الأحيان لأنهم يرون فيهم أسرهم ورعبهم وخوفهم وقلقهم وزوال أمنهم وزعزعة حياتهم . فهم خيول جامحة ثائرة ولا تفكر تسير فى الطريق قد يبدو أوله ممهدا فى حين يعرف الآباء أن الهاوية نهايته . يفرضون على الآباء رغباتهم حتى وإن كانت هدما لرغبات أبويهم وقد يبلغ الآباء من العمر مكانا يطمئنون عنده

على قابل أيامهم ولكن يظل الأبناء هم رعب أيامهم . وتهديد أمنهم ، ومصدر شقائهم الذى هو فى نفس الوقت مصدر سعادتهم من كثرة ما يخاف الآباء على الأبناء . يخافون عليهم وهم يتعثرون فى الطريق ويرعبون على مستقبلهم وهم فى قمة نجاحهم فالأب يخشى على إبنه المتعثر ويخشى على إبنه الناجح الا يدوم له النجاح . وحين ترى أبا يروى عن أبنائه ويكثر من الرواية فلا تلمه ولا تضق به فليس إلى إملالك يقصد وإنما يستمد منك الطمأنينة ويلتمس فى ابتسامتك الثقة فى المستقبل فهؤلاء الأبناء مصدر شقاء آبائهم من كثرة ما يثيرون فى نفوسهم من القلق ومن شدة ما يؤججون من الرعب ومن عجب أن يجتمع فى معين واحد الهناء والشقاء ، والامل واليأس . والطمأنينة والرعب وحين يفكر الآباء فى كل هذا يكرهون أبناءهم أو يكادون من كثرة مايحبونهم حبا مدمرا عاصفا يلتهم كالحريق حياتنا ولكن ما أجمل هذا الحريق وما أحبه إلى الآباء .

ثار فى نفسى هذا جميعه وأنا فى طليطلة أقف على أعتاب قصر الكزار والكزار هو الإسم الذى ننطقه وما هو فى الحقيقة إلا كلمة القصر ينطقها الأسبان الكثر بفتح الكاف وسكون الثاء وينطقها السياح الكزار وتختلف الالفاظ لتؤدى معنى واحدا هو القصر .

فى إحدى غرفات هذا القصر قصة أنقل مضمونها إليك ولا تعجب ان تثير فى نفسى كل هذا الذى قدمته بها فإننا نستطيع أن نسيطر على عقولنا او قد نسيطر على قلوبنا مع كثير من الجهد ولكن هيهات لنا ان نسيطر على خيالنا . وبنا الآن إلى قصة القصر إنها تروى عن الجنرال سكردوه فى الحرب الأهلية الأسبانية وقد كان جنرالا بالجيش ومتحصنا مع قواته فى القصر فإذا بالتليفون يدق عنده وإذا المتحدث زعيم القوات الشيوعية المعادية له وإذا هو يبلغه أنهم أسروا إبنه وهم يخيرونه بين أن يسلم القصر أو يقتلوا إبنه وفى هدوء يقول الجنرال .

ـ دعونى أكلم إبنى .

ويمسك إبنه بالتليفون ويعرف الأب بدمائه وقلبه لا بأذنه صوت الإبن ويقول له :

ـ ولدى أنا أضحى بك فى سبيل وطنى .. فى سبيل أسبانيا ويقول الإبن .

ـ هكذا أريدك ان تكون .

ولا يصل إلى قلب الجنرال بعد ذلك أو اذنه إلا صوت طلق نارى نقل الإبن إلى السماء وترك الأب لا فى الأرض وإنما فى السماء ايضا بما قدم من تضحية .

ترى هل دارت بنفس الإبن أو أبيه همسة أو خلجة من تلك الخلجات التى قدمت بها قصتها الخالدة . من يدرى .. ولكن لنا نحن أن نروى بيت شوقى :

وللأوطــان فــى دم كــل حــــر
يد سلفت ودين مستحق

وأى وفاء لدين يؤديه وطنى لوطنه أعظم من الإبن ؟ فالنفس وهى النفس أقل شأنا وأهون عند الأب ألف مرة من جرح يصيب إبنه أو حتى يخدشه فكيف إذا كان وفاء الدين للوطن هو حياة الإبن جميعا . . دم الإنسان وحياته وما بعد الحياة .

●●

التراث فى هذه الآية الكريمة بمعنى ميراث اليتامى وبهذا المعنى وبآيات كثيرة أخرى فى القرآن الكريم وبتفصيله سبحانه وتعالى للمواريث ينقطع الطريق على الملحدين لأن الميراث فى أغلب أمره مال يغل مالا .

والشيوعية ترفض أن يغل مال مالا والإنسانية ترفض أن يستغل المال الإنسان . وعدم الإغلال هو أهم عنصر من العناصر الشيوعية فى النظرية الماركسية وحكم البروليتاريا هو أهم عنصر من العناصر السياسية فى النظرية ، والإلحاد بالله سبحانه وتعالى هو دينهم الوحيد الذى لا دين غيره . فكل شيوعى إذن ملحد بحكم النظرية فإن كان مؤمنا فهو غير شيوعى وكل شيوعى يدعو إلى حكم البروليتاريا متخذا به ستارا لقهر البروليتاريا وغير البروليتاريا فى آن معاً .

وكل شيوعى يرفض أن تسمح الدولة للفرد باستثمار ماله ومن لا يعتنق هذه المبادىء يكن غير شيوعى أو شيوعيا منافقا وأغلبهم كذلك .

وقد اضطرت الأحزاب الشيوعية فى اوربا ان تهدم هذه الأركان جميعا لتجد لنفسها منفذا إلى الحكم وكشفت الشعوب عن نفاقهم ولم يصلوا بهم إلى الحكم . وحين كنت فى سويسرا شاهدت حديثا تليفزيونيا بين عالم كيماوى أعلن أكثر من مرة أنه شيوعى متطرف . وكان المذيع ـ شأن المذيعين هناك ـ غاية فى الذكاء فما زال به حتى ضيق عليه الخناق فى فكرة الدين فأعلن الشيوعى أنه غير ملحد ولم ينتظر المذيع بل عاجله فكيف إذن تؤمن بالنظرية الماركسية فأبلس الشيوعى وأطبق عليه الفخ فأصبح كفأرة أحيطت بالمنجل والمطرقة فلا تستطيع فكاكا . وفى نفس البرنامج مع هذا الشيوعى أجرى المذيع لقاء بين ضيفه الشيوعى وبين الكاتب العالمى جورج سيمنون . وبدا أن الشيوعى يحترم الكاتب الكبير إحتراما بالغا وجورج سيمنون من أعظم كتاب الرواية المعاصرة والحقيقة أننى لم أكن أعرفه حتى لفت نظرى إليه أستاذنا توفيق الحكيم منذ ما يقرب من عشرين عاما وقال عنه إنه كاتب للرواية البوليسية ولكن العجيب فيه أنه دائما يضفى على روايته لمسة إنسانية ترتفع بها إلى مستوى الرواية العالمية . ومنذ ذلك اليوم وأنا أقرا له .

كان اللقاء بين الإثنين ممتعا وفجأة سأل جورج سيمنون ضيفه الشيوعي - ما رأيك في الروح .

وهنا ارتج عقل صاحب النظرية المادية فالعجيب أن هؤلاء الشيوعيين يرمون المؤمنين بالجهل لأنهم يصدقون الغيبيات . وفي نفس الوقت يقولون إن أصل العالم المادة وهنا لابد أن نقول لهم إنهم بين واحدة من اثنتين إما أن يكونوا قد شهدوا بداية العالم ورأوه وهو ينشأ من المادة أو أنهم هم الذين يختلقون الغيبيات التي لا يدل على صدقها أي شاهد ثم يصدقون ما اختلقوا كعباد الأوثان يصنعونها بأيديهم ثم يصلون لها ويعبدونها .

وبعد فقد مضى بي الحديث وأريد أن أعود إلى عنوان المقال . فأحس أن قول الله سبحانه « وتأكلون التراث أكلا لمًّا » جعلني أفكر في تراثنا الإسلامي بالمعنى الذي اكتسبته اللفظة على مر الأيام وأنكر هؤلاء الذين حاولوا أن يأكلوا تراثنا الأدبي ويحطموا اللغة العربية حتى لقد ذهب بعضهم إلى كتابة كتب بأكملها باللغة العامية ولم يكن الأمر محتاجا مني إلى إمعان نظر فتراثنا هو لغتنا التي هي لغة القرآن الكريم فإن حطموها حجبوا ما بين الناس وبين الذكر الحكيم ويضيع الدين . وألقي نظرة على هؤلاء فإذا هم جميعا ملحدون أو من أعداء الدين الإسلامي بالذات . وهؤلاء لا يدرون أن الله من فوق سبع سماوات قال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وتسطع المعجزة فإذا الزمن يلتهم كتبهم ويضرس بها وتصبح هملا من الهمل لا يذكرها أحد ثم لا يعرفها أحد وإذا بالقرآن الكريم يتصدر كل مكان فهو في جيب الرجل أو في سيارته إن لم يكن في صدره محفوظا وهو حلية المرأة المسلمة تعتز به وتفتخر .

ولا يستطيعون - وهيهات لهم أن يستطيعوا - أن يأكلوا التراث وإنما يأكلهم التراث وينزوي الملحدون كالخجل الخزيان . وتعلو كلمة ربك وهل كان يمكن إلا أن تعلو كلمة ربك لهم يكيدون كيدا ويكيد ربك كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا .

●●

كانت المدارس تبدأ قبل أن يجمع الفلاحون القطن فكان أبي يرسلنا إلى القاهرة ويبقى هو فى القرية ليشرف على جمع القطن . وكانت مديرة منزلنا سيدة كبيرة السن وكان زوجها صديقاً لأبى فحين مات عنها عاشت هى معنا ترعى أمرى أنا وإخوتى . وكانت مصاريف المنزل ومصاريف أيدينا فى يدها . وبطبيعة الحال فرتكت أنا مصروفى فى لحظات وأصبحت يا مولاى كما خلقتنى . وجاءنى صديقى إحسان عفيفى وهو اليوم الدكتور إحسان عفيفى وقال إن فيلما جديدا ظهر للوريل وهاردى ومعروض فى سينما متروبول وعملت الحسبة وتبينت أننى أريد خمسة قروش لأذهب إلى السينما وأركب الترام ذهابا وإيابا . فتذكرة السينما صالة درجة أولى ثلاثة قروش ونصف القرش والترام ستة مليمات ذهابا ومثلها إيابا ويبقى ثلاثة مليمات . ذهبت إلى أم عبده وطلبت منها القروش الخمسة وطبعاً سألتنى فيم تريدها فقلت لها أشترى كتابا ـ وكانت بعض الكتب فى ذلك الحين تباع بخمسة قروش . وتظاهرت أم عبده أنها صدقت ونفحتنى القروش الخمسة .

بكرنا فى يوم الجمعة أنا وإحسان ذاهبين إلى السينما وركبنا ترام ٣٣ إلى العتبة ودفع إحسان تذكرة الترام وحين حاولت أن أحتج قال إدفع لى عند عودتنا فابتلعت احتجاجى . كنت يومذاك فى الابتدائية بمدرسة العباسية . وكان إحسان بالسنة الأولى الثانوية بمدرسة فاروق الأول الثانوية وهكذا كنت لا أعرف أحدا من أساتذته .

ووقفنا عند شباك التذاكر فرأى أستاذا له مع آنسة يقفان عند شباك البلكون فطار عقله وهتف بى فى جنون فرحان أستاذ الإنجليزى معه واحدة ويقطعان بلكون لابد أن نقطع بلكون معهما .

ـ تقطع معهما ؟ !

ـ نعم

ـ كيف ؟

ـ كدا

ـ بكم تذكرة البلكون ؟
ـ بأربعة قروش ونصف
ـ وكيف أرجع ـ تذكرة الترام بستة مليات ولن يبقى معى إلا قرش تعريفة .
ـ ولا يهمك أنا أقطع لك تذكرة الترام .

كانت تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى أعرف فيها القلق قطعنا تذكرة البلكون وظللت طوال الفيلم والهواجس تنهش عقلى وأحاول أن أردها بضآلة الفرق بين ما معى وما أحتاج إليه من أجل تذكرة الترام .

لم أتمتع بالفيلم مع أنه كان من أحسن أفلام لوريل وهاردى وانتهى الفيلم وأضيئت الأنوار والتفت إلى إحسان . ليس هناك إحسان . أمحى ألغاه الوجود أصبح كانه لم يولد ولا إحسان على الإطلاق .

وقفت بباب السينما حتى أغلقوا الأبواب ولا إحسان .

ماذا أفعل ؟

الأتوبيس بقرش تعريفة ولكننى ساكن جديد بحى العباسية ولا أعرف إلى بيتى طريقاً الا من محطة الترام ـ أما أين ينتهى بى الأتوبيس وكيف أذهب إلى بيتى لا أعرف مشيت إلى شارع فؤاد لأسال عن محطة الأتوبيس فوجدتها .

هل الأتوبيس الذى يقف هنا يذهب إلى شارع فاروق ؟

ـ لا ولكن ترام ٣٣ هو الذى يذهب ومن محطة الترام هذه تستطيع أن تركبه .

المصيبة أن محطة الترام كانت أمام محطة الأتوبيس مباشرة فى شارع فؤاد نفسه . ووجدت نفسى أقول فى بلاهة .

ولكنى أريد أن أركب الأتوبيس ونظر إلى محدثى يبحث عن لهجة أجنبية فى كلامى فلا يجد فليس من المعقول أن يفعل هذا إلا سائح ولست به لاكلامى ولا منظرى يدلان على ذلك طبعاً لم يخطر له على بال أن معى تعريفة وليس معى ستة مليات . فالمليم لا يستطيع أن يكون فرقا بأى حال وعلى أية صورة .

وجدت على محطة الأتوبيس صديقاً لى من مدرسة المنيرة . ولكن ماذا أقول له هات مليما . أهذا معقول تواريت عنه حتى لا يرانى وجاء الأتوبيس وركبت وسألنى الكمسارى ؟ .

ـ أين تريد أن تذهب ؟ !
ـ العباسية
ـ أى عباسية ؟ !

ـ العباسية القريبة من شارع الجنزورى.
ـ تحتاج إلى قرش صاغ
مصيبة لم تقدر على المليم فكيف تقدر على التعريفة كاملاً.
ـ إذهب بى إلى آخر محطة يوصل إليها هذه التعريفة . .

وأدرك الركاب الأزمة . وللأسف لم يكن الأتوبيس مزدحما فكان كلامى يرن فى أسماعهم جميعاً . . والتفتوا إلى صبى يرتدى من الملابس ما يدل على أنه ميسور الحال وليس معه إلا تعريفه أى شعب عظيم هذا . . فى لحظة واحدة سرت فى الأتوبيس معان كثيرة كلها رفيعة وشريفة وجميلة . . فأنا عند الكبير منهم إبن وعند الصغير أخ وتسارعوا جميعاً إلىَّ منهم من يريد أن يدفع لى فأبيت خجلاً شاكراً ، ومنهم من يريد أن يصحبنى ألى البيت فيزداد خجلى وأطلب إليهم فى لعثمة أن يدلونى على طريق البيت فقط .

ويصل الأتوبيس عند شارع أحمد سعيد ويأتى إلى الكمسارى أن أنزل هنا وينزل معى بعض الركاب ويقومون جميعاً بإرشادى إلى الطريق .

وأسير وأصل إلى شارع الجنزورى وألتقى فى منتصفه بإحسان عفيفى . عاد إلى الحياة من جديد بعد أن حلت المشكلة . كانت على وجهه ابتسامة معتذرة لا تغنى شيئاً .

ـ أين أنت ؟ !

واحتجزت دمعى حتى لا يراه وذهبت إلى البيت وتلقتنى أم عبده .
ـ أنا أعرف أن القروش الخمسة التى أخذتها لم تكن لكتاب ، أنت ذهبت الى السينما .

لم يكن ينقصنى إلا أم عبده أيضاً . . النهاية . ترى هل استفدت شيئاً من البحث عن المليم . لا أظن .

●●

انا من جيل يشرف اليوم على خمسينات حياته . . مظلومون نحن جيل الأربعينات الذين ولدنا فى أواخر العشرينات وحين جاءت الثلاثينات التى كان الجنيه فيها يشترى عمارة ويبقى منه ما يشترى بيتا كنا نحن أطفالاً وكان الحصول على القرش فى ذاته عمليه تحتاج إلى مناورة ومداورة .

وكنا فى هذه السنوات نحب أن نتفرج على السينما . وكان أهم ما فيها حلقات الشجيع تومكس وغيره من مشاهير الأبطال . وكنت أظل الأسبوع كله حريصا أن أبقى على قرش لى وقرش لزميل طفولتى إبراهيم الذى جاء من البلدة خصيصا ليكون رفيق ملعبى .

ثم نتعرض بعد ذلك للرعب الشديد أن يلحظ أحد تغيبى وتغيبه عن البيت فترة الساعات الثلاث التى نقضيها بالدرجة الثالثة فى سينما الأهلى حتى إذا كبرت بعض الشيء ولم أعد أحتاج لمن يلاعبنى دخل إبراهيم إلى المطبخ سالكا طريقه إلى أن يكون واحدا من الطهاة فى الأسرة وأتممت أنا رحلة الشقاء فى الدراسة .

وحين ألم بنا الشباب فى بواكيره الأولى إلتقينا به شبابا أسود لانور فيه فقد اقبلت الحرب العالمية الثانية وأطفئت أنوار القاهرة وأطفىء معها نور شبابنا ولولا أن رمت بنا الهواية إلى الأدب والقراءة لقطعناه شبابا فارغا لا تدانيه أى متعة ولا صخب ولكننا نحن الذين أحببنا الأدب وانصرفنا إلى قراءته ووجدنا متعتنا وضجيجنا جميعاً فى القراءة وكنا نجتمع فى بيت أحدنا نناقش ما قرأنا ويمتد النقاش حتى الوهن الأخير من الليل فنقوم إلى بيوتنا وننقلب إلى أهلنا وقد أوهمناهم أننا كنا نذاكر .

وفى ليلة سهرنا فى بيت صديقنا الأستاذ عثمان نويه الذى كان بمثابة الأستاذ لنا ولكن حبه للأدب كان يجعله يشاركنا فى حديث طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد والدكتور حسين هيكل تاركين مربع أرسطو والمنطق والفلسفة والجغرافيا .

وأوغل بنا الليل والوقت صيف والنسمة رخاء وقمنا وقام معنا صاحب البيت للمشى على غير هدى .

ولم أجد معى سجائر وقد كان العثور على سجائر فى هذه الأيام ضربا من المعجزات ولهذا ظللت بخيلا بها حتى اليوم .

ووجدت دكانا يتخفى وراء الظلام ينير مصباحا خجولاً يحيطه باسطوانه ورقية من بقايا علبة سجائر قديمة . وكان باب الدكان لا يزيد على ربع ضلفة من ضلف الأبواب العادية .

- عندك سجائر نمرة ثلاثة ؟
- لا
- عندك بحارى ؟
- لا
- كرافن إيه ؟
- لا
- ملك مصر أو سفير ؟
- لا

وانغمست فى حديثى مع صاحب الدكان ونسيت أمر من معى حتى وجدت يدا تنبعث من الظلام تحمل نصف قرش وتضعه على منضدة البائع لتقول فى حسم .

- إتنين فلاج وهات مليم وحياة أبوك

أدرك الأستاذ عثمان أننى أحادث الرجل بلغة لن يفهمها . فلو كان عنده شىء مما ذكرت لما سهر إلى أخر الليل ليهتبل ربحا لن يزيد على ملاليم . وأراد الأستاذ عثمان أن يعلمنى اللغة الصحيحة التى يمكن أن يفهمها . إتنين فلاج وهات مليم . أى انه يعرف الثمن تماماً وقد تعلمت الكثير من هذه الجملة البسيطة التى طالما ضحكنا منها بعد ذلك .

لمن أتكلم وماذا أريد أن أقول وكيف أصل بما أريد إلى فهم من أكلمه تلك هى مشكلة أمام الكاتب أو المتحدث .

تستطيع أن تكون أستاذا عظيماً فى الأدب ولكن هذا لا يجعلك بالضرورة تعرف اللغة التى تخاطب بها من تخاطبهم . فهناك كلام يقال فى المدرج بأسلوب معين وألفاظ بذاتها وهناك كلام يكتب فى المجلات المتخصصة . وهناك كلام يكتب للجرائد اليومية وهناك حديث خاص للندوات العامة . ومعرفة كل مجال وما يتطلبه من كلام هو الأساس الذى نستطيع به أن نصل إلى الناس .

ولكن كثيراً من الأساتذة يكتبون فى الجرائد اليومية مالا تحتمله إلا المجلة المتخصصة وكثير منهم يكتب فى الكتب كلاما لا يسوغ إلا فى الجرائد اليومية . وتختلط الأمور عليهم وعلى قرائهم ويقعون فى أحابيل « الاستذة » ويقع الجمهور فى أحابيل الخوف من التصريح بعدم الفهم . حتى لا يقال عنهم جهلاء ويصبح الكلام فى الهواء لا قيمة له ولا يجد له فاهما . . كم يحتاج هؤلاء الأساتذة إلى عثمان نويه ليقول لهم إتنين فلاج وهات مليم وحياة أبوك .

●●

سقط الصنم
ولم تسقط القاعدة

أتصور أنه فى عهد عبادة الأصنام كان هناك فريق من الناس لا عمل لهم إلا أن يجلس بجوار هبل وغيره من الأصنام يرفع عقيرته بمعجزات الصنم وما يناله قصاده من خير على يديه داعيا الناس أن يزيدوا من الأموال التى يقدمونها للتمثال . مؤكدا أنهم كلما زادوه مالا زادهم خيراً ومعجزات ومنجزات .

وأتصور أنه حين أشرق النور . وتهاوى الصنم لأن الأصنام لا تعيش فى النور . أتصور أنه بقى من الصنم قاعدة . وهذا الفريق الذى كان يعيش على النصب . والأكاذيب . والادعاء الباطل والشعار الزائف . والاحتيال المقيت . ويجد هذا الفريق نفسه بلا مورد يعيش عليه . ولاناس يحتال عليهم . إلا قلة قليلة لا ترى إلا فى الظلام . ولا تحيا إلا فى السراديب . ولا تتنفس إلا العفن ولا تأكل إلا لحم البشر . ولا تشرب إلا الدماء الآدمية

ويدور فريق الصنم المنهار حول القاعدة المهيضة المحطمة يطلقون المباخر ويرفعون العقائر . ويستجدون النفع الذى زال عنهم . فهذه القاعدة هى كل ما بقى منهم . وبغيرها لا حياة لهم لأن حياتهم قامت أول ما قامت على هذا البهتان . ولو كانوا يملكون صنعة غير طبولهم ومزاميرهم التى كانوا يدقونها وينفخونها هتافا للصنم وأصبحوا يدقونها وينفخون فيها نواحا عليه لذهبوا إلى صنعتهم تلك ونسوا ما كان من أمر الصنم والقاعدة ولكن من أين وهم عجزة إلا عن الهتاف . جهلة إلا عن الاحتيال . أغبياء إلا عن السلب والزور والغش والسرقة .

ولكل فترة زمن صنم يقيمه الناس من الدماء . ثم لا يلبث الناس أن يتبينوا مقدار ما امتص الصنم من كيانهم ولهذا فلا بد لكل صنم أن يسقط وينهار . ولا بأس أن تبقى القاعدة حينما يلف حولها هذا الفريق من نفاية البشر . ويمر الزمن بالنور فتمحى القاعدة كما أمحى الصنم وتصبح النفاية عدما من العدم ولا يبقى إلا الأشراف والنور والضياء فإنه يمكث فى الأرض وفى السماء .

توالت الأنباء من داخل المؤسسات الحكومية عن اللصوص والمرتشين لم تجامل هذه الانباء أحدا فهى حينا تتناول وزيرا ثم هى ما تلبث أن تتفاقم وتصبح أحكاما نهائية على أربعة من كبار موظفى الدولة ولا تمثل هذه الأحكام إلا جزءا يسيرا من قضايا مازال الجانب الأكبر منها متداولا فى أيدى القضاة ثم تهب ريح من وزارة الصناعة تتهم جماعة كبيرة العدد بالرشوة .

وكل هذه الأنباء تعيد إلى المواطن المصرى ثقته بحكومته أن الجميع عندها سواء وأنها لا تتستر على أحد مهما يكن ذا سطوة أو ذا قرابة وأن القضاء فى مكانه الأسمى لا يعنيه إلا الحق والحق وحده معصوب العينين عن قيمة المتهم ومكانته متفتح البصيرة نظره إلى العدالة المطلقة وما يؤيدها من أدلة وشواهد وشهود .

وليس شيء يدعو إلى الثقة فى دولة ما مثل القضاء الشريف وكاذبٌ كل من يدعى أن مثل هذه القضايا تهز الثقة فى الاقتصاد المصرى وإن كانت الثقة فى الاقتصاد المصرى لا تتأتى إلا بالتغاضى عن المرتشين والتستر على اللصوص والسكوت على المجرمين فليذهب هذا النوع من الثقة إلى أى جحيم يشاء . . ولتظل مصر على ما تنتهجه من ردع المجرمين وتقديمهم إلى المحاكمة وليأخذ العدل مجراه وليكن بعد ذلك من أمر الاقتصاد ما يكون فالقاعدة الثابتة أن الاقتصاد والصلات المالية إن لم تتسم بالشرف فهى إلى انهيار لا شك فيه .

ولكن العجيب المؤسف أن هذه القضايا جعلت الموظفين الشرفاء فى حالة تجمد كامل عن إصدار القرار أضع على رأس هؤلاء الوزراء . انفسهم فقد اصبح الوزراء ـ وهم يعلمون أنهم شرفاء ـ يخافون من إصدار القرار الذى يستغرق إصداره يوماً أو بعض يوم لا يصدره الوزير إلا بعد عدة أشهر وإذا كان الوزير خائفاً فوكيل الوزارة هالع وإذا خاف الوزير وهلع الوكيل فالسكرتير العام مذعور ومن يليه من المسئولين فى قرف مبين لا يملكون معه أن يضموا أصابعهم على قلم ليتحملوا به مسئولية رأى .

ما هذا الذى يحدث معقول هذا ألا تواتى الجرأة إلا اللصوص ويجمد الشرفاء فى السجون من الخوف والهلع المذعور والقرف المرتعش الأليم .

بمثل هذا يتجمد الاقتصاد ومن مثل هذا يفر من التعامل مع الحكومة كل الشرفاء مصريون كانوا أو كانوا أجانب أفرادا كانوا أو دولا هل يعقل أن يصبح تخريب اللصوص عندنا واسع السطوة إلى هذا الحد إنهم استطاعوا أن يعدوا أثرهم الخطير إلى الوزراء وهم وزراء .

أخشى ما أخشاه ألا يكون الوزراء واثقين من شرعية وجودهم على كراسى الوزارة فإن هذا الشعور مدمر فتاك يفتك بمصالح الدولة ويدمر الوزير نفسه أحسب أن الوزير فى كل قرار يعرض عليه يظل يسوف التوقيع بإنفاذ القرار موجها نظره إلى أعلى حينا يستمد الشجاعة حتى إذا افتقدها وفقدها راح يقلب عينيه ذات اليمين وذات اليسار يحاول أن يتلمس التأييد من معاونيه ومساعديه ومستشاريه وأحسب أن الوزير بهذا يمد جميع هؤلاء بشحنة من الرعب لا يملكون معها أن يقطعوا برأى ومن أين لهم الرأى وقد أكلهم الذعر أكلا وانتهبهم رعب الوزير انتهابا .

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى وزراء واثقين كل الثقة بشرعية وجودهم على كراسيهم يؤدون ما يرون أن الحق هو ويتوكلون على الله العلى القدير .

لا يخشون فيما يفعلون إلا الله وحده المطلع على الضمائر لا يخفى عليه من شىء فى الأرض أو فى السماء إن المعارضة ستعارض ولكن ما رأى الناس إن المعارضة هى روح الديمقراطية واساسها الأول وفى رفضها يستنير الناس ويعرفون تماما ما فى القرارات من محاسن وعيوب ولن يجمع الناس على شىء أبدا فما أجمعوا على شىء من قبل وإنما الأغلبية هى صاحبة القرار وحسب من يصدر القرار أو نؤيده الأغلبية ولست فى حاجة إلى القول إن صاحب القرار لابد أن يبذل أقصى جهده للوصول إلى القرار الأمثل فعليه أن يبحث ويدرس ويستشير حتى إذا اطمأن إلى القرار أصدره .

فإن القرار الصادر فى عجلة وبغير دراسة وبال مستطير .

وفى نفس الوقت القرار الذى ينبغى أن يصدر ولا يصدر وبال مستطير .

وإنه لمن المحزن أن تكون الديمقراطية مدعاة للخوف والهلع وهى النظام الذى يقوم على رأى الأغلبية وفى ظله يكون الخطأ نادرا لا يقع إلا فى أضيق الحدود فى حين تتسم الديكتاتورية بالقرارات الرعناء التى لا يسبقها تدبر أو تفكير أو دراسة .

والديمقراطية تحتمى من الخطأ بحق الجميع فى المناقشة بينما لا حماية للديكتاتورية إلا الإرهاب فليس فى الديكتاتورية دراسة تسبق القرار ولا فى الديكتاتورية مناقشة القرار إذ صدر وقديما قال الشاعر :

تلوا باطلا وجلوا صارما .. وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وإنه لكارثة كبرى أن يخاف الوزير وهو فى حماية من المناقشة الحرة وتداول الرأى ولا يخاف الوزير فى ظل الطغيان وهو بلا رأى ولا فكر فهو فى هذا النظام البغيض لا شىء إلا لسانا ينطق عن الديكتاتورية حتى ولو كان ينطق بغير ما هو مقتنع به ولا يجوز للوزير فى ظل الديمقراطية أن يخشى الكتاب الذين دافعوا عن الديكتاتورية وارتبطت أنفسهم ومصالحهم الخاصة بسيفها الظالم السفاك لأن هؤلاء أصحاب هوى ولا أمانة لهم وهم لن يؤيدوا الديمقراطية بقلوب خالصة أبدا .

وقد يقول هؤلاء إن السرقات قد كثرت وإن هذا دليل على الفساد وهم يعلمون ولكنهم ـ لا يقولون إنه فى ظل الديكتاتورية قام الحكام بتأميم السرقات فلا يسرق إلا ـ أصحاب السلطان وحدهم والدليل حاضر من قريب فحسبك ان تذكر جواهر أسرة محمد على والقصور المسلوبة والأموال التى صودرت لحساب الدولة فانتهبها حكام ذلك الزمان .

هذه واحدة وأخرى أنه لم تكن هناك حياة تجارية فى ظل الطغيان فالأموال كلها كانت خبيئة مستورة تتخفى وراء الجدران وتتباعد عن القانون وتنأى عن الحدس .والتخمين فما كان أحد ليفكر أن يستثمر أمواله خشية أن تنقض عليه الحراسة فتستولى على أمواله جميعا هذا إذا لم تضم إليها حريته وكرامته وعرضه أيضا فممن يسرق السارق وماذا يسرق ؟ وهل كان هناك مال حتى يسرقه سارق ؟

ويجوز للوزير أو أى مسئول فى ظل الديمقراطية أن يخشى من قضايا اللصوص المقدمين إلى المحاكم فليس هناك دولة ليس فيها مرتشون أو لصوص بمناصبهم ولكن الأغلبية دائما من الشرفاء .

كل ما فى الأمر أن هذه القضايا جديدة علينا بعد فترة طويلة لم تكن لمصر فيها حياة إقتصادية على الإطلاق وهذه القضايا تشكل موجة ولكنها لاشك ستنحصر فلا ينبغى بأى حال من الأحوال أن تمسك هذه الموجة العارضة بأيدى الوزراء وأصحاب القرار أن يصدورا القرارات التى يتعين عليهم أن يصدروها فان خوفهم هذا قد أصاب الأسواق المصرية كلها بالرعب والتجمد وكم يحزننى أن أرى العاملين فى حياتنا الاقتصادية يصيبهم الظلم الفادح نتيجة الخوف من إصدار القرار العادل .

وكم يصيبنى الأسى لمصر وأنا أسمع من التجار أن الكثيرين من زملائهم يفكرون فى إنهاء أعمالهم التجارية . .

وإنك لن تسأل أحدا ممن يعملون فى الحياة الاقتصادية إلا قال لك إن حركة السوق متوقفة تماما وركود السوق خراب فما الخطب إذا توقف ؟

إن الأدواء الاقتصادية التى تعانيها مصر معروفة حتى لغير أساتذة الاقتصاد والدواء الوحيد لمواجهتها هو الشجاعة فى اتخاذ القرار .

فإن أحاط بنا الخوف فى القرارات الفرعية فويل لاقتصادنا كل الويل حين يتحتم علينا أن نواجه القرارات الكبرى التى سترغمنا الأيام على اتخاذها شئنا أم أبينا .

فيامصرنا الخالدة ناشدى المسئولين فيك أن يلوذوا بالجرأة فى الحق ولا يخشون إلا الله وحده .

فهو وحده سبحانه القاهر فوق عباده وهو أيضا الرحمن الرحيم الغفور جلت آلاؤه .

●●

صديقى رجل عالم تخرج فى كلية العلوم وكان فيها من النابهين فأبى أن يقف به العلم عند شهادة التخرج فأخذ سمته إلى انجلترا وظل بها حتى حصل على الدكتوراه فى صناعة الأقمشة وعاد إلى القاهرة .

إلى هنا وأخالكم ستكملون أنتم القصة وتقولون أى جديد فيما ستروى لابد أنه عاد ليجد نفسه معينا بمصنع للسيارات ، أو فى الإدارة القانونية لإحدى المصالح الحكومية أو الشركات .

والعجيب أننى سأخلف ظنكم فإن صاحبى قد عاد ووجد مكانا فى شركة من شركات النسيج وعين خبيرا فنيا فيما تخصص فيه . وقد شاء الحظ أن يقف إلى جانبه مرة أخرى فوجد رئيس الشركة زميلا له رافقه فى المدرسة الثانوية ثم تشعبت بهم الطرق فدرس صاحبى فى كلية العلوم ودرس زميله فى كلية الآداب قسم تاريخ .

طبعا إندهش صاحبى حين وجد شركة النسيج تضع على رأسها متخرجا فى كلية الآداب قسم تاريخ فهو فيما تعلم فى القاهرة أو انجلترا لم يدرس أن هناك صلة ما بين التاريخ وصناعة الأقمشة .

ويقول لى :

حتى إذا كان هناك تاريخ لصناعة النسيج فأنا أعتقد أنه ليس ضمن برنامج كلية الآداب قسم التاريخ فيما أعتقد أن قسم التاريخ يدرس تاريخ الصناعات وإنما يدرس تاريخ الدول .

المهم أن فرحتى بوجود زميلى جعلتنى أتغاضى عن هذا التناقض وفرحتى بعملى جعلتنى أنصرف إليه بكل خبرتى .

بدأت عملى وإذا بصديقى ورئيسى يريد أن يتدخل فى أدق خصائص عملى ودهشت أول الأمر .

نعم هو أنيق . وهو لاشك ذو خبرة واسعة فى اختيار لون القماش الذى يفصل منه حلته واختيار لون القميص الذى يتماشى مع هذه الحلة ، ثم هو ذو

خبرة فائقة فى اختيار الكرافتة التى تواكب الحلة والقميص جميعا ولكنه من المؤكد لا يستطيع أن يعرف مم صنعت الحلة أو القميص أو الكرافتة .

ولا تقل لى أى عجيبة أن يتدخل رئيس فى أعمال شركته ، فهو يعلم كما نعلم ـ وإن ظن أننا لا نعلم ـ أنه وصل إلى منصبه هذا بوسائل بعيدة كل البعد عن إتقان صناعة النسيج وهو يعلم ـ ويظننا لا نعلم ـ أنه عين أول ما عين بهذه الشركة لأسباب لا تتصل مطلقا بخبرته فى النسيج وإن كانت وثيقة الصلة بخبرات أخرى يستطيع كثير من الناس أن يتقنوها ويعف كثير آخرون أن يتخذوها وسيلة فى الحياة .

فصديقى خبير من أكبر خبراء فن النفاق ، وهو فى نفاقه يستغنى تماما عن الحياء ولم يكن عجيبا أن يجد آذانا تصغى لنفاقه لأن هذه الآذان نفسها كانت معينة فى مناصب وصلت إليها بخبرة النفاق وامتهان الكرامة ولا صلة لها بإتقان العمل أو الخبرة فيه .

وأرى فى عينيك سؤالا أى عجيبة فيما تروى . . نعم أنا أحس أنك تسخر منى فى نفسك قائلا لقد غاب الفتى فترة خارج البلاد وعاد إليها لايدرى من أمرها أمرا . هون عليك ولا تعجل بالتذاكى والتحليل .

كل هذا الذى رويت ليس عجيبا ولكن كان من المنتظر أن يعرف صديقى حقيقة خبرته ويترك الأمور تسير فى شركته بخبرة الآخرين وهذا يتمشى تماما مع بعض الذكاء الذى يجب أن يتوفر عند المنافقين .

وأحس رئيسى ما يدور فى نفسى من سخرية بجهله فزاد على جهله التعالى والتعاظم مصرا أن يذكرنى دائما أنه رئيسى وأننى مرءوس فسكرتيرته تمنعنى من الدخول وحين أحتال على ذلك وأطلبه بالتليفون تأبى أن توصلنى به مدعية أنهمشغول بوفد أو اجتماع أو بما شئت من هذه الحجج التى لا تتقن السكرتيرات غيرها مع الابتسامة الأكليشيه الباردة فإن رجوتها أن يطلبنى حين يفرغ من وفده أو اجتماعه أو ما شاءت أن تختلقه له من معاذير وعدت فى أدب مصطنع ثم لا طلب والعمل يحتاج إلى التشاور ولكن كرامة العالم تحول دون ذلك .

وأنا فى حيرة

وانصرف صاحبى بعد أن ألقى إلى بحيرته ، وتسألنى أنت أيها القارىء ما اسم الشركة وما اسم الرئيس لا إله إلا الله . أتريدنى أن أصرح لك بكل شىء ألا تعرف الأدب الرمزى أيها القارىء لاشك أنك تعرفه فقد مرنت عليه سنوات طوالا . وما عليك لو أنك وضعت كلامى هذا فى إطار الأدب الرمزى فإنك بذلك تستطيع أن تطبقه على من شئت .

وشاء قدرى أن أعرف خبىء حياتهم . وجميعهم يدين بغير الله ويصرف ولاءه لغير الوطن ولكل منهم متجه فى الحياة ومنحى ولكل منهم نحلة أو مهنة تختلف عن مهنة الآخر أو نحلته ولست أدرى **أعرفهم**
كيف تتابعوا إلى ذهنى يشد كل منهم الآخر إلى تفكيرى ويقف أمامى فأرى عجبا .

وأنا اليوم أحاول أن أقدم بين يديك هذا العجب فلا أدرى أأذكره بادئا أم أذكره منتهيا أم لا أذكره مطلقا وأتركك تصل إليه وحدك وأنا واثق أنك بهذا خليق .

ولكن هذه الصور التى لا أدرى ما الذى جعلنى أحاول أن أرسمها لك نوع من الكتابة يجمع بعض ملامح القصة وبعض ملامح من المقالة وإذا أنا قدمت لك هذه الصور التى أريد أن أقدمها لك اليوم ولم أكشف لك عما جعلها تتتابع إلى ذهنى ممسكا بعضها برقاب بعض أكن قد جنحت بقلمى إلى الشكل القصصى الذى يشير ولا يصرح ويومض ولا يكشف ويهمس فى خفاء ولا يجاهر فى علن .

وأنا أحب ـ ولا أدرى لماذا ـ أن أحتفظ لهذه الصور بطابعها هذا الذى لا يجعل منها قصة ولا يجعل منها مقالة .

دعنى أعرض عليك هذه الأشكال .

أما الأول فقد كان جده يعمل فى بيت وكان أهل البيت يعتبرونه واحدا منهم حتى أن الأبناء كانوا لاينادونه باسمه إلا إذا سبقوه بكلمة عم وظل هذا حالهم وحاله حتى كبر الأبناء وتزوجوا فكانوا يزدادون له احتراما وتوقيرا كلما مرت بهم السنون وعلت بهم السن .

وقد لقى هذا الجد ربه بعد أن أصبح ابنه موظفا بالحكومة بشهادة متوسطة واستطاع هذا الأب بجهد جهيد وكفاح مرير أن يعلم ابنه موضوع هذه الصورة فتخرج من كلية .

مسكين هذا الفتى لقد شب فى زمن الحقد فهو ينظر إلى ماضى أسرته فى فزع وقرف وإشفاق ويخشى أن يعلم الناس حقيقة هذا الماضى والمجنون لا يعرف أن الناس تعرف هذا الذى يخشاه وأنهم يقدرون جده أكثر مما يقدرون أباه وأنهم يحتقرونه هو مع أنه يحمل هذه الشهادة التى حصل عليها فقد كان أبوه وأسرته

جميعا قوما شرفاء يحبهم الناس ويقدرونهم لانهم عاملوا ربهم فى تخشع المسلم الصادق وعاملوا الناس فى ود وإيناس يسعون لهم ويسعون بينهم بالخير والحب والصفاء فجده وأخو جده كانا فى زمانهما صفحة مضيئة مشرفة من صفحات الحياة يراهم الناس فيحمدون الله أن بينهم مثل هؤلاء القوم الأتقياء . وليس يعنى الناس فى كثير أو قليل بهذه الشهادة التى يحملها هذا الغر مادامت شهادته لم تستطع أن تجعل نفسه شفيفة ولا استطاعت أن تجعل فى قلبه حبا .

مسكين هذا الفتى يأكله الحقد فتشتعل النار فى نفسه وهى نار لا تأكل إلا صاحبها لأن صاحبها أهون كثيرا من أن تحس به الحياة .

وهو ملحد ولكن إلحاده يغريه وحده كما يغرى الضياع صاحبه فإذا كانت الارض لا تحس به أو بإلحاده فكيف بالسماء .

كل حسن فى عينيه وكل سلام فى نفسه حرب . . وكل الدنيا فى عينيه قائمة كنفسه . كئيبة كإلحاده . لادفء فيها ولا إيناس ومن أين وهو غريب أشد الغربة عن أهله وهم أهله وعن وطنه وهو وطنه وقبل كل هؤلاء عن دينه وهو دينه .

مسكين هذا الفتى إختلت موازين الحياة فى نفسه وانقلبت لأنه يظن أنه ينتسب إلى جد وأسرة لا يشرفانه وهو فى هذاحقير ساقط الرأى ولأن أسرته تراه أنه ملحد ويأبون أن تمس أيديهم يد الإلحاد فيه كما يأبون أن يمدوا حياته بدفء الأقارب وحب الأهل وهم فى هذا محقون .

من هذا التناقض نبت فى نفس الفتى سرطان الشيوعيه .

وفى صورة أخرى بعيدة فى جذورها كل البعد عن هذه الصورة قريبة منها فى حقيقتها .

كان أبوه ثريا غاية الثراء وبقدر ثرائه كانت سخافته وتفاهة تفكيره . . وكان رحمة الله عليه جاهلا كل الجهل . والجهل فى اللغة له معان كثيرة : المعنى المعروف الذى يجعل صاحبه حيوانا أعجم لايفهم عن أحد ولا يفهم أحد عنه . لا يقرأ فى الكتب ولا يقرأ فى الحياة فهو جاهل وهناك معنى آخر كانت تستعمله العرب فيقال جهل فلان على فلان أى أساء إليه وتهجم عليه ويقول عمرو بن كلثوم فى معلقته .

الا لا يجهلن أحدا علينا . . فنجهل فوق جهل الجاهلينا .

وأب هذه الصورة فيه من الجهل بل ربما كانت فيه معانى الجهل كلها إذا كانت له معان أخرى .

والرجل فى البيت المصرى هو رب الأسرة وقيمها وممثلها الأعلى فحين شب صاحب الصورة عن سن الطفولة وبدأ لقاءه بالصبا والشباب وجد هذا الأب التافه الجاهل وقد اجتمع عليه أيضا البخل والبخل عند الفقير مسبة ولكنه عند الغنى كارثة وكثيرا ما يختلط البخل بالخسة والدناءة فيصبح البخيل بين الناس أهزوأة ويصبح بين أهله مسخرة .

وحين يصبح عماد البيت مسخرة فليس غريبا أن يصبح صاحب الصورة شيوعيا .

أما الصورة الثالثة فهى عن أب هذه الصورة أيضا وقد كان هذا الرجل جديرا بأن يكون موضع احترام وتوقير ولكن شاء الله فجعل منه موضع احتقار وامتهان وأكمل هو أسباب احتقاره فسرق شركة كبرى كان يرأسها وشب الفتى وأبوه فى سجنين من الحديد والاحتقار معا .

وكان من الطبيعى أن يصبح الإبن رافضا للمجتمع كله الذى امتهن أباه واحتقره ومادام المجتمع قد فعل فهو يرفض الله وهو شيوعي .

أما الرابع فهو ملحد بسبب آية كريمة تخاطب الإنسان وتقول له إن الله خلقه فسواه فعدله ولكن صاحب الصورة يعتقد أن الله خلقه فقط وما سواه ولا عدله . وهو يصدر فى ذلك عن غباء مطلق فالله سبحانه وتعالى حين يقول هذا للإنسان إنما يريد ـ عزت مشيئته ـ أن يميز الإنسان عن الحيوان أما إذا كان الإنسان قبيح الوجه مشوه القوام غير معتدل القامة غير متناسق الأطراف فهو لا يخرجه بذلك عن الإنسان الذى ينتسب إليه وإنما هو امتحان من الله سبحانه وتعالى الذى قال ولنبلونكم وفى هذا الاختيار يكرم الله سبحانه عبده ويتيح له أن يقترب منه بروحه إذا كانت سليمة ولم يسمح لها صاحبها أن تلتوى بالتواء ظاهره وحين يصل الإنسان هذا الإنسان إلى ربه يجد نفسه أجمل الناس جميعا فالذى يعرف الطريق إلى السماء تصبح الأرض عند كبريائه هينة لا تساوى أن يقيم لها وزنا ولكن صاحب الصورة شوه داخل نفسه أكثر مما شوهته الطبيعة فحقد وألحد .

وما دام قد حقد وألحد فما بغريب عليه أن يكون شيوعيا .

والصور شتى ولكن المراة ازدحمت ولكننى مازلت أعجب كيف جرت كل صورة من هذه الصور الصورة الأخرى ويزداد عجبى أننى كلما ذكرت شيوعيا وجدت هذه البؤرة العفنة من الحقد رسبت فى أصله أو ثبتت فى نفسه أو تجلت فى سحنته سمة واحدة لا يخطئها البصر ولا تغيب عن البصيرة .

●●

يرى بعض النـاس ـ ومنهم أدباء وفنـانون ـ أن الأدب ينبغى أن يبتعـد عن السياسة إن المعيار الحقيقى للأدب هو الفن الأدبى فحسب وهذا قـول مردود . فالأدب لسان عصره وشاهدة إن لم يكن نبض وطنه فلا خير فيه ولا فى أدبه . وهناك أدباء مجيدون نقرأهم فلا تعرف منهم فى أى عصر عاشوا . فأدبهم يمكن أن يكون صالحا لكل العصور وهكذا يصبح غير صالح لأى عصر .

إن الفكر الإنسانى والنبضة فى قلب البشرية واحدة . والأديب هو هذا الفكر وهذه النبضة ولكن الإطار الذى يضع فيه فكره هو الذى ينبغى أن يصور آلام عصره وآماله .

وليس من الحتم أن يكون هذا الإطار فى نفس العصر الذى يعيش فيه الكاتب فقد يلجأ الكاتب للتاريخ ويظل مع ذلك ناظراً إلى آلام عصره . فحين كتب طه حسين أحلام شهرزاد وانتقد بها عصره أشد ما يكون الانتقاد . وحين كتب نجيب محفوظ رواياته المصرية كان يكتب بنبض مصر التى كان يعيش فيها فى ذلك الحين . فالمعاصرة تكون فى المضمون أكثر مما تكون فى الزمن الروائى .

وحين كتب شوقى كليوباتره نجده ينتقد عصره فى مرارة واستطاع نقده ان يخترق العصور التى تلته فى صدق .. فحين يقول :

أسـمع الشـعب ديـون	كيـف يوحـون إليـه
مـلأ الجـو هتـافا	بحيـاتى قاتليـه
أثـر البهتـان فيـه	وانطـلى الـزور عليـه
يـا لـه مـن ببـغاء	عقـله فـى أذنيـه

نجد الشعب ظل يقولها معه إلى عهد قريب ولا يجد غيرها ملجأ حين كانت السياسة فى مصر صراخا وهمسا وحين لم تكن عقلاً ونقاشاً ورأياً .. وقد ظلت كذلك حتى أعاد السادات رحمه الله العقل للسياسة والأمن للناس وجعلهم يقولون بدلا من أن يصرخوا ويجهروا بدلا من أن يهمسوا .

وحين يقول شوقى فى مجنون ليلى :

أحـــب الحـــســيـــن ولـكـنـهـمـا
لـســانى عـلـيـه وقـلـبـى مـعـه
إذا الـفـتـنـة اضـطـرمـت فى الـبـلاد
ورمـت الـنـجـاة فـكـن إمـعـه

يظل هذان البيتان سيفاً على أعناق المنافقين فى كل العهود والرواية والمسرحية والقصة القصيرة ظلت وما زالت وسوف تظل وسيلة للكتّاب ان يكونوا لسان عصرهم والشاهد عليه فيرى الجيل المعاهد للكاتب نفسه فى العمل الفنى إن كان صادقا وترى الأجيال القادمة آباءها فى العمل وإن كانت هذه الفنون حديثة فى الأدب العربى وإن كنا نحن قد اشتركنا فى الزمن مع جيل العمالقة الذى أنشأ هذه الفنون فإننا لاشك والأجيال التى تلت جيلنا تستطيع أن تعرف مصر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن من المويلحى « حديث عيسى بن هشام » كما تعرف الحب الرومانسى والعادات الريفية من « زينب » هيكل ومن عودة الروح « لتوفيق الحكيم » ومن « شجرة البؤس » و « دعاء الكروان » للدكتور العميد ثم نرى مسحا لمصر الثورة وما بعدها من ثورة ٥٢ الى اليوم من كتابات نجيب محفوظ وجيله . والجيل الحديث أيضا يعطى صورة آلام وآمال عصره . وإن كان القهر قد منعه زمنا أن يقدم هذا الرأى إلا أن الروائى والقصاص والمسرحى يجد دائما الوسيلة ليقول ما يريد أن يقول .

ويقف مسرح الحكيم علما شاهقا بما قدمه ناقدا عصورا كثيرة فى فن رفيع لا يبلغه إلا العمالقة الأفذاذ . فكيف ننسى شجرة الحكم وشهرزاد وإيزيس والورطة وبنك القلق والصفقة وهل يمكن الإحصاء للرائد العملاق والقصة القصيرة أيضاً لم تتخلف بل أعطت عطاءها فى قدرة وفنية على يد كتّابها من جميع الأجيال .

وهكذا ترتبط الحياة بالأدب ارتباطا وثيقاً . وما دامت قد ارتبطت بالحياة فهى مرتبطة بالسياسة العامة لأن الحياة فى كل وطن إنما تتشكل بالسياسة التى تزامن كل فترة .

●●

الشيوعية والدين

عنوان كتاب جديد للأستاذ الباحث المتعمق والشاب فى نفس الوقت طارق حجى . وقد راقنى الكتاب ورأيت واجبا على أن أنوه به ولكننى قبل ذلك أحب أن أبين ناحية أحسب أنها تخفى على كثير حتى على الذين يعملون فى الميدان السياسى سواء كانوا مقحمين عليه أو علماء فيه .

فكثير من الناس يظن أن الأدب منفصل عن السياسة . ولذلك يحرص كثير ممن يريدون أن يكتبوا فى السياسة أن يقصوا الأدباء عن هذا الميدان . وبعض الصحفيين يظنون أنهم ما داموا يذهبون إلى مكاتب الوزراء ويخرجون بالأخبار أو ما دام يتصل بهم العارفون بالأمور ويملون عليهم الأخبار فهم وحدهم أصحاب الحق فى الكلام فى السياسة والتعليق عليها . وأن كل من يتجرأ من الأدباء باقتحام هذا الحرم المقدس إنما هو دخيل يسير فى غير طريقه ويعلق على ما لا يعلم ويدعى ماليس له بالحق .

ولكن الحقيقة البسيطة أن كل أديب لا يعتمد على السياسة أعظم اعتماد إنما يكون أديبا خارج عصره لا يمثل وطنه ولا زمنه ولا يمثل الصدق الفنى فى أدبه لأن الصدق الفنى إنما ينبع من خلايا المجتمع وهذه الخلايا تشكلها السياسة كما تشكل هى السياسة يؤثر كل منهما فى الآخر تأثيرا عميقاً .

وليس هذا الأمر جديدا على الأدب فمنذ امروء القيس إلى حسان بن ثابت إلى شعراء العصور المتتابعة إلى شوقى إلى عزيز أباظة ومن عاصرهم ومن جاء بعدهم كانت السياسة من أهم المحاور التى دار عليها شعرهم وحسبك نظرة إلى روايات الشاعرين العملاقين لنصل إلى صدق ما ذهبا إليه . ثم امض حثيثا فى الأيام واقرأ مسرحيات عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور تجد السياسة اساسها الاول .

وأترك الشعر وأقرا القصة وأذكر عودة الروح ثم بنك القلق فإذا انتقلنا إلى المسرح العربى الذى انشأه توفيق الحكيم تجد السياسة تقف وراءه فى الغالبية الكاثرة من رواياته . السلطان الحائر إيزيس . الورطة . شجرة الحكم . ولن أستطيع الإحصاء.

وأنتقل إلى الرواية فى الجيل الثانى ولست بحاجة أن أذكرك بنجيب محفوظ والثلاثية واللص والكلاب والكرنك والحب تحت المطر وثرثرة على النيل ومرة أخرى أعجز عن الإحصاء . ثم ننظر إلى يوسف السباعى فنجده أرخ الثورة المصرية جميعاً حتى وصل إلى ابتسامة على شفتيه . وإحسان وشيء فى صدرى وفى بيتنا رجل والرصاصة لم تزل فى جيبى والثقوب وكثير وكثير . ولن أذكر لنفسى شيئاً .

إنما أريد فقط أن أقول إن الأديب شاهد عصره وإن السياسة هى العنصر الذى يقف دائما وراء أعماله .

والسياسة هى حياة الناس ومجتمعهم . والأديب هو نبض هؤلاء الناس وهو مرآة هذا المجتمع الصادقة . وكل أديب يقف بناحية عن السياسة لا بناحية عن عصره جميعاً ويصبح شيئاً هلاميا لا عصر له ولا مجتمع متميزاً له أو لفنه .

ونحن حين نناقش النظرية الشيوعية إنما نناقش نظرية تصدت للمجتمع العالمى فى كل نواحيه ولم يترك للفرد جانبا واحدا يتصرف فيه بوحى من ضميره أو منطقه وإنما صنعت هى كل شيء له جاهزا محتوما عليه لا يستطيع منه فكاكا ولا عنه حودا . . وقد بدأت بدين الناس فمحته لأن كل ما وضعته بعد ذلك يتعارض مع الدين ولا سبيل لهم أن يقيموا نظريتهم قبل أن يمحقوا الدين أولا . ولهذا عجبت حين سمعت أن شيوعيا وقف منذ قريب يقول إن الدولة حين تنادى بالدين إنما تثير نوعا من الفتنة وهذا الشيوعى يعرف الحق ولكنه يخادعه ويخادع نفسه شأن الشيوعيين جميعاً . الآن الأديان جميعها تحارب الشيوعية فهى حرب عليها جميعاً وإنما تتحد الأديان وتتواصل قواها أمام هذه الحرب ضد إلحاد الشيوعية وكفرها .

وهذا الكتاب الذى أعرضه عليك لكاتب شاب متعمق واسع الثقافة سعة أعجب أن سمحت بها سنوات عمره . وهو يناقش النظرية الشيوعية مناقشة علمية يبدأها بوقفة عالم محايد وفى كتابه الشيوعية والأديان يعرض ويحلل العلاقة النظرية والعملية بين الماركسية فكرا وتطبيقاً ـ والتطبيق هو الأهم اليوم ـ وبين الأديان وأنت وأجد أن كل صفحة من هذا الكتاب أساس يسلمك إلى أساس آخر فى الصفحة التالية حتى يتم الكتاب أمامك آخر الأمر بناء فلسفيا ينهض صرحه على المزاوجة بين النظرية وواقعها التطبيقى .

ويبدأ الكتاب بكشف ناصع لا لبس فيه ولا شك للموقف الأيديولوجى الماركسى من الأديان فإذا أنت أمام البون الشاسع الذى يفصل التناقض الذى لا

يحتمل الجدل بين فكرة الدين فى عميق جذورها وبين الأيديولوجية الماركسية . ولا يفوت الكاتب الذكى العميق البحث أن يتبع موقف الشيوعية العملى من الدين وكيف حاولت أن تخادع فى هذا الموقف وتراوغ فيه منذ عام ١٩٥٥ فى تصور ساذج أنها تستطيع أن تفوت على أعدائها تسلحهم بالفكر الدينى فى محاربتهم وبعد فلا سبيل لى أن ألم بالكتاب جميعاً ولكننى حريص أن أهنىء المؤلف بكتابه الصادق وبحثه العميق المتمكن وأقدم الكتاب مثلاً رفيعاً لكل من يتصدى للبحث من العلماء والمفكرين .

●●

تنقلت الحياة بالإنسان فيلقى فيها نماذج وأنماطا تتسع الهوة بين بعضها البعض ونقف حيارى مشدوهين كيف استطاعت البيئة التى أنشأت هؤلاء أن تنشىء أولئك ونحن جميعا فرائس للحياة تضعنا حيث يتحتم علينا أن نعامل الخسيس والمترفع والذليل وذا الكبرياء . وتزداد بنا الحياة قسوة فترسم لنا خطوطا من مجرى الحديث فنقف أمام من نحقرهم ونعلم أنهم حقراء صامتون يرفض المجتمع أن نجابهم بالبشاعة البشرية التى يمثلونها .

وأنا واحد من الناس تعودت أن أسير بالرأى لا أكتب ما أكتب إلا لوجه الوطن والحق . وابتغاء لرضاء ضميرى والله على ما أقول شهيد .

أيدت الحاكم حين أزال عن شعبى الخوف والطغيان والجبروت ولو لم يفعل إلا هذا لكان حسبه عند الله ولكان حسبى لأقف فى صفه وأدفع عنه غائلة الكلمة الرخيصة وأرد عن رحابه عبيد كل العهود وتجار الشرف وسلفة الطغيان حين الطغيان سيد وخدم الأمان حين الأمان هو ظل الحياة .

وأيدت الحاكم وهو يحقق النصر الوحيد الذى عرفه العرب فى العصر الحديث وأيدته وهو يشق التاريخ إلى السلام ويشق المستقبل إلى أمن امة فيرد الموات بمصر حياة والحرب سلاماً .

وأعرف وأنا أؤيد أنهم يقولون يداهن الحاكم لأنه حاكم ويمالىء السلطان لأنه سلطان . . وردتنى نفسى إلى الطريق أن من يكتم كلمة حق عند التأييد شر ممن يرد كلمة حق عند المعارضة . . ففى التأييد تنافق الغوغاء ولا تقرر رأيهم وتتخلى عن أمانة القلم وأمانة الضمير . وفى المعارضة قد تركب حصان البطولة وكثيراً ما يكون حصانا من القش .

وظللت حتى يومى هذا لا أقول إلا ما أعتقد ولا أرضى إلا ضميرى الذى يلازمنى ليلى ونهارى ويصحبنى إذا تيقظت ولا ينام فى نفسى إذا أنا نمت .

ولكنى اليوم أقف بقلمى حائرا وجلا . . أو إن شئت فقل خجلاً فإنى أبتسم لناس أعرف عنهم شر ما يعرفه إنسان عن إنسان . . هم نفاية من البشرية

يجمعون السيوف والإغماد فى غير حرب وفى غير شرع وينالون الأموال بما يفعلون ويتاجرون بالكلمة بل وبالوطن محق الزمن ضميرهم فهم شر من الحيوان .

وأعرف عنهم ما يجعلنى أخجل من نفسى إذا حادثتهم ولكنى أحادثهم فإن هذا الذى أعرفه تتناقله الألسنة ويعرفه الناس أجمعون ولكن لا دليل عند الناس ولا دليل عندى فإذا هاجمت بغير دليل أصبحت معتديا وإذا قاطعت بغير برهان فأنا ظالم ولكنى أعرف الحقيقة المريرة وهى حقيقة من شأنها أن تستخفى فإن خيانة الخلق لا تتم بعقد وبيع الكلمة لا يكون بميثاق والمتاجرة بالوطن لا تكون بالعلن .

وتخجل نفسى من نفسى ثم أعود إليها أهدهد ثائرها فكما عرفنا هؤلاء عرفنا رجالا فيهم كبرياء الإنسان وفى قلمهم شرف الكلمة وفى معاملتهم أمانة الأنقياء .. يذكرونك بفروسية العرب إذا تأملت ففيهم الإنسان وبعمق المخلصين إذا عاملت ففيهم الأديب .

●●

الفخر هو كما علمتم بدأ مع الشعر منذ بدأ الشعر أما الجح فهى كلمة لايجهلها أحد وهى فى القاموس تفيد نفس المعنى الذى نستعملها نحن له فى مألوف كلامنا . ومعنى موضوع اللفظين واحد إلا أن الفرق بينهما شاسع . فالفخر فيما نعتقد لا يكون إلا شعراً . وهو يقع من الأذن العربية . . وأعيد فأقول الأذن العربية لأننا نحن كتّاب عرب وقراء عرب ولسنا كتّابا من الإنجليز ولانحن كتّابا فرنسيين . نحن كتاب عرب فالفخر يقع من آذاننا ومن نفوسنا موقعا جميلاً حبيبا . فى حين نستقبل الجخ إستقبالا كريها رافضا مستخفين صاحبه مستخفين بقائله فهو يقول لنا بجخه إننا مغفلون وإن علينا ان نصدق جخه . وهو يقول أيضاً إن حقيقته هزيلة تافهة هينة شائبة فهو يحاول أن يكسبها بالجخ ما ليس لها ويحاول أن يكسو بالكذب لباب الواقع وما نعرفه نحن عنه من قيمة ان كان له قيمة وأغلب الأمر فى شأن الجخاخ أنه غير ذى قيمة .

فحين يقول الشاعر العربى :

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا

وان نحن أو أنا إلى الناس وقفوا

نحب قوله ونسيغه ولو أننا نعلم أنه ليس صحيحاً ولكنى فى الشعر لا أحقق فيما هو صحيح ولكننى فيما يروى لى الشخص عن نفسه لا أفعل شيئاً سوى أن أتبين الحق من الجخ لأن روايته لا تحمل أى عنصر جمالى آخر يجعلنى أغتفر له جخه .

وحين يقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فإنا نورد الرايات بيضا

ونصدرهن حصراً قدروينا

اذا بلغ الرضيع لنا فطاما

تخر له الجبابر ساجدينا

نقول له كذبت ولكن ما أعظمك ولكننا مع النخاخ أو الجحاخ نقول له كذبت وما أتفهمك .

وحين يقول شوقى الخالد :

وأنا الذى أرش الشموس إذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

وحين يقول :

لا ترومى غير شعرى موكبا
إن شعرى درجات الخالدين
كل فضل لم اصغه زائل
خالد الحمد بما صغت رهين

وحين يقول :

رب جار تلفتت مصر توليه
سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتنى معزيا بما فى وطنى
أو مهنئا بلسانه
كان شعرى الغناء فى الفرح الشرق
وكان العزاء فى أحزانه

وحين يقول :

وإنى نواسى هذا الزمان
فمن للزمان بأذن الرشيد

حين يقول هذا جميعه وغيره . وغيره كثير ننسى الحق وغير الحق ولا يبقى أمامنا إلا هذه القيم الرفيعة من الأدب الشامخ . .

ولكننا نرفض هذا جميعه إن قاله فى حديث صحفى أو حتى فى حديث شخصى ونرفضه ونبغضه إذا قاله فى مقال .

أثار هذا جميعا فى نفسى عدة أحاديث ومقالات رأيتها لكتّاب وشعراء فى أيامنا الأخيرة هذه جخ كل منهم عن نفسه جخا يزيده هوانا على الناس وعلى نفسه والذى أعرفه أن الروائى يكتب الرواية والقصاص يكتب القصة والشاعر يكتب ما يكتبه من شعر والناقد ينقد غيره ثم يترك للناس بعد ذلك أن يحددوا مكانته وقيمة عمله . . ولكن لا أدرى لماذا اختلطت الأمور وماعت وأصبح كل من هب ودب يتكلم عن نفسه بدلا من أن يترك عمله يتكلم عنه ولعل أعجب هؤلاء كاتب لا يعرف العربية ولم يقدم عملاً فنيا واحدا طاح فى صفحات الجرائد والكتب مصنفا

الناس كما شاء مذهبه الشيوعى وتطرفه غير الشيوعى وفرض نفسه على جيله واعتبر نفسه كاتبا من الكتّاب .

ترى هل يظن أن أحدا سيصدقه . . إن أبسط سؤال يتجه إليه بموجب أى كتاب أو رواية أو قصة أو ديون لو جعلت نفسك مع هؤلاء الكتّاب وإن كان فى كل ميدان من هذه الميادين تجربة واحدة أيتيح هذا لك أن تفرض نفسك كاتبا عربيا مع الكتّاب العرب .

وآخر يقول إنه وحيد ميدانه وزمانه ما سبق منه وما لحق وإن العالم كله لايقرأ إلاله ولا يعرف من كتّاب مصر . ولا العالم العربى إلا هو حتى ليخيل لمن يقراه انه اذا مشى فى شوارع لندن وباريس وروما وبرلين ـ ستتجمع من حوله الجموع وتصبح السينما والإذاعة والتليفزيون لا شغل لها إلا الكاتب الجخاخ .

وآخر يقول فى حديث إنه وحده فارس الميدان لمدة ربع قرن أو تزيد وإنه لا يشاركه فى روعته وعظمته أى مشارك .

ما هذا أيها الابله ماذا تركتم للقراء والنقادأن يقولوا وكيف وأنتم تدعون أنكم أدباء لا تدركون وقع هذا النوع من الحديث فى نفوس القراء ولم لا تتركون الناس والقراء يقدرون أعمالكم قدرها الحقيقى . وكيف ظننتم أنكم بمثل هذا الذى تدعون تزيفون الحق وتسمخون التاريخ وتغيرون الواقع وهبكم نجحتم مع جيلنا هذا الذى نعيش فيه فخلقتم من أنفسكم هذه الأكاذيب فأين أنتم من التاريخ وأنتم جميعا تعلمون أن الفن تاريخ وأن التاريخ على مدى التاريخ قد يكذب فى الأحداث السياسية ولكنه لا يكذب فى الحكم على فنان قط أم أنتم أطفال تريدون أن تفرحوا بلعب فى أيديكم حتى وإن أدركتم أنها ليست لكم وأنها ليست شيئاً إلا أنها لعب لا أكثر بل ربما أقل .

أنتم بما تصنعون تشوهون وجه الأدب جميعه وتجعلون الناس يميلون عن الأدباء ويعتبرونهم فئة لاهم لها إلا الأحاديث الفارغة عن نفسها ويرى فى بعضهم الدعى فهو بعيد عن العربية كل البعد ومع ذلك يصر أن يفرض نفسه عليها فرضا وهو يعلم أنه يعيش حياته فى داخلها وخارجها بعيدا كل البعد عن كل ما هو عربى بل كارها كل الكره لكل ما هو عربى .

وصدق الله العظيم حين يقول « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون أليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ولا يستطيع أحد أن يفهم القرآن الكريم أو لغة القرآن إلا إذا كان ذا لسان عربى مبين . . وهيهات لغير العربى أن يفهم ومن الكوارث أن يحكم من لا يفهم . . والله حافظ لكتابه ولغته مهما يأفك الأفاكون سبحانه له وحده القوة والجبروت .

الصوت المرتفع
والتليفون والفن

تعود أبناء الريف أن يرفعوا صوتهم إلى أعلى الدرجات حين يتكلمون فى التليفون . ولا شك أن هذه العادة قد لازمتهم من أيام تليفونات المركز المتصلة بالعمدة . . وهى بالمناسبة - ما زالت موجودة حتى اليوم . وكان الخفير لايكاد يسمع محدثه حتى كان يرفع عقيرته إلى القمة وأغلب الأمر أنه كان حين تنتهى المكالمة يرتمى إلى أقرب مقعد أو مصطبة مقطوع الأنفاس وكأنه جرى مائة كيلو بغير توقف .

وكان المرحوم أحمد عبد الغفار « باشا » فلاحا لم تتخل عنه أخلاق الفلاحين ولا عاداتهم رغم تعلمه فى إكسفورد ورغم كرسى الوزارة الذى تبوأه .

وفى يوم كان أحد الزوار يجلس عند سكرتيره فى الوزارة وكان صوت الوزير عاليا جداً حتى كان الزائر يسمع كل كلمة يقولها صارخة فى أذنه وأحس السكرتير بحرج فنظر إلى الزائر وكأنه يعتذر .

- أصل الباشا بيكلم تلا

فرد الضيف بسرعة ذكية

- ولماذا لا يكلم الباشا تلا عن طريق التليفون ؟

هذا الصوت المرتفع نلتقى به كثيرا فى الاعمال الأدبية وهو عيب أجمع النقاد على أنه ينال من العمل الفنى وينقص من قيمته فالعمل الفنى بطبيعته همسة تتسلل فى ذكاء شديد ولباقة إلى أبعد أغوار النفس الإنسانية وترسى فيها ما يشاء أن يرسيه الكاتب من معان .

والصوت المرتفع لغة المقال وليس لغة العمل الفنى . فحين يعلو صوت الفنان فى عمل أدبى ينقل عمله من قصة أو رواية الى مقالة أو خطبة .

ولكننا مع ذلك نجد أعمالا كثيرة لأدباء يرتفع فيها صوتهم الى درجة الإزعاج . وتسقط هذه الأعمال وتمنى بالفشل . والكتاب الذين ترتفع أصواتهم غالبا ما تكون كتاباتهم بتوجيهات صادرة إليهم فيرتفع منهم الصوت ليسمعوا من أصدر التعليمات لأن هؤلاء المصدرين للتوصيات لا يحسنون أن يسمعوا الفن فصلتهم بالفن مقطوعة والا فكيف يصدرون الأوامر إلى الفنانين .

الشعر وحده هو الذى نستطيع ان نسمح له باللغة المباشرة والنغمة العالية . لأن الشعر العربي يعتمد فى تراثه على المدح والذم والغزل والهجاء وغير ذلك من أبواب الشعر المعروفة . فحين يأتى الشعراء المحدثون ويسيرون على نفس النهج الذى سار عليه الأوائل فلا جناح عليهم . بل إننا قبلنا هذه النغمة المباشرة فى المسرحيات الشعرية التى قدمها شوقى ومن بعده عزيز اباظة .

فحين يقول :

أسمع الشعب ذيون
ملأ الجو هتافا — كيف يوحون إليه
أثر البهتان فيه — بحياتى قاتليه
ياله من ببغاء — وانطلى الزور عليه
عقله فى أذنيه

يقبل الناس منه هذا الكلام ويرددونه من بعده إلى اليوم وحين يقول عزيز أباظة فى العباسة .

شعور الشعب ياجعفر
يحس الكره والبغض — حق لا هوى فيه
يميز بوحى فطرته — فيجربه على فيه
له من وعيه الساذج — عداه من محبيه
مصباح فيهديه

نقبل منه هذا الكلام ونردده من ورائه .

وحين يرتفع صوت الشرقاوى فى رواياته يقبل منه الناس هذا الصوت المرتفع فى مسرحياته الفتى مهران ووطنى عكا والنسر الأحمر وغيرها وينظرون إلى مسرحه فى تقدير .

والواقع أن الشعر الحديث في المسرحية يقع فى المكان الذى خلق له لأنه يضفى على الحوار نوعا من الموسيقى والجرس مع تحرير الشاعر من القافية وإطلاق يديه فى تنويع الحوار والسير به إلى حيث تبتغى المشاهد والمواقف .

ولهذا لم يكن عجيبا أن تنجح مسرحيات الشرقاوى ويتخلج الشعر الحديث على الطريق ولا يستطيع أن يبلغ من نفوس الناس ما بلغه الشعر .

وعودا إلى الصوت المرتفع . أعتقد أن القراء أنفسهم يحبون فى العمل الفنى أن يصلوا إلى خوافى معانيه بشىء من الجهد يبذلونه مع الكاتب حتى إذا أغناهم الكاتب الروائى أو القاص عن هذا الجهد إنصرفوا عن العمل جميعاً فى غير احتفاء ولا تقدير .

الشخصية المثالية
فى الفن الدرامى

المثالية

فى الفن غيرها فى مفهوم رجال الدين أو رجال المجتمع وهذا أمر قد يصدم رجال الدين وأنا لا أذكره هنا فى معرض التحبيذ أو التفنيد وإنما هو حقيقة فنية وربما احتاج الأمر منى أن أسوق مثالا أو بعض أمثلة للشخصية المثالية فى مفهوم رجال الدين فهى تلك الشخصية التى لا تأتى المحرمات على أى لون من ألوان هذه المحرمات ولابد لها أن تصلى الصلوات الخمس وأن تصوم الشهر ولا تقرب الزنا وتؤدى الزكاة والشخصية المثالية فى المجتمع لا تبعد كثيرا عن هذا وإن كان رجال المجتمع يكتفون بأن يكون الشخص أمينا لا يكذب ولا يسرق ولا يحتال ولا يخادع وليس يعنى علماء المجتمع بفرائض الدين فهم يعتبرون أن صلات الإنسان بربه أمر ليس لهم هم أن يصدروا فيه أحكاما وإنما يصدرون أحكامهم على صلة الإنسان بمجتمعه . فمن كان على وفاق مع هذا المجتمع فهو شخصية سوية ومن ليس كذلك فهو عندهم منحرف مائل عن الطريق طريد من المجتمع .

الفن لا يعترف بهذه المقاييس والدليل على ذلك حاضر من قريب . فشخصية « أرسين لوبين » مثلا شخصية مثالية فى الفن الروائى مهما تكن رواياته بوليسية مرصودة للتسلية وإزجاء الوقت وإنما أخذته لأنه مثال غاية فى الوضوح لمثالية الفن الروائى وإن كان مؤلفه حاول أن يسميه « اللص الشريف » إلا أن هذه التسمية كانت بقصد الإبهار ولفت الأنظار إلى اجتماع المتناقضين وهيهات أن يعترف المجتمع أن اللص يمكن أن يكون شريفا .

لا علينا فقد تواترت الشخصيات الروائية بعد ذلك فى الأدب العالمى وأغلبها بعيد كل البعد عن مثاليات الدين أو مثاليات المجتمع . فنجد « شتباينك » مثلا يقوم بتجربة فى روايتيه الخمس العذب . وطريق السردين المعلب والروايتان منفصلتان فى موضوعهما إنفصالا تاما ولكن الأشخاص فى كل منهما لا تتغير والأماكن أيضا وهذه تجربة جديدة فى الشكل حاولها « شتباينك » فيما حاول من تجديدات فى الشكل ولكن الذى يهمنى فيما أسوق إليك من حديث أن أشخاص الروايتين إنما هم جماعة من الصعاليك الخارجين على المجتمع بكل مفاهيم

الروايتين يقومون بعمل مثالى على كل المقاييس فهم فى طريق السردين المعلب يبذلون كل جهودهم بالطرق المشروعة وغير المشروعة ليحصلوا على مجهر لعالم يعيش بينهم فقيرا لا يستطيع أن يحقق اكتشافاته العلمية ولا يملك ثمن مجهر.

وهم فى رواية الخمس العذب يبذلون جهودهم المشروعة وغير المشروعة أيضا ليتموا زواجا بين فتاة يوشك أن يفوتها سن الزواج من شخص هم يحبونه ويعلمون أنه يريد الزواج بها ولكن موارده المالية لا تكفى.

والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى وإن جاز لى أن أضرب مثلا من عمل لى قدمت شخصية الأخ الأكبر فى رواية « ثم تشرق الشمس » فهو من الناحية الدينية لم يكن متدينا ولكنه من الناحية الفنية يمثل نوعا متفوقا من الترفع فهو يرفض أن يتزوج هوى طفولته وحياته وشبابه لأنه أصبح فقيرا حين ظل أبوها على غناه الباذخ وهو فى موقف آخر يأبى أن يمس فتاة أعجبت به وأعجب بها لأنها أحبت أستاذه الذى أصبح صديقه ومثال آخر لا أستطيع أن أنساه فى هذا المجال وهو رواية « أفراح القبة » لأستاذنا نجيب محفوظ فشخوص الرواية جميعها مرفوضة من المجتمع بكل مقاييس المجتمع ولكننا فى نفس الوقت نجد لكل شخصية مثاليتها الخاصة التى تؤمن بها أعمق الإيمان وهو بإيمانه هذا يلتزم فى كل ما يقوم به من أعمال يبدو أغلبها أمام المقاييس العامة للدين أو المجتمع مرفوضا رفضا كاملا..

فالشخصية المثالية فى الأعمال الفنية اذن ليس حتما أن تكون مثالية وفقا لرأى الدين أو المجتمع وإنما مثاليتها تنبغث من داخل العمل الفنى ذاته ووفقا لمعنى المثالية التى تعتنقها الشخصية من خلال تكوينها الفنى.

إلا أن هناك كُتَّاباً بعينهم لهم فى رسم الشخصية المثالية طريقة عجيبة فالمفروض أصلاأن تكون الشخصية المثالية الروائية قريبة إلى نفس المتلقى للعمل الفنى حسبك أن أذكرك « بأرسين لوبين » مثلا والشخصيات الأخرى فى الروايات العالمية يحاول دائما المؤلف أن يجعلها قريبة إلى النفس غير منفرة حتى تكون مثالية مقنعة إقناعا فنيا حتى وإن لم تصل إلى الإقناع الخلقى ولكن الكتاب الشيوعيين يطبقون على شخصياتهم المثالية بأيدولوجيتهم ويصبونهم فى قالب حديدى فإذا أنت أمام شخصية خشبية يحيط بها المنجل والمطرقة إن حادت يمينا أو يسارا كما يريدها الفن الروائى أن تحيد سارع المنجل وأعادها إلى القالب وإن حاولت أن تبدى رأسها من التابوت الذى وضعت فيه سارعت المطرقة تدق رأسها لتعود إلى القالب.

الحقيقة التى لاشك فيها أن الشخصيات الروائية فى الأدب الشيوعى تهرب من الشيوعية شأن كل من جثمت الشيوعية على بلاده مثل الناس الأحرار . . الأحرار بحق فى ألمانيا الشرقية وفى المجر وفى تشيكوسلوفاكيا والآن فى بولندا وفى الحبيبة أفغانستان وفى اليمن الشيوعية .

لقد رفضت الشخصيات الروائية فى الأدب الشيوعى المذهب الشيوعى وهربت منه وتحررت وتمردت على مؤلفها ومذهبه فمن أطبق عليه فخ الكاتب وقع كريها شاحبا حاسدا ذميا وليس على الشخصية فى ذلك حرج فالحرية هى طبيعة الفن فإن وقعت فى مخالب القالب وصلت فتيلا الى الجمهور بلا وجود أو بوجود بغيض وأنا أسال المؤلفين الشيوعيين لماذا وأنا أدرى أننى لن أجد عندهم جوابا إنما الجواب عندى أنا كل فن يدخل فى قالب محكوم عليه بالسقوط وكل فن يصدر به فرمان أو مانفستو مقضى عليه بالفشل الذريع الذى لا تشوبه مسحة من نجاح فالفن شعاع من داخل النفس ولابد مع الشعاع من نور والنور عند الكاتب لابد أن يكون جذوة فى كيانه شعلة فى نبضه إشراقا فى نفسه . . وكيف للملحد لا يعرف إلى السماء طريقا أن تضىء نفسه أى ومضة من شعاع وكيف لذليل تلقى إليه الأوامر لتكون نفاذا بلا مناقشة من رأى أو منطق أو ضمير أن يعرف حرية الفنان وشلالات الضياء التى لا تستمد جلالها إلا من نور الله . . سبحانه آياته كل مخلوقاته ولكن أعظم آياته قوله سبحانه « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » سبحانك . . إنهم وحقك كما قلت إنهم لا يبصرون .

●●

أقرأ كتابا لأستاذنا توفيق الحكيم ولي مع أستاذنا الكبير ذكريات وذكريات فقد نشأ جيلنا كله على أدبه . وأذكر أن قوة الأسر التي يسيطر بها على قارئه لا يدانيه فيها كاتب آخر حتى أنني كنت لا أطيق أن أترك الكتاب الذي أقرأه له فترة ارتدائي ملابسي فكنت أسند الكتاب إلى ما يجعلني أقرأه في الدقائق القليلة التي أرتدي فيها هذه الملابس .

وربما ظن البعض أن هذا الأسر الذي يقع فيه قارىء توفيق الحكيم لا يكون إلا في المسرحيات والروايات التي كتبها ولكن العجيب أن هذا الظن غير صحيح فهو قادر أن يحيط بقارئه بنفس القوة في كتب المقالات فالقارىء لها يجتذبه ذات التشويق الذي تجتذبه به المسرحية أو الرواية .

ولكن أعظم ما في توفيق الحكيم أنه قادر أن يقدح الشرارة في ذهن الكتّاب والكتاب الذي أقرأه هذه الأيام لأستاذنا الكبير هو « نظرات في الدين والثقافة والمجتمع » .

وقد وجدتني وأنا أقرأ له في الدين أفكر في ظاهرة لم أفكر فيها من قبل أبدا .

فأولئك الذين يقولون إن الطبيعة هي الخالق قوم فاتهم أن يتعمقوا بنظرهم بعض الشيء فإنهم إذا فعلوا لوجدوا أن هذه الطبيعة محكومة بيد عليا لا تستطيع منها فكاكا فالطبيعة لا مشيئة لها وهيهات لمن لا مشيئة له أن يكون خالقا وإنما قصارى ما يصبو إليه أن يكون مخلوقا .

فالطبيعة تقول إن الأيدروجين والأكسوجين يكونان ماء وهكذا تجرى جميع المعادلات الكيمائية . وهذه المعادلات جميعا لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة أخرى غير ما أراد لها الخالق أن تؤدي إليه فلا يمكن أن ينتج الأكسجين والأيدروجين ذهبا أو نحاسا وهيهات أيضا ألا يخرج الماء من العنصرين .

ولكن الله حين يقول إنه يجعل من يشاء عقيما هنا نجد المشيئة ونجد أنها وحدها القادرة على ان تجعل من تشاء عقيما فيجتمع الزوجان ولا ينجبان ويذهبان إلى الأطباء في شرق العالم وغربه ويقول الطب كلمته وهي كلمة متواضعة تعرف

قدر العلم ليس هناك ما يمنع من الإنجاب إذن فلماذا لا يحدث الإنجاب لأن هناك مشيئة عليا تقدر ولا تسأل عما تفعل فإذا مرت سنون أنجب الزوجان نفس الزوجين ـ دون أن يتغير فى بنائهما شىء إلا أن مشيئة الله ـ وهو الله وإن رغمت كل الأنوف ـ أرادت فإذا ما كان ممتنعا يتاح ومن كان عقيما ينجب .

وقس على ذلك فى المطر . فقد قامت دول على أساس المطر ينزل فى مكان معين فى موسم معين فيكون الزرع والنماء وتكون الحياة ولو أن الطبيعة هى صاحبة الأمر لتحتم نزول المطر فى مواقيته لايختلف موعد عن موعد هنيهة من دقيقة . ولكن المشيئة العليا هنا تريد شيئا آخر ويمتنع المطر عن النزول عاما ثم قد يليه عام آخر ثم قد تليه أعوام . ولو كانت الطبيعة هى صاحبة الأمر لنزل المطر لأنها هى نفسها محكومة وليست حاكمة يراد لها ولا تستطيع أن تريد . .

وأقرأ فى كتاب أستاذنا الحكيم ما نقله عن الفريد كاستلر عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل عن بحوثه فى المادة ومؤلف كتاب عنوانه « المادة هذا المجهول » . وهو مثل أينشتين من العلماء المؤمنين وقد قطع فى أبحاث المادة شوطا أبعد مما وصل إليه أينشتين لأنه انطلق فى مساره بعد المرحلة التى وقف عندها سلفه العظيم : يقول العالم العظيم العالمى « إننا كلما أوغلنا فى دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئا فهناك دائما وسوف يكون وإلى الأبد . . ما هو مخفى عنا » ويجيب أستاذنا الحكيم حين يسأله عن الصلة بين العلم والدين فيقول أن العلم ينتمى إلى منطقة المعرفة التى تفسر الكون على أساس مبدأ السببية فى حين أن الدين يعتمد فى إدراك الكون على مبدأ الغاية وهذان المبدآن يكمل أحدهما الآخر ولا يعارضه وبذلك يرى كاستلر انه لا تعارض بين العلم والدين فهما طريقان لصلاح البشرية وتقدم الإنسان ولكن لكل منهما طريقه الخاص والخطأ فى التوفيق بينهما إنما يأتى من مطالبة الإثنين بالسير فى نفس الطريق واستخدام نفس الطريق فالطريقان مختلفان والغاية واحدة . . طريق العلم تمتد فيه قضبان حديدية تسير عليها قاطرة العقل البشرى وتظل هذه القاطرة تسير حتى تجد أمامها سدا منيعا من بحار لا نهاية لها وجبال لانفاذ خلالها فتقف القاطرة العقلية عاجزة أما طريق الدين فليس فيه قضبان ولا قاطرة إنما هو نور يملأ النفس ويشعرها بالوصول فى حضرة الله دون أن تراه .

أقرأ هذا جميعا وتأخذنى روعة الفكر المتسق عند عالم المادة العالمى وروعة التلقى عن أديبنا المفكر العملاق وتملىء نفسى خشوعا أمام جلال العلم وجلال الفكر وأفكر فى خالق هذا جميعه فأصبح وكل ما فكر فيه وكل ما قرأته هباءة هائمة فى نور إلهى لا يشبهه شىء . . فما نحن . . وما الحياة . . وما القمر الذى بلغوه

ومشوا عليه . . وما الزهرة وما المريخ . . وما الأرض . . إلا هباءات جميعها فى ملكوته . . وان كانت هذه الأجرام الكبرى هباءات . . فما الإنسان . . ما ذلك الإنسان الذى يظن أنه شىء ولو اجتمع هوْ والجن ليخلقوا جناح ذبابة لعجزوا « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » . كم هو هين . . حتى لا يستطيع ان يسترد ما اغتصبته منه ذبابة . وأعجب فما هذا الكبريلم ببعضهم حتى كأنهم خرقوا الأرض أو بلغوا الجبال طولا بل وأعجب ماالأرض حتى وإن خرقوها وما الجبال حتى وإن بلغوها طولا هباء كله فى هباء .

وأرثى للملحدين وأرثى لمن سيدوا المادة وغفلوا الله . . إنهم وحق الله هم المغفلون الغافلون وهم الأخسرون فى الدنيا والآخرة وهم لا يعلمون أو هم يعلمون ـلا يهم .

أرأيت كيف أستطاع أستاذ أجيالنا أن يومض إلىّ وإليك بكثير من الأفكار . . ذلك هو الكاتب المتفرد العملاق المتعمق الأصيل وإن لم يكن هكذا توفيق الحكيم فمن يكون ؟ !!

●●

الدراما الشعرية
في رؤية جديدة

قدر الله لى أن أجلس إلى شاشة التليفزيون لأشهد برنامجا يدعى أنه ثقافى ودار فيه النقاش عن المسرح الشعرى وشهدت عجبا وسمعت أفكارا وزيفا عن الحق وعمى عن الإنصاف وبعدا عن شرف الضمير . واستهولت ما اسمع وأسيت له . فمن حق أى إنسان أديبا كان أو كان غير أديب أن يرى رأيه فى شاعر ما بالاعجاب أو الرفض . ولكن ليس من حق إنسان أن يحكم على شاعر بالوجود أو عدم الوجود . . لأن هذا حق من حقوق الله وحده . فليس إذن من حق إنسان ما أن يقول إن التاريخ لا يعرف شاعرا إسمه المتنبى أو البحترى او شوقى أو عزيز أباظة . لأن الله فوق سبع سموات قد سبق بمشيئته فكانوا .

وأمر سبحانه بسابق مشيئته وأصبح تاريخا أن المسرح الشعرى لم يظهر فيه على مدى العصور والقرون إلا شاعران هما شوقى وعزيز أباظة لك أن ترفض شعر شوقى ولك أن تبغض شعر عزيز أباظة ولكن ليس لأحد فى الوجود الكونى أن يناقش هذه الحقيقة فهى أصلا غير مطروحة للمناقشة .

والشعراء الذين ظهروا بعد ذلك كتبوا المسرح الشعرى فى إطار شعرى لم يتأكد بعد أنه شعر .

ومأساة أن تكون الحقائق الثابتة موضع مناقشة . فالألم يمزق نفسى أننى أحرى القلم بهذا الذى أجريه الآن . فكم هو مؤلم أن أقول إن الأهرامات تقع فى مصر وأن مصر تقع فى أفريقيا .

ولكن حين ينماع الإنسان ويبلغ الحضيض فى الرقاعة نجد أنفسنا مضطرين أن نقول له إن الأهرام تقوم فى مصر وإن مصر تقع فى أفريقيا وقد كنت جديرا ألا أكتب هذا لولا أن وافانى كتاب طبعته مكتبة الفلاح بالكويت للأستاذ العالم الدكتور إسماعيل الصيفى عنوانه الدراما بين شوقى وأباظة . ولم يقل العنوان عزيز أباظة لأن المؤلف يعلم أنها حقيقة أكبر من إى إيضاح .

إذن فالعالم العربى وغير العربى يعرف أن الأهرام فى مصر معرفته أن مصر فى أفريقيا ولكن البرنامج الذى يدعى أنه ثقافى فى القاهرة عاصمة مصر يجهل هذه الحقيقة فيسقط إسم عزيز أباظة من المناقشة جميعا وكأنه لم يكن .

وقد هاجم عزيز أباظة الشيوعيين وهاجمه الشيوعيون ولكن لم يجرؤ واحد منهم فى أشد عهودهم طغيانا أن يسقط اسمه من المسرح الشعرى لأنهم لو فعلوا لجعلوا من أنفسهم مسوخا تستجلب الهزؤ والسخرية والضحك . ولم تكن عندهم فى أعظم أوقاتهم طغيانا الجرأة أن يجعلوا من أنفسهم هذه المسوخ ووجد البرنامج الذى يدعى أنه ثقافى هذه الجرأة التى تقاصر عنها جهد أجرأ أوقات الشيوعية عتوا وطغيانا وعربدة فى زمن الحرية المنتعشة والأمن على النفس والمال والعرض . وإنى لأعجب كيف فكر البرنامج أن يقتل تاريخا بأكمله فى هذا الزمن الذى يحترم كرامة الإنسان وحريته حتى لانجد فى السجون معتقلا واحدا كيف يعدو البرنامج هذا العدو على الحق فيعتقل تاريخ المسرح الشعرى كله أو نصفه . . . أليست كبيرة هائلة تستحق أن نستهولها ونتساءل . وأترك هذه المسوخ وهذا الصغار لألقى معك نظرة على هذا الكتاب الوافد إلىَّ من الكويت .

تناول الكتاب فى الفصل الأول مجنون ليلى وعرض للحبكة والصراع فيها ثم الحدث بين التصاعد والتهاوى وتناول رسم الشخصيات ثم الحركة النفسية فى هذه الشخصيات وسرعة الصراع وانتظام الحركة النفسية مع سرعة هذا الصراع ثم تناول بعد ذلك فى الفصل الثانى مسرحية قيس ولبنى وطبق عليها نفس المبادىء التى تناول بها مجنون ليلى .

وفى الفصل الثالث تناول الكتاب فكرة التكامل فى عالم المسرحية والمقدمة المنطقية للمسرحية كما عرض فى عمق وإطالة الفكرة الحبكة المسرحية فعرض لها عرضا تمهيديا ثم تناول التوتر والصراع وأشكال الصراع وأنماطه والحدث المتصاعد والحدث المتهاوى والعقدة المزدوجة وفكرة العاكسات المتماثلة الوحدات ثم أفرد بحثا عن الشخصية فى المسرحية وأبعادها وفكرة البطل وأهم ما يراعى فى الشخصيات . ثم ختم الباحث كتابه بحديث يقع فى حوالى عشرين صفحة عن لغة المسرح وعن الشعر والمسرح وتطويع الشعر العربى للحوار .

ويقول فى هذا الباب فقرة يطيب لى أن أنقلها كما هى

والشاعر العربى عزيز أباظة لا يعزل نفسه عن التيار العالمى للأدب فحين صدر عن طه حسين وعن أحمد شوقى كل فى مكانه معارضة المسرحية الشعرية أو تأييدها وإنجاح محاولاتها لم ينكر أحد منهما موضوعها المواكب لحركة تاريخ المسرح

العالمى فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشاعر على هذا الوعى الشامل والمتفائل بالظاهرة التاريخية والمستقبلية للمسرح الشعرى أمكن أن نقرر فى اطمئنان أن عزيز أباظة من ذوى الآراء الذين يكتبون عن بصيرة وبحماسة وإيمان مستمدين من هذه البصيرة » وبعد فأشهد الله أن الكاتب الباحث المتعمق الأستاذ الدكتور إسماعيل الصيفى كان صادقا مع نفسه غاية الصدق فلم يجنح إلى حكم من الهوى ولم يترك الإنصاف كما يراه قيد أنملة .

وإذا أختلف معه فى شىء فالاختلاف يرجع إلى طبيعة كل منا . فهو ناقد يقيس الأعمال الفنية والشعر بمقاييس الأصول الثابتة وأنا رجل أقف عند الشعر موقف المحب الهاوى . فحين يعنى الأستاذ الدكتور ببطء المسرحية عند شوقى وثبات المواقف لفترات طويلة لا يسيغها الفن المسرحى أقف أنا مبهورا أمام

جبل التوباد حياك الحيا ... وسقا الله صبانا ورعى
كم بنينا من حصاه أربعا ... وانثنينا فمحونا الأربعا
وخططنا من نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى
وحدونا الشمس فى مغربها ... وبكرنا فسبقنا المطلعا
لم تزل ليلى بعينى طفلة ... لم تزد عن أمس إلا أصبعا
قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

وأنا على اتم الاستعداد أن أمكث عمرى كله أستمع الى هذا الشعر وخاصة البيت الأخير . وما أحب إلى أن يقف المسرح بل تكف الدنيا عن الدوران لأسمع المجنون وهو يقول :

منى النفس ليلى قربى من فمى ... كما لف منقاريهما غير دان
نذق قبلة لا يعرف السقم بعدها ... ولا الهم روحانا ولا الجسدان
فكل نعيم فى الحياة وغبطة ... على شفتينا حين يلتقيان
ويخفق قلبنا خفوقا كأنما ... مع القلب قلب فى الجوامح ثان
وكم قبلة ياليل فى ميعة الصبا ... وقبل الهوى ليست بذات معانى
أخذنا وأعطينا إذ البهم ترتعى ... وإذ نحن خلف البهم مستتران
ولم نك ندرى يوم ذلك ما الهوى ... ولا ما يعود القلب من خفقان

حيا الله الدكتور إسماعيل الصيفى وشكر له جهده وأتاح له من الوقت ما يكمل به بحثه عن بقية أعمال الشاعرين المسرحيين العربيين . . . . إنه سميع قريب .

وقد عادت العقرب . . .

طلعت الجريدة الكبرى باستطلاع قام به الصبى الذى يعمل بها ولو كان يعرف القراءة ولا أقول الكتابة لعرف أن كل الآراء التى استجلبها تؤيد ما أذهب إليه فقد أردت هذا الذى فعلوه تماما وهو آن يقولوا رأيهم فى هذه المعارك .

وبعد فإنى أعتذر عن الصبى إلى القراء فهو يحمل إسما أحمله ولكنه تربى فى عهد كانت الكارثة الكبرى فيه القضاء على القيم وتعليم الصغار كيف يتهجمون على من يكبرونهم سنا على الأقل وإنى أطمئن من يملأ نفوسهم الألم لما يرونه من عربدة هذا الفتى أنه من قلة قليلة سقطت عندها القيم تماما ولم تعد إليها بعد مايو . وأطمئنهم أيضا أننى لن أعود إلى العفن الذى انداح فيه مهما يحاول هو أو جريدته على السواء ؟

●●

ما بال أقوام لا يدركون ماذا يعنى لقب كاتب . . أقرأ كتابا عظيما للعالم الجليل الشيخ عبد العزيز عيسى . . وإنى لأعلم أنك ستعجب كيف اتصلت الجملة الأولى بالجملة الثانية وأنك ستسال . . وأين أنت من قولك لقب كاتب إلى قفزتك العجيبة حيث كتاب تقرأه لعالم دينى جليل . . . . وأعلم أنك ربما لم تستطع أن تصبر نفسك بعض حين ليتصل ما انفصل ويستبين ما غمض ويتضح ما استبهم .

كتاب الشيخ الجليل كتبه وهو شاب يافع والكتاب من أمتع ما قرأت وقد تفضل مولانا الشيخ فأهداه إلىَّ بغير إهداء إستحياء منه أن يكون الكتاب الذى كتبه وهو فى ميعة الشباب غير جدير بالقراءة اليوم وخاصة وقد سلك الفتى بعد ذلك طريقا غير طريق البحث الأدبى وأخذ سمقة الموفق الى الشريعة السمحاء يتعلمها ويعلمها وينتفع بها وينفع . . . ولو كان مولانا الدكتور يقرأ ما نفجع به من بحوث يتبجح بها أصحابها ويشمخون ويدلى بها كتابها وتميل رقابهم كبرا لا كبرياء وتتصاعد أنوفهم فى أنفة العلماء ولو درءوا الحق عن أنفسهم لأدركوا أنهم علماء فى الجهل وفى التكبر وفى التشامخ وفى تصغير الخدود ولكنهم على أية صورة من الصور ليسوا فى العلم علماء . .

ولو كان مولانا الدكتور يقرأ لهؤلاء وحشاه أن يفعل ـ لاعتزّ بكتابه العظيم ولعلم أن ما كتبه كان فى الأدب علما . . وعلما عميقا يستحق عليه كل إجلال وإكبار . .

ويتادى بى هذا الحديث عن الصلة بين لغة القرآن الكريم واللغة العربية وكيف ينبغى للأجلاء من علماء الدين أن يكونوا أئمة فى لغة القرآن ، وحسبنا أن نذكر الأئمة الأربعة وتلاميذهم المشاهير وكيف كانوا جميعا يهتمون باللفظ العربى ويتغلغلون إلى أبعد أعماقه حتى إذا جلسوا للفتيا كانوا على وعى بلغة المعجزة الوحيدة الباقية من معجزات السماء التى أنعم الله بها على أنبيائه .

وإنى لذاكر فى هذه العجالة التى أكتبها بعض أبيات مما اختاره واستحسنه الشيخ عبد العزيز عيسى لتكون معى شاهدا على رهافة حسته الأدبى ورقة مشاعره الفنية وإدراكه الواعى بموسيقى اللفظ والبيت ... إقرأ معى ما اختار ليتمثل به من شعر عمرو بن الحارث الجرهمىّ ...

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العوائر

واقرأ ما استشهد به من شعر

أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

ثم يختار لك ثلاثة ابيات من أروع ما قرأت فى الشعر العربى وفى تحرج العالم الثبت لا يقطع ان صاحبها هارون الرشيد وإنما يكتفى بالقول بأنها نسبت إليه ... تقول الأبيات

ملك الثلاث الانسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها ... واطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز سلطانى

ويمضى الأديب العالم فى حسن اختياره من أبيات إلى أبيات ، فتحار أيها تختار وأيها تدع ، إلا أننى لن أحرمك من أبيات أستدل بها على أن الأندلسيين من الشعراء كانوا يحاولون التجديد دون اسراف فى التقليد ، فيروى لك :

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا ... وقد علموا أنى المشوق المتيم
سروا ونجوم الليل زهر طوالع ... على أنهم بالليل للناس أنجم
وأخفوا على ذاك المطايا مسيرهم ... فنم عليهم فى الظلام التبسم

ثم يمضى الأستاذ الكبير بعد ذلك عارضا لمختلف الفنون الأدبية فى الأندلس العربية فيقدم إليك أمثلة من شتى ضروب الأدب فيتكلم عن الخطابة فى الأندلس ودواعيها وأساليبها ثم يقدم إليك بحثا رائعا عن تطورها من الإطالة إلى الأحكام ومن الشقشقة اللفظية إلى استعمال الكلمة المؤدية مع حفاظ على الموسيقى الأسلوبية والعربية فى وقت معا ثم ينتقل بعد ذلك إلى الكتابة فى الأندلس ويقدم منها أمثلة صادقة كل الصدق مع ما يذهب إليه من تطور حتى إذا بلغ الشعر فى الأندلس عرض لأغراضه

جميعا ثم هو فى دراية واعية ونظرة متعمقة فاحصة يغوص إلى أقصى أبعاد هذا الشعر مبديا رأيه فى لفظه ومبناه ومعناه وموسيقاه وقافيته حتى يصل بك بعد ذلك عن عوامل الرقى بالأدب الأندلسى وعناية الخلفاء والملوك بالأدب . . .

وبعد فعودا على بدء

إن لقب الكاتب التى يحملها مولانا الجليل الوزير السابق الشيخ عبد العزيز عيسى هى التى أتاحت له أن يصل إلى ما وصل إليه من مكانة وعلم . . لأنه كاتب ولأنه عرف سر الكلمة العربية إستطاع أن يصل فى علمه الدينى إلى المكانة الرفيعة التى يتبوأها فى العالم العربى والإسلامى جميعا . ولو جهل سر هذه الكلمة لأصبح عماد الدين الأساسى مستبهما عليه . ولو جهل سر الكلمة لما درى كيف يشرح ما حصله من علم باذخ بلغة يفهمها عنه الناس .

فلا خير فى عالم دين لا يعرف سر الكلمة العربية لأنه بإذن الله - لن يفهم القرآن . . ولاخير فى عالم فهم ولم يستطع أن يفهم الآخرين ، وبهذا الكتاب الذى أشرف بتقديمه اليوم إليك عرفنا السر الحقيقى الذى جعل مولانا الشيخ عبد العزيز عيسى هو هذا الصرح الشامخ فى ميدان الله ودينه وميدان شرف الأساتذة وكرامة العلماء .

أما الخطاب الأول فقادم إلىَّ من الأستاذ محمد عبد الوهاب حسن - المركز الثقافى الجامعى القاهرة ص . ب ٢١١٩ القاهرة .

وفى الخطاب تعريض بى وبالأمانة التى يفرضها على العلم . وواضح أن الأستاذ كان يريدنى أن أجيب خطابا بخطاب فصندوق البريد لا يصلح لغير البريد .

ولكننى أنشر فحوى خطابه لأنه خطاب يحمل المعارضة . ولو لم أكن واثقا من أن معارضته لن تعرضه لأى أذى لما نشرت خطابه واعتبره سرا بين قارىء وكاتب . ولكن الأمر ليس كذلك فقد تكلم فى قضية عامة تكلمت أنا فيها فأصبح من حق القراء أن يشاركونى ويشاركوه فيما ذهب إليه كل منا ثم أنا بعد ذلك أفدى حريته وسلامته بدمى وجسمى وكل ما أملك لا شجاعة منى ولكن لثقة راسخة فى نفسى بالعدل الذى أصبحنا نعيش فيه وبنفس هذه الثقة الراسخة كتب هو خطابه ، وأسفر عن اسمه وما عليه فى ذلك من حرج فالأصل أن يكون الإنسان حرا يبدى ما يراه من رأى .

لن أحاول أن أصحح للأستاذ الكاتب الأخطاء اللغوية والنحوية التى وقع فيها فما أدعى أنه كاتب ولا هو ادعى أنه عالم .

ولن أحاول أيضا أن أساجله بأسلوب المهاجمة الذى ارتضاه لنفسه فما عليه فى ذلك بأس ما دام يريد أن يستعرض قدرته على إختيار الأسلوب البعيد عن آداب النقاش وميدان الهجوم والبدء به والرد على الهجوم أمر الغالب فيه شر من المغلوب وأنا لا ألجأ إليه إلا مضطرا وهو أمر إضطررت إليه كثيرا فمرنت عليه بصورة أشفق معها أن أساجل صاحب الخطاب خشية ان يمتنع بعد ذلك عن إبداء رأيه أترك هذا جميعا جانبا وأساله وأرجوه أن يجيب .

هل يرى الآستاذ أن المعارضة هى « لا » فقط أم هى محاولة لإبداء الرأى الآخر لتأخذ الأغلبية بالرأى الأحسن . وإذا كان المعارض مقتنعا أنه على غير حق أيكون أمينا إذا عارض لوجه المعارضة فقط وليحاول أن يبدو أمام الناس جريئا وهل يرى الأستاذ أن هناك حكما فى العالم مهمايكن اسمه يمكن أن يصلح بغير قانون وهل يرى أن وجود القانون ديكتاتورية أم أن عدم وجوده هو الفوضى والرجوع بالبشرية إلى عصر ما قبل التاريخ . وأنت يا سيدى زعمت أننى أدعو إلى الديكتاتورية فيما كتبت ويبدو يا سيدى أنك لم تقرأ لى من قبل شيئا بل إنك حتى لم تشاهد ما ظهر عن أعمالى من أفلام فى السينما أو التليفزيون . ولاتغريب عليك فى هذا . ولكننى كنت أرجو على كل حال أن تبين لى فيما كتبت بمقالى الأخير ما أدعو به إلى الديكتاتورية إلا إذا كانت دعوتى إلى المعارضة الشريفة دعوة إلى الديكتاتورية وكنت أرجو أن تجيب على التساؤلات التى بدأت بها مقالى وكنت أرجو ولا أزال أرجو أن تقرأ التاريخ ياسيدى وأن تدرس الديمقراطية يا سيدى وكنت أرجو ولا أزال أن أذكر عهدا لم يمر عليه إلا عشر سنوات ونصف كان المصريون فيه يرتعدون إذا فكروا أن يفكروا .

وأنتهز هذه الفرصة لأرد على الخطاب الاخر الذى جاءنى من الإسكندرية لكاتب شاء أن يخفى إسمه ، وأشهد أن كاتبه صاحب أسلوب رفيع وقلم عليم باللغة واللفظ وأشهد أن كاتبه أديب من الطبقة الأولى . وانى أوافقه على نقده ولكننا يا سيدى لا نحاسب عهدا بأكمله بأخطاء بعض أفراد . فأنا يا سيدى فى واد وأنت فى واد . لاشك أن بيننا من يستحق العقاب ومن يستحق هذه السخرية القادرة التى تناولته بها

ولكن أيعمينا هذا عن أمن أظلنا بعد رعب وعن سلام وافانا بعد حرب قاتلة صلبناها فى أبداننا وفى نفوسنا وعن ثقة من العالم بنا بعد بغض وكراهية واحتقار .

إن شأننا مع المسيء أن نتهمه بشرط واحد أن نملك عليه الدليل وما الدليل بعزيز ولا هو صعب المنال . وبعد سيدى فإن حطام عشرين عاما لايمكن أن يزال إلا فى سنوات أربعين على الأقل فما أيسر أن تهدم وما أصعب أن تبنى . اللهم هل أجبت . اللهم فاشهد أننى أصدق ما أكون مع نفسى وإليك وحدك سبحانك أترك الحكم علىَّ وحسبى عظيم عدلك أو فحسبى كريم غفرانك .

●●

حين يرتفع الإنسان إلى مسابح السماء وترف له أجنحة كأجنحة الملائكة يحقق جانبا فى الإنسانية أصبح معطلا غائبا عن الحياة . . وقديما قيل إن الحيوان صنع من الشهوة وإن الملائكة صيغت من الروح وإن الإنسان ركب من كليهما ، فمن غلبت شهوته على روحه كان شرا من الحيوان ومن غلبت روحه على شهوته كان خيرا من الملائكة .

ومنذ عهد ليس قريبا اتهم أحد الضباط بأنه يتآمر على قلب نظام الحكم وزج به إلى المعتقل دون محاكمة وما لبث أن جاءه من جاءه .

- إعتذر يفرج عنك فى الحال
- أعتذر عن ماذا ؟
- عما فعلت
- فإذا كنت لم أفعل شيئا
- إعتذر والسلام
- إذا اعتذرت فقد اعترفت أنى صنعت شيئا
- أنت تريد أن تبقى فى السجن
- أنا لا أريد أن أعتذر عن شىء لم أصنعه
- حتى لو أدى ذلك إلى أن تبقى فى السجن سنين لا تعرف لها عددا
- أن أبقى فى السجن وأنا مرتاح الضمير خير من أن أكون خارج السجن وقد صنعت شيئا لا يرتاح إليه ضميرى .
- محاولة بطولة
- بل محاولة شعور بالرضا عن النفس . إن نفسى إذا أغضبتها أصبح عذابها لى أكبر من أى سجن أو قيد . إن نفسى هذه لا تتركنى فى صباح أو مساء وستظل تنغص على عيشى جميعا فإرضاؤها عندى خير من تركى للسجن ألف مرة .

ورفض الضابط أن يعتذر وظل فى المعتقل الى أن فتحت جميع المعتقلات . ولو كان هذا الضابط صنع هذا فقط ما اهتممت بهذا الحديث عنه . فالذى

يرضي ضميره ليس ملاكا وإنما هو إنسان يقارن بين حرية النفس والحرية من القيود ويختار حرية النفس .

ولكن الذى وقع لهذا الضابط فى السجن هو الذى جعلنى أقدم قصته . مرت على السجين فترة فإذا هم يأتون له بزميل فى السجن . وتقوم بينهما صلة أقرب ما تكون بصلة الإبن البار بالأب صاحب المثل الرفيعة .

أما الإبن فمهندس فى بواكير عمره وأما الأب فهو من عرفت . أما التهمة التى دخل بها المهندس إلى السجن فليس لها أى أهمية فقد لاتكون هناك تهمة على الأطلاق .

أعجب الضابط بالمهندس وأحبه ، وأحب المهندس الضابط حتى كان يوم سمعا فيه أن المهندس أوشك على الخروج من السجن فتقدم المهندس إلى الضابط .

- لقد عاشرتنى وعرفتنى كما يعرف الأب إبنه
- وأحببتك أيضا كما يحب الأب إبنه
- وإنى اريد لهذه العلاقة أن تتوطد
- ليس من سبيل . فليس هناك علاقة أوطد من علاقة الأب بابنه
- أن لك إبنة وأريد أن أخطبها
- لكم أحب ذلك
- لقد عرفتها وعرفتنى من زيارتها لك وما أظنها ترفضنى
- إسمع إن ابنتى فى الجامعة
- أعرف ذلك
- أن أردت أن تقدم لى معروفا فاخطب ابنة أختى
- أخطبها
- إنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولن تجد شخصا يكرمها فكن أنت هذا الشخص .
- سأكون

وهكذا إرتفع الإنسان إلى مسابح الملائكة . كلاهما كان عظيما أما الأب والخال فقد آثر مصلحة إبنة أخته على مصلحة إبنته وفضل أن يخطب الشاب الذى عرفه وأحبه وأعجب به والذى يستطيع أن يطمئن على فلذة كبده إذا هى عاشت

فى حماه إبنة أخته وليس إبنته . وأما الشاب فقد قبل فى سبيل الصداقة والإعجاب بالمثل الرفيعة التى رآها فى الضابط أن يخطب فتاة كل ما يعرفه عنها أنها تجهل القراءة والكتابة وهو من هو علما وثقافة .

وخرج المهندس من السجن وخطب إبنة أخت الضابط ولم تنته القصة .

بدأ المهندس يعلم الفتاة . ثم انتظمت فى الدراسة . واليوم المهندس فى بعثة فى أمريكا والفتاة معه تعد نفسها لتنال الدكتوراه فى الأدب . إن السماء دائما تحب الملائكة .

●●

لم يتسع الوقت

حين تقرر أن يسافر إلى السعودية لأعمال الشركة البولندية التي يعمل بها لم يفكر في شيء آخر إلا أن يزور الأماكن المقدسة ويطوف حول الكعبة المكرمة ويقف أمام شباك النبي . . ولم يكن توقه إلى العمرة عن أي شعور بالإيمان بل كان كل ما يفكر فيه هو تحدى هذه الرواسب التي تسيطر على أفكار المسلمين والتي يرى أن انصياعهم لها ما هو إلا تعلق ببقايا الأبوة وعهود الصبا والطفولة وكان واثقا أن الإنسان المتحضر لا يمكن أن يؤمن بفكرة الدين والتعلق بأوهامه . .

وهو واثق من نفسه وأفكاره قد ازداد بها وثوقا حين اختار المذهب الشيوعي مذهبا وانسلك في قالبه وواجه كل ما واجهه أصحاب المذهب من عقاب كما نال كل ما ناله هؤلاء من ثواب .

والوظيفة التي يرتع فيها الآن ماهي إلا نهلة من فيض البحر الذي انسكب على أبناء مذهبه فما كانت الشركة البولندية لتعينه لو لم يكن شيوعيا غارقا في الشيوعية وهب لها نفسه والحادة ويقدم إليها فقره لترده عليه غنى ووفرة ورفاهية ورخاء .

وقد استطاعت الشيوعية أن توفر له مالم تستطع الرأسمالية أن توفره لأحد من أمثاله فسيارته كاديلاك من آخر طراز ، نعم السيارة رأسمالية ولكن مادام الشيوعي قد استخدمها فإن سيارته هذه الكاديلاك بالذات تصبح شيوعية بالتخصيص .

ومنزله من أفخم منازل الزمالك وأثاث بيته غالي الثمن غلاء فاحشا ولا يهم من بعد ان كان يتسم بالذوق السليم أو لا يتسم فكل ما يهمه أن يكون غالي الثمن .

أما ملابسه فهي في الحق مضحكة فإنه يبدو مصابا بعمى الألوان فتراها تختلط على جسمه كقصة غير معقولة أو كموسيقى صاخبة يعزفها قوم لا قائد لهم ولا نوتة

تجمع بينهم . ولكن كل وحدة من وحدات ملابسه ثمينة فى ذاتها واضح أنه بذل فيها المال الكثير . فيما يركب أو يسكن أو يلبس .

وكان يتيه دائما بين الناس بأنه لايمد يده لأى دولة شيوعية وأنه شيوعى بالمبدأ لا بالجيب وهو بطبيعة الحال يرى وظيفته هذه التى يشغلها والتى تسكب عليه المال حقا طبيعيا له لا صلة لها بالشيوعية .

هو يرى ذلك أمام الناس حين يخاطبهم ولكنه فى دخيلة نفسه يعرف تماما أنه لو لم يكن شيوعيا لما زاد دخله على دخل زملائه الذين تخرجوا معه والذين يعجز مرتبهم أن يطاول عشر مرتبه .

هو واثق كل الوثوق أن ذلك الخير الذى يمرح فيه سببه الوحيد الذى لاسبب غيره أنه شيوعى ويعلم أن الكلية التى تخرج فيها قد منحت الحياة لآلاف من أمثاله أغلبهم أكثر منه علما ودراية بهذا العمل وإتقانا له .

ولكن الشيوعيين وحدهم من هؤلاء الآلاف هم الذين يستطيعون أن ينالوا ما تهبه له الحياة من حظوة . وأصحاب الجرأة فيهم هم الذى يستطيعون أن يواجهوا الناس إنهم لا يمدون يدهم لأى بلد أجنبى ، وهو من أصحاب الجرأة هؤلاء .

حين نزل إلى جدة قصد فندق الرياض حيث كانت شركته قد حجزت له حجرة فاخرة ذات غرفة ملحقة وتليفزيون . وبعد أن أودع الحجرة حقيبته ونظر إلى المرآة واطمأن على القصة غير المعقولة التى يضعها على نفسه نزل إلى بهو الفندق ينتظر أصحاب العمل الذى جاء من أجله .

ولكنه فوجىء بصديقه رفعت جالسا فى البهو . . .

- أنت . . أنت فى السعودية

- عمل

- فقط ؟

- طبعا سأعمل هذه العمرة التى تحكون عنها فى دينكم

- وأنت ؟ ألك دين آخر

- أنت تعرف

- فعلا . . أنت مسكين . . أنت بلا دين على الإطلاق

- أحمد الله على ذلك

- بل احمد الشيطان إن شئت

- المهم أنت ماذا تفعل هنا

- أنا جئت من أجل هذه العمرة التى نؤمن بها نحن المسلمين

- وهل قمت بالعمرة .

ـ ليس بعد : أنا على موعد مع الأصدقاء أن نقوم بها
ـ أذهب معكم
ـ ألا تخاف
ـ أخاف .
ـ ألا تخاف أن تؤمن . . إن للكعبة روعة وإن لقبر الرسول ضياء لا تراه العين وإنما ينفذ إلى القلب وإلى حنايا المشاعر فيرج الإنسان رجا عميقا وترى روحك حلقت إلى عليين تطوف مع النبى فى رحلة آخر دين أرسل إلى الناس وتراه معذبا فى سبيل عقيدته ثم تراه فى خطبة الوداع أتم دينه وبشرنا أن الله رضى لنا الإسلام دينا يخطب فى أصحاب حجه إن دماءكم وأموالكم حرام بينكم حرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى عامكم هذا .

ويهتف بهم وهو يختم رسالته إلى البشرية اللهم هل بلغت ويصيحون نعم ويهتف مرة أخرى اللهم فاشهد .

أتحتمل هذا جميعه .
ـ قد ـ لايحتمله السذج من أمثالك أما أنا فأحتمله . إنى واثق
ـ لكم أخشى أن أجدك أكثر سذاجة منى ومن أصحابى المؤمنين
ـ لقد جربت نفسى مع الإيمان
ـ حقا
ـ ووجدت نفسى غير قابل للإيمان على الإطلاق
ـ هل أنت واثق
ـ كل الثقة
ـ وكيف عرفت
ـ تعرضت لمحنة فلم أذكر الله
ـ مانوع المحنة
ـ هل يهمك هذا
ـ كل الأهمية

كنت راكبا سيارتى وغفت عينى لأجد نفسى غائصا بسيارتى فى الماء وحاولت أن افتح باب السيارة فاستعصى على ورحت أحاول وأنفاسى تختنق بى تشدنى إلى الموت فى جذب آسر عنيف ولم أجد أمامى إلا أن حاول الخروج من شباك السيارة فرحت أدفع جسمى . . خلالها دفعا ثم لم ادر بعد ذلك من أمر نفسى شيئا . .
ـ أنقذت وأنت مغمى عليك

ـ نعم
ـ ومتى كنت تريد أن تذكر الله
إننا نحن المؤمنين نذكر الله حين نصبح عاجزين فإن الله يأمرنا أن ندبر نحن أمر أنفسنا ونتوكل عليه ولا نتواكل
وقد كنت أنت مشغولا بإنقاذ نفسك وحين جاءت اللحظة التى يجب أن تقول فيها أشد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله كنت مغمى علَيك . يا صديقى إن هذه التجربة لا تصلح دليلا تطمئن إليه أنك محصن ضد الإيمان
ـ أترى ذلك
ـ لا شك فى ذلك . . أتأتى معنا
ـ لا سأذهب وحدى
وأثار الحديث الكثير من الوساوس فى ضميره . ما مصيرى إذا اهتزت مشاعرى من الإيمان واستيقظت من سباتها تلك البذرة القديمة التى ألقى بها فى نفسى ابواى وسقتها البيئة والتقاليد وتاريخ أجدادى الطويل ذلك فى ظل العقيدة .
وما البأس أن أوهن وأظل فى عملى . . هراء أن عملى متوقف على إلحادى ولماذا ألقى بنفسى إلى صراع أنا فى غنى عنه ومالى لا أبعد مشاعرى عن هذا الامتحان قد أجوزه وأظل على إلحادى أو قد أرسب وأعود إلى الإيمان ويومئذ وداعا للكاديلاك . والملابس الأنيقة والعيش السعيد .
وبعد أيام إلتقى الصديقان فى بهو الفندق
ـ أراك تنهى إقامتك بالفندق
ـ عائد إلى بيتى
ـ هل أديت العمرة
ـ لم يتسع الوقت

●●

---------------- اللغــة فــى القصــة والــروايــة
------------- رؤيـــة وليـــست بحثـــا

كانت اللغة العربية قبل ظهور عمالقة الأدب الحديث الوسيلة والغاية وكان الكتّاب يضعون جمال اللغة فى المقام الأول ثم ليس يهم من بعد إن كانوا قد قالوا شيئا فيه بحث وأصالة أو لم يقولوا ، فحين جاء رعيل النهضة بعباقرته الكبار تغيرت موازين الأدب وأصبحت اللغة أداة لا غاية ولكنهم مع ذلك حرصوا على جمالها وسلامتها .

فطه حسين الذى أدخل أصول النقد الحديث فى الأدب العربى والذى أصل الدراسات الأدبية على القواعد الفلسفية الغربية والذى كتب فى كل ألوان الرواية كان يكتب بأسلوب موسيقى رفيع وفى ألفاظ منتقاة شريفة تقع من الأذن والنفس أحسن موقع . والعقاد ذلك العملاق السامق كان حريصا فى كتابته أن تؤدى كل لفظة المعنى المطلوب منها فى تحديد واضح وكأنها ثوب مفصل على المعنى أدق تفصيل وأحسنه فلا هى واسعة فضفاضة تلم فى طواياها معانى أخرى ولاهى ضيقة حرجة تخنق المعنى وتعوقه عن الانطلاق . والغريب أنه نهج هذا النهج فى الشعر أيضا جامعا فى شعره بين العقل وتأمله وبين المشاعر وسموها .

وكتب هيكل روائعه الخالدة فإذا هو يطلق أسلوبه سهلا ميسورا جازيا فى نقاء رقراق وفى عفة شفيفة بلورية .

واهتم أستاذنا توفيق الحكيم بقضية اللغة اهتماما كبيرا فكتب مسرحية بتلك اللغة الغريبة التى يظنها القارىء عامية وهى عربية وعمد إلى تجارب خاصة فى الحوار اللغوى مثل هذا النهج .

الذى انتهجه فى مسرحية الورطة . وهذه اللغة يظنها السذج سهلة ميسرة لكل من يمسك القلم بينما هى فى الحقيقة من أصعب أنواع الأساليب وأشدها عنتا وارهاقا للكاتب ولايستطيع الكاتب أن يكتب بها إذا لم يكن على ثروة لغوية باذخة .

وكذلك اهتم تيمور بقضية اللغة بطريق آخر فمع أنه بدأ حياته راصدا قلمه للقصة دون كبير عناية بلغتها حتى لقد كتب بعض رواياته باللغة العامية إذا هو

يعود إلى اللغة الأصلية فى إصرار عليها وتمسك بها ويزداد حرصه على اللغة العربية السليمة فيتوفر على جميع ألفاظ الحضارة محاولا أن يجعل لكل جديد من مخترعات العلم إسما عربيا . وأذكر أننى كثيرا ماناقشته فى هذا الجهد وكانت حجتى عنده أن هذه المخترعات لو وجدت فى الجاهلية لظلت باسمها الذى اخترعت به والدليل على ذلك الألفاظ الفارسية الكثيرة التى دخلت اللغة العربية وأصبحت جزءا منها مثل سندس واستبرق ومثل الفنجان والكنكة والأرابزين والفستان والستان ولكنه لم يكن ليقتنع بهذه الحجة وظل يوالى جهده .

ولعله من المناسب أن أذكر هنا حوارا دار بينى وبين أحد القراء حين كتبت مرة أن القرآن إستعمل ألفاظا فارسية الأصل فاذا بخطاب يصل إلى فيه أن القرآن عربى بنص القرآن وذكرنى بآيات كثيرة منها الآية الكريمة السامقة « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ولقد فات صاحب الخطاب أننى لم أقصد مطلقا القول إن القرآن غير عربى ـ لاقدر الله . . إنما اقصد أن هذه الألفاظ الفارسية التى دخلت إلى اللغة العربية أصبحت عربية وإن كانت من أصول أعجمية شأنها شأن الناس فى كل أنحاء العالم .

وحتى نعود إلى ما كنا بصدده نكمل الكلام عن هذا الرعيل وصلته باللغة العربية ونترك مصر فنجد الأدباء فى أنحاء الوطن العربى جميعا نهجوا هذا المنهج وحسبك أن تذكر ميخائيل نعيمة وإسعاف النشاشيبى وجبران خليل جبران . فهذا الرعيل إذن حافظ على اللغة الرائعة إنما لم يجعلها هدفا . . كانت وسيلة ولكن هذا لم يمنعه من تجميل الوسيلة فبها يصل إلى حيث يجب أن يصل من نفس قارئه وعقله وقلبه .

وجاء الجيل الثانى وحاول أن يحافظ على اللغة ولكن محاولته لم تكن فى جمال جيل الرواد وأن كنا لانستطيع أن ننسى محمد عبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن الشرقاوى كما لانستطيع أبدا أن نغفل اللغة الجديدة التى ابتكرها العملاق نجيب محفوظ للرواية فقد جعل الأسلوب العربى يخدم الرواية بحيث يماشيها مماشاة اللون للون فهو يصف حينا فإذا هو يختار أرق اللفظ وأحلاه لأن مايصفه حلو رقيق أو يصف حينا آخر فإذا الأسلوب قاتم لا شفافية فيه لان مايسفه قاتم بلا شفافية وهكذا أكمل نجيب فضله على الرواية العربية لا فى البناء وإنما أيضا بالأسلوب الذى يقيم به هذا البناء .

وجاء الجيل الثالث الذى أجد نفسي واحدا منه وما أحسب أننى سأكون متجنيا إذا قلت إن بعض جيلنا إهتم باللغة وعناها وكانت تشكل عنده جزءا عضويا من العمل الفنى ولعل فتحى غانم يمثل هذا الاتجاه أحسن تمثيل ولكن يؤسفنى كل الأسف أن بعض كتاب جيلى هذا وقفوا من اللغة موقفا عدائيا معلنين أنهم فنانون وليسوا معلمى لغة وكأنما الفن الأدبى يمشى فى طريق بعيد عن طريق اللغة أو كأنما الفن الأدبى شيء مجرد بلا مقومات من أسلوب قوامه اللغة ومن بناء عماده اللغة . فقد تكون اللغة علما ولكنه علم لا يغنى الأديب عن أدوات العزف فبغيرها لن يستقيم له لحن ولما كان الإنسان بطبيعته يميل إلى الأسهل فقد اختار كثير من شباب الجيل الرابع أن يغمضوا أعينهم عن اللغة تماما فإذا بقصصهم تصبح لقيطة لاتعرف لها أصلا تنسب إليه .

وقد يختار بعض منهم تلك الجمل القصيرة ليميز بها قصته . وهذا الأسلوب نفسه لاعيب فيه ولاضير عليه فهو يتمثل فى جمل حاسمة حادة باترة تجعل السرد حيا تتواكب فيه الومضات السريعة لتكون آخر الأمر ضياء .

ولكن هذا الأسلوب يحتاج إلى ثراء لفظى كبير وحسبك أن تقرأ نجيب محفوظ وهو يستعمل هذا الأسلوب فى بعض قصصه القصيرة لتعرف أن هذا الأسلوب يستطيع أن يكون شامخا ضخما . فاللفظة فيه تؤدى وظيفة جملة أو لعلها أحيانا تؤدى وظائف جمل كثيرة ولن يتأتى هذا لكاتب إلا إذا كانت ثروته اللغوية واللفظية ضخمة كما ينبغى له ان يكون حسه اللغوى مكملا شفافا يدرك أعماق المعنى ن الكلمة كما يدرك كل الاشعاعات التى تصدر عن اللفظ .

فلا ضير على جيل الشباب أن يستعمل هذا الأسلوب وإنما لابد له أن يوفر له أمرين الأمر الأول أن تكون القصة التى تروى محتملة لهذا الأسلوب متوافقة مع حزم الجمل وحدتها والأمر الثانى أن يكون الكاتب مدركا لموقع الكلمة التى يستعملها وأعماقها .

وإن كان بعض النقاد الكبار قد بذلوا غاية جهدهم ليلغوا الأدب العربى ويقيموا بدلا منه مسخا من أدب لا نعرف له أصلا يبصبص للأدب الإنجليزى ويتقافز على الأدب الفرنسى ويتكىء على الأدب السوفيتى ويرفض الساحة العربية فإننا نعذر بعض الشباب الذين تابعوا المزمار الأجنبى متابعة الفيران إلى بركة يغرقون فيها ولكن تمهيد العذر لهم لايرفع عن كاهلهم عبء القيام بواجبهم كأدباء عرب لامكان لهم إلا فى الأدب العربى . لهم أن ينظروا إلى كل آداب العالم

ولكن ليفيدوا بها آدبهم ولينشئوا آخر الأمر أدبا عربيا خالصا فى لغته وفى شكله وفى مضمونه جميعا . فهم لن يبلغوا فى أى أدب آخر مايقدر لهم أن يبلغوه فى أدبهم فلكل أدب كتاب والعالم فى غير حاجة إلى أجانب ليقتحموا عليهم آدابهم والعالم حين يقرأ مايترجم لنا إنما يقرأنا على أننا كتاب مصريون فإن وسعوا حولنا الوطن فعلى أننا كتاب عرب هكذا خلقنا وبهذا الذى خلقنا عليه نحن معتزون ولانريد عنه منصرفا ولانبغى عنه حولا والحمد لله على هذا غاية الحمد وأكمله .

●●

هناك أبيات تكنزها الحافظة وتلقى بها إلى زوايا النسيان لاتظهر على سطح الفكر أو ينعشها من مرقدها ما نشهده حولنا . فإذا البيت أو الأبيات تقفز فارضة نفسها عليك لاتستطيع منها فكاكا ولا عنها منصرفا .

والبيت الذى يلح علىَّ فى هذه الأيام وربما جهلت سبب إلحاحه هو قول الشاعر القديم :

لا يبلـغ العـالـم مـن الجـاهـل
مـايبلـغ الجـاهـل مـن نفسـه

ويلـح علىَّ بيـت آخـر للخـالـد المتنبـى :

وتكـبـر فـى عيـن الصغيـر صغـارهـا
وتصغـر فـى عيـن العظيـم العظـائـم

ومرة أخرى لا أدرى سبب إلحاحه . إنما هى أبيات تتقدم إلى الحافظة الواعية ملبية لنداء خفى وكأنما للأبيات عقل وحس وشعور وكأنما تدرك وهى فى غيابة النسيان أن صاحبها الذى أكرمها يحفظها فى حاجة إليها فهى تقدم نفسها إليه فى طواعية ووفاء . فإن اللغة العربية وفاء لايعرفه الناس فى مألوف حياتهم فهى تحب من يحبها وتكرم من يكرمها وتكشف عن أسرارها لمن تحس فى قلبه ومشاعره خفقا بجمالها ووجيبا برنين ألفاظها وموسيقى جملها . وما الشعر إلا شجرة من جنة اللغة الباسقة ودوحة من روضها المتناف الوريف .

أتكون هذه الأبيات قدمت نفسها إلىَّ إجابة لما أراه حولى أم تكون قد جاشت إلى قلمى لما أراه فى العالم العربى فهل كان إحد يستطيع أن يصيب أبناء العراق بمثل مايصيبهم به زعيمهم الأخرق أو كان أحد يستطيع أن يصيب أبناء فارس المسلمين بمثل مايصيبهم به زعيمهم الأخرق والزعيمان كلاهما أكان أحد يستطيع أن ينال منهما بمثل ماينالان هما من نفسيهما والأهبل الآخر فى ليبيا أكان أحد يستطيع أن يشوه صورته بمثل البشاعة التى يصنعها هو بصورة نفسه وهكذا الأمر مع الأسد الذى أعتقد أن نصيبه من اسمه ليس نصيب الأسد على أية حال ولا

حتى نصيب الاشبال ونجهد إذا مشينا وراء الآخرين . أليس كلهم يصدق عليهم البيتان فى صدر هذا المقال . لقد جنى عليهم جهلهم بما لايستطيع أن يجنيه عليهم أحد . والجهل كلمة من أكثر الكلمات ثراء فى اللغة العربية فهى لا تفيد أن صاحبها لايعرف فقط وإنما تفيد أيضا أن صاحبها أحمق معتد . يقول عمرو بن كلثوم .

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويذكرنى ماتعانيه إيران، بالبيت الأشهر

رب يوم بكيت فيه فلما   صرت فى غيره بكيت عليه

ويذكرنى بقصة حدثت فى بيتنا حين كان قريبنا الشاعر توفيق يبيت مع صديق أبى فى حجرة واحدة وكان الصديق كثير الجلبة فى ليله فطلب الشاعر إلى أبى أن يأمر له بمكان آخر يبيت فيه فتم له ما أراد وإذا هو يرسل إلى أبى فى باكر الصباح هذين البيتين اللذين اشتهرا فى محيط الأسرة والأصدقاء يسخرون بهما من حامد الذى صاحب توفيق فى حجرته الأخرى التى هرب إليها .

نحيـــت عـــنى حســـينـــا   فـجـــاء حـــامـــد ألعن

مـــازال يصخـــب حتـــى   ســـمعـــت صوت المـــؤذن

وتذكرنى العراق ومايعانيه شعبها ببيت لشاعرنا عزيز أباظة على لسان شعب بغداد نفسه فى خالدته العباسة :

فطيعـــك ذل وأســـتخـــزى   فـــأدرك أيهـــا الـــراعـــى

أبيات من الشعر قفز بعضها الى عقلى قبل أن أشرع فى الكتابة وقفز بعضها الآخر إلى سن القلم وأنا أكتب ورحت أرويها لك ترى هل وافتنى لهذه الأسباب التى جاءت فى هذه الكلمة أم لأسباب أخرى من يدرى . . ومتى عرفت نفسها النفس . . هيهات . . هيهات لها أن تعرف وهيهات لى .

●●

هيبـــة الكتـــاب

تأتى الفكرة إلى الكاتب وتروق له ولا يمعن فيها النظر ولايمعن فيها الفكر وإنما يسارع إلى القلم ويكتبها وقد يظن أنه جاء بما لم يأت به الأوائل ولا الأواخر . أو قد يتهاون ويظن أنها مجرد كلمة يقرأها القارىء فى بعض من دقائق ثم يرمى بها دبر نفسه فكأنه ماقرأ شيئا .

ويل للكاتب إن كان هذا دأبه فإن القارىء يرصد على كاتبه كل كلمة يقولها وقد يطالع القارىء كاتبه بكلمة قالها منذ سنوات وسنوات .

والكاتب لايستطيع أن يذكر كل ماكتبه وخاصة إذا كان كاتبا منتظما فى جريدة أو مجلة . لا عاصم للكاتب ألا يناقض نفسه إلا أن يكون صادقا مع نفسه هذه فالنفس لاتتناقض قد يختلف بها الحال من الرضا إلى السخط ومن الإقبال إلى النفور ومن الإنشراح إلى الضيق ولكنها فى رضاها وسخطها وفى إقبالها ونفورها وفى انشراحها وضيقها تظل كما هى . لاتنهار مقوماتها ولاتتغير دعائمها ولاتختلف القيم الأساسية التى تتوطد على أطنابها معالمها واتجاهاتها .

والكاتب إنسان قسم الله له أن يكون مرسوم تعيينه صادرا من السماء وهو مرسوم من مادتين : المادة الأولى صادرة إلى الكاتب كن كاتبا فيكون . والمادة الثانية للقراء إقرأوا لهذا الكاتب فيقرأوا ولايكون الكاتب كاتبا إلا إذا اكتمل المرسوم بمادته الثانية تلك فليس هناك كاتب بلا قراء .

وقد كان الكتاب فى مصر قوما يستعينون على إقامة مكانتهم فى المجتمع بوظائف أخرى فمنهم من كان يعمل رئيسا لتحرير جريدة ومنهم من كان يعمل موظفا ويحرص على هذه الوظيفة ومنهم من بلغ كرسى الوزارة على سن قلمه ونال رتبة الباشوية بأدبه . ولكن كاتبا واحدا فى تاريخ مصر صمم أن تكون قيمة الكاتب فى مصر مستمدة من أنه يحمل لقب كاتب وفقط فما استعان فى بناء قيمته بوظيفة ولا سعى إلى رتبة وإن كانت الرتب والنياشين والأوسمة والقلائد قد سعت إليه . ذلك هو أستاذنا وأستاذ الجيل الذى سبقنا كبير كتاب العالم العربى اليوم توفيق الحكيم .

فكما أنشأ توفيق الحكيم المسرح العربي المصرى . أنشأ فى نفس الوقت القيمة السامقة للكاتب بما هو كتب فقط لا بما هو باشا ولابك ولا بما هو وزير أو نائب وزير أو وكيل وزارة .

وعلى نسقه مشى نجيب محفوظ ومشت الأجيال اللاحقة تستمد القيمة العليا لنفسها فى المجتمع بلقب كاتب فقط مدركين أنهم يحملون هذا اللقب بمرسوم صادر من فوق سبع سماوات لايلغيه إنسان ولايعوقه عن أن يكون حقيقة دامغة لا تقبل الجدل من سلطان مهما يكن شأنه ولا جماعة مهما تكن كافرة عادية على الحق ولا قوة فى الأرض بالغة ما بلغت هذه القوة من جبروت .

وقد مررنا بأزمات عسيرة . ووقف الكاتب الشريف ليكون الضياء الوحيد فى حالك الظلمات ولتكون كلمته نور الحق فى جانح الظلم وفى جوائح الليالى الداكنة السوداء . . بهؤلاء الكتاب ظل وجه مصر مشرقا فى طول البلاد العربية وعرضها بل وعلى اتساع العالم والمعمورة أجمع تعلن أن مصر الخالدة الباقية فيها الكلمة الشريفة وفيها من يستطيع دائما أن يقول الله اكبر على كل من طغى وتجبر فأنا لا أعرف وظيفة فى العالم تعدل أن يكون الإنسان كاتبا لأن كل وظيفة بها إنسان أو جماعة ولكن الكاتب يصدر الأمر بكينونته كاتبا السماء وهيهات للأرض أن تطاول السماء .

إنسان واحد هو الذى يستطيع أن يعزل الكاتب من وظيفته هو الكاتب نفسه لأن الله حين منحه موهبة الكتابة أخذ عليه عهدا غير مكتوب أن يكون شريفا لايخادع الناس ولايقول إلا مايؤمن به ولايفشى إلا الخير ولايدعو إلا لما هو الأسمى والأرفع من قيم الحياة . لقد وهب الله للكاتب قبسة من نوره وما كان لقبسة من نور الله أن تكون خداعا . . أو غشا أو كذبا أو دعوة للسفول أو اعتداء على الحق أو اعتسافا لكرامة الإنسان . فإذا خان الكاتب العهد سقط عنه اللقب وأصبح حفنة من تراب الحياة . تراب الموت بالنسبة إليها أمل وأى أمل ومهما يبلغ الكاتب من وظائف فهو إنما يتولى الوظائف ليؤدى واجبه نحو وطنه ولاينكص عن ندب بلاده له أن يقف فى خدمتها فى الميدان الذى تريده فيه أن يكون . ولكن مهما تكن هذه الوظيفة رفيعة ومهما تكسبه من سلطان وهيبة . يظل لقب الكاتب أعظم رفعة وهيبة كلمة كاتب لاتلحق بها هيبة .

●●

إنتهيت وشيكا من قراءة كتاب السادات الأسطورة للأستاذ موسى صبرى ولا شك أنى تأخرت فى الانتهاء من قراءة الكتاب وقد كان ذلك لأننى أقرأه فى إمعان شديد وهو فى نفس الوقت كتاب ضخم تستغرق قراءته الكثير من الوقت ولكن المتعة التى تصاحب القارىء فى رحلته الطويلة تجعله يستعذب جهد القراءة .

فالسادات علامة من أهم علامات جيلنا وأثره ليس مقصورا على مصر وحدها وإنما هو اتسع فشمل العالم أجمع .

فإن هذا الأسطورة المسماة أنور السادات إستطاعات أن تبهر العالم أجمع حتى لأذكر أننى كنت فى باريس وركبت مع زوجتى سيارة أجرة وكان ذلك عقب أن عبر السادات التاريخ إلى القدس وسمعنى السائق أكلم زوجتى بلغة لم يفهمها فقال .

- من أى البلاد ؟

قلت :

- من مصر .

قال :

- إن لكم زعيما عظيما أتحبونه فى مصر أم لا ؟

قلت :

- بل نحبه كل الحب :

قال :

- إننا لم نحب زعيما من خارج بلادنا مثل حبنا لديجول كما أحببنا أنور السادات . وكم فرحت بما قاله السائق وقارنت بين هذا الذى يقوله وبين ما كنا نسمعه قبل ذلك الحين كنا نلم بباريس .

وخرجت من المقارنة بشعور من الاعتزاز برئيسنا أكرم الله مثواه إن إنسانا لم يستطع أن يشغل من صفحات التاريخ الحديث ماشغله السادات بعناوين المجد والسموق . فالعالم لم يسمع عن دولة تنهزم هزيمة لم يشهد التاريخ لها مثيلا ثم تستطيع فى مدى سنوات ست أن تقلب هذه الهزيمة إلى نصر لم يشهد التاريخ له

مثيلا أيضا . والعالم لم يشهد إنسانا يواجهه وينفذ مايعتقد أنه الصواب على رغم كل التحديات إلا أنور السادات والعالم لم يشهد زعيما يضحى بنفسه لينقذ وطنه ضاربا عرض الأفق بالدعايات والشعارات الجوفاء الفارغة إلا أنور السادات .

وتمر السنوات ويتبارى الذين وجهوا إليه سهامهم المسنونة لينالوا بعض مانال فيخذلهم الطريق وهم فى غيهم بدلا من أن يعترفوا بالخطأ الذى وقعوا فيه يزدادون عداء للرجل حتى وهو فى مثواه الأخير .

ولست أدرى أى مصير كان ينتظرنا إذا نحن لم نستظل بالسلام وكيف يتصور إنسان أن عدونا كان سيسكت على الهزيمة لتكون نهاية علاقته بمصر وهى الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تحاربه والعدو يعيش فى المنطقة تحت شعار القوة وحدها والقوة مازالت كما كانت فى العصر الحجرى هى الحقيقة التى تحكم علاقات الدول بعضها ببعض ولو لم تكن إسرائيل مذعورة من أمريكا الطرف الثالث من معاهدة السلام لما خنعت ولافتعلت ألف سبب لتدخل فى حرب مع مصر رحم الله السادات فى عليين أدرك رحمه الله ـ هذا جميعه وأصر أن تكون أمريكا شريكا ثالثا فى المعاهدة وبهذا الإصرار إكتسبت المعاهدة قوتها وجبروتها واستطعنا أن نعيش السلام « الذى نعيشه اليوم والحرية التى نحياها الآن واستطعنا أن نتفرغ لأزمات جرها علينا حكم الطغيان لمدة تقرب من عشرين عاما وفرضتها علينا سنوات الحرب التى تواصلت منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٧٣ .

ومع أن هذه الحقيقة ساطعة لاشك فيها نجد المغرضين والأفاكين والجبناء والنهازين لايتركون فرصة إلا اهتبلوها لينالوا من الزعيم الأسطورة .

ويظهر كتاب موسى صبرى وكأنه لم يظهر ويستطيع الشيوعيون والناصريون بما لهم من أصوات صارخة وعلى رغم قلتهم الضئيلة أن يفرضوا الصمت أو شبه الصمت على الكتاب ولو ظهر لطفل منهم صفحة من كتاب لملأوا الدنيا ضجيجا وعجيجا فهو الكتاب الأوحد وهو العبقرية والخلود وهو المجد التليد والفن الأصيل والرفعة التى لاتدانيها رفعة والسموق الذى لايعلو إليه سموق وسبحان الله العظيم من قبل ومن بعد .

وأجد فى كتاب السادات الأسطورة شيئا ربما حلا لى أن أعلق عليه فقد أعاد إلىَّ شخصيا ذكريات لاتنمحى من ذهنى فقد جاء فى الصفحة ١٨٠ من الكتاب هذه الواقعة أرويها كما جاءت وهذه الواقعة حدثت فى معتقل الزيتون حيث كان المؤلف معتقلا وحيث التقى لأول مرة بالزعيم السادات .

وذات صباح طلبنى جلال الدين الحمامصى للتحدث معه فى غرفته ثم أغلق الباب بالمفتاح .

وقال : سأفضى إليك بسر سياسى خطير . وحذار من البوح به لأى إنسان .
قلت : خيرا .
قال : هل لفت نظرك شىء فى أخبار الصحف .
قلت : لا .
قال : هناك خبر هام أن النائب إبراهيم دسوقى أباظة (باشا) عضو الأحرار الدستوريين قدم استجوابا للحكومة عن سوء معاملة المعتقلين السياسيين .
قلت : وماأهمية ذلك .
قال : لقد فكرنا هنا بأن من واجبنا الوطنى أن ندعم هذا الاستجواب .
قلت : كيف ؟ . .

قال : هذا هو السر لقد قررنا أن يهرب عدد من المعتقيلن هنا ووقع الاختيار عليك ضمن من تقرر هربهم .

وشرح لى جلال الحمامصى التخطيط الكامل للهرب وباب الحجرة مقفل بالمفتاح . ويمضى المؤلف بعد ذلك شارحا قصة الهرب من المعتقل ذلك الهرب الذى دبره الزعيم السادات والذى نجح .

وإنما أروى هذه الواقعة لأذكر مالم يذكره المؤلف عن ذلك الاستجواب الذى قدمه أبى والواقع أن المؤلف لم يكن محتاجا فى واقعة الاستجواب إلا إلى هذا الجزء الذى أورده فلا لوم عليه ولاتثريب أنه لم يمض فى الواقعة إلى نهايتها .

فالذى حدث أن حكومة الوفد إختارت اليوم الذى ستناقش فيه الاستجواب . المقدم من أبى لتعتقل فى ذات اليوم المرحوم مكرم عبيد باشا وهكذا وقف أبى على المنبر وبدلا من أن يناقش الاستجواب قال إننا متضامنون مع مكرم باشا فى كل مافعله ولتفعل بنا القوة الغاشمة ماتشاء .

وجن جنون الحكومة الوفدية وفوجئنا فى بيتنا بعد منتصف الليل بقوات ضخمة من الشرطة تحاصر البيت ثم تقتحمه وتعلن أبى أنها ستفتش البيت وعرفنا أنها كانت تبحث عن الكتاب الأسود الذى أصدره مكرم عبيد باشا فى ذلك الحين بمعاونة من الأستاذ جلال الحمامصى وقد كنا فعلا نوزع الكتاب من بيتنا ولكن أبى بعد أن ألقى كلمته فى مجلس النواب توقع أن يدهموا البيت ليبحثوا عن الكتاب او المنشورات الأخرى التى كانت توزع فى هذه الأيام فى ظل الحكم العسكرى والصحافة المهدمة فهربنا كل ما كان لدينا من نسخ . . . وجرى التفتيش وحسبنا نحن أهل البيت أن هذا الذى يحدث شىء بربرى بعيد كل البعد من أى معنى كريم .

والیوم حان لی أن أشهد أن التفتيش الذى تم كان تفتيشا هينا لينا شريفا إذا نحن قارناه بما كان يحدث بعد ذلك فى سنوات الطغيان الغاشمة وأين بضع شرطة يمرون بالغرف أو يفتحون الدواليب والأدراج من تلك العواصف التى كانت فى عصر الطغيان تدمر البيوت تدميرا حتى إذا انحسرت لم تترك إلا ترابا مهيلا وفناء ملحقا .

ذكريات ومالنا لانذكرها أليست الذكرى تنفع للمؤمنين ؟ !!

●●

قرأت

فيما قرأت منذ قريب كلاما حاولت أن أجمع شتاته أو شعثه فتأبى عليّ ونفر أن يلتئم ورفض أن ينسجم بعضه مع بعض فقد قال القائل إن الشيوعية لاتتعارض مع الإسلام وتلك عجيبة من العجائب وقد حاول الكاتب أن يسوق الأدلة ويدعم رأيه بالبراهين فإذا بالأدلة تنهار جميعا وإذا دعائمه تتساقط مع براهينه لتصبح أنقاضا من هذاء وحطاما من لغو الكلام .

فالشيوعية لاتجتمع مع الإسلام فى وعاء واحد أبدا ولايستطيع أن يكون إنسان شيوعيا ومسلما فى وقت معا مطلقا .

فالإسلام يقوم على خمس أهمها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وهاتان الشهادتان ليستا مجرد كلام يقال وإنما هما كلام وعمل وقول وفعل ونطق بإيمان . لابد أن نؤمن أن الله واحد أحد وأنه سبحانه أرسل رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام وجعل معجزته هى المعجزة الوحيدة الخالدة فى تاريخ جميع الرسل والأنبياء . . . فكل معجزات الأنبياء كانت بصرية شهدها قوم النبى الذين أرسل إليهم والذين عاصروه بل والذين تصادف وجودهم وقت وقوع المعجزة .

أما الإسلام فمعجزته القرآن كتاب لايأتى عليه الزمان ويأتى هو على الزمان . باقيا خالدا دائما تتلقاه الأجيال كما أنزل لايختلف فى حرف من حروفه عن يوم أوحى به إلى خاتم الأنبياء إلى يوم تقوم الساعة .

ويقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « وبالحق انزلناه وبالحق نزل » سورة الإسراء ١٠٥ تعاليت يا سبحانك هذه الدقة فى التعبير لم تعرفها اللغة فى كل ماكان من كلام قبل الكتاب وفى كل ماتبعه من ألوان القول وهذه التفرقة الدقيقة فى آياته الكريمة لم تعرفها اللغة إلا فى القرآن الكريم فالله سبحانه وتعالى يعلن البشرية أنه أنزل كلامه بالحق ولا يكتفى بهذا بل يعلنهم جل وعلا أنه بالحق نزل . فهو حق فى بداية رحلته وهو حق حين انتهت رحلته ليصبح بلاغا إلى العالمين فيا أيها الناس اعلموا منذ نزل القرآن إلى أن يرث الله الأرض وما عليها أن هذا القرآن صدر عن الحق وأصبح بلاغا لكم بالحق لا يستطيع باطل أن يتفشىَ حرفا منه يظل مهما يكن هينا .

وهو سبحانه يضمن للعالمين أنه هو المسئول عن ذكره ليقول سبحانه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) صدق الله العظيم (سورة الحجر ـ ٩) وقد فعل سبحانه وبقى الكتاب وهو باق إلى الأبد الأبيد .
فالذى يقول لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يشهد بهاتين الشهادتين أن الله أرسل سيدنا محمدا بكتابه العزيز وأن الكتاب أنزله الله بالحق وأنه بالحق نزل وليس فى الأمر اجتهاد إذن ومادمت شهدت الشهادتين فأنت إذن تشهد أن القرآن من عند الله .

وأنت ملزم أن تؤمن بكل ما جاء فى هذا الكتاب ومادام كتاب الله فأنت لا تستطيع أن تقبل منه ما تقبل وترفض منه ما ترفض فهو ليس كلام بشر مثلك وإنما هو كلام الله الذى هو الله فإذا كان الأمر كذلك وإنه لكذلك فكيف يستقيم فى الأذهان أن يكون هناك شيوعى مسلم .
ولست أريد أن أدخل فى جدل عريض حول أصل النظرية الشيوعية من ماركس إلى من تبعه بإلحاد إلى آخر شيوعى وإنما أريد أن أناقش ما لاشك فيه .

فالنظرية الشيوعية ترفض الملكية التى تعود بمال على صاحبها وترفض النظرية الشيوعية فكرة الميراث جملة وتفصيلا وأسأل هؤلاء الشيوعيين كيف يستقيم هذا مع ما جاء فى القرآن فهل تراهم يجيبون لن يجدى هنا قول القائل منهم أنا مسلم وأنه يقيم الصلاة فى مواقيتها وأنه حج بيت الله الحرام فكل هذا لن يغنيه عن الإجابة شيئا .

فهو مادام مسلما فلابد أن يعرف أن هناك سورة إسمها سورة النساء ومادام يعرفها فلاشك أنه يعرف تفاصيل المواريث التى أوردها الله سبحانه فى هذه السورة وهى تفاصيل لم يذكرها سبحانه وتعالى عن الصلاة وهى الصلاة فالقرآن لم يذكر عدد الركعات فى كل صلاة ولم يذكر سبحانه كيفية الصلاة من ركوع وسجود ولست أريد بذلك أن أقول إن المواريث أهم ـ أعوذ بالله سبحانه أن أقصد إلى شىء من هذا ـ وإنما أردت فقط أن أشير إلى مقدار الأهمية التى شمل الله بها الميراث فى قرآنه الكريم .

فكيف يريد الشيوعيون ان يحرموا الميراث والملكية ويظلوا بعد ذلك مسلمين . . هيهات لقد كان كارل ماركس أكثر صراحة ـ أم الاجدر بى أن أقول ـ إنه كان أكثر وقاحة منهم فقد علم يوم أنشأ نظريته أنها ستتعارض مع جميع الأديان فألغى الأديان جميعا واستراح وأتعب البشر من بعده .

فإذا نظرنا إلى تطبيق النظرية فى البلاد الشيوعية وجدنا الكنائس أصبحت متاحف ووجدنا الدول الشيوعية تمنع غير الملحدين أن يدخلوا الحزب الشيوعى وويل أى ويل لإنسان فى البلاد الشيوعية لا يكون عضوا فى الحزب الشيوعى أن الشيوعية حرب على الأديان جميعا بنص النظرية وإذا كان المشرعون للنظرية الشيوعية فى موسكو يجيزون لأتباعهم أن يدعوا التدين ليجتذبوا الناس إلى نظريتهم فإن الإسلام وجميع الأديان لا تتيح لأتباعها أن يختاروا من الدين ما يحلو لهم فيعتنقوه وينصرفوا عما لا يروق لهم وينبذوه .

إن الدين كل متكامل لا يجوز لأحد من البشر أن يختار منه ويرفض . وإذا كانت الأوامر قد صدرت للشيوعيين فى الدول الإسلامية أن يدعوا الإسلام لفترة يسمونها مرحلية فإن الإسلام والمسلمين والإسلام والمؤمنين والكافرين يستطيعون فى يسر وفى منطق لا يقبل الجدل أن يعرفوا المسلمين إسلاما يسترون به إلحادهم والمؤمنين الذين يعرفون ماذا يعنى قولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله ومن عجب قولهم فى ميدان الإلحاد أن أصل العالم مادة ثم هم يفصلون نظريتهم فى الخلق تفصيلا جريئا لامثيل لجرأته وهم بهذه النظرية يريدون أن يقولوا إنهم يرفضون فكرة الإيمان بالغيب وإنهم لايؤمنون بغير العلم .

فإذا هم ودون أن يشعروا يقيمون نظرية تقوم كلها على الغيب لايؤيدها أى دليل علمى أو روحى فالأمر الذى لاشك فيه أن ماركس لم يكن شاهدا على بدء الخليقة كما لم يكن إنجاز أو لينين حاضرين فكيف إذن استقامت النظرية بين أيديهم ويطلقون عليها إسم النظرية ويطمئنون إلى ذلك ويستريحون .

بينما نصدق نحن المؤمنين ما جاء فى القرآن عن بدء الخليقة فى منطق منسجم مع طبيعة إيماننا كل الانسجام فالذى عرف سر الروح فى الإنسان أرسل إلينا كتابا هو معجزة الدهور وفى هذا الكتاب ذكر كيف نشأ الخلق ومادمنا لم نعرف سر أرواحنا فحتم علينا أن نصدق كل قول يقال .

ويصبح القرآن الكريم فى خلق الله أجمعين (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) سبحانك ما أعظمك ولكن الملحدين لا يبصرون ولا يريدون أن يبصروا فعلى القلوب أقفالها هم يستمدون إلحادهم من جيوبهم ومن أرباحهم ثم هم يزدادون جرأة على الحق ويدعون أنهم مؤمنون .

وما داموا قد فقدوا الإيمان فلا عجب أن يفقدوا الإيمان بوطنهم وهاهم أولاء يشعلون الفتن فى كل يوم ويلحقونها بالسخيمة والاحقاد والضغائن ويستجيب لهم فتية أبرياء يريدون ان يجعلوا منهم الوقود ليحرقوا به أمن الوطن .

ليس لكافر ميثاق ولاعهد وهؤلاء الشيوعيون يعلمون أن نباتهم لاينمو إلا فى الأرض المحترقة وفى أنقاص الأوطان وهاهم أولاء يحاولون أن يحرقوا بلادهم ويهدموا أركانها ولكن هيهات إن الشعب لهم بالمرصاد ومن بفوقه العزيز ذو القوة المتين . وما خاب من كان الله ظله وعونه وملاذه وملجأه .

ويصل إلىّ خطاب من الصعيد يسألنى لماذا أكتب عن الشيوعيين وهو لايعرف عنهم شيئا هنيئا لك أنك تجهل أمرهم فقد أكرمك الله بهذا الجهل كل الإكرام ولكننى يا أخى لا أعرف ما هو الموضوع الذى تعرفه أنت حتى أكتب فيه أنا ومادام الأمر كذلك فاقرأ أنت عما لاتعرفه فإن هذا هو خير لك ولى من أن أكتب أنا عما أجهله أنا وتعرفه أنت ألا ترى ذلك ؟

●●

أي حرب طاحنة تلقاها اللغة العربية من الشيوعيين الملحدين والمغرضين الكافرين وليست اللغة العربية هدفا فى ذاتها وإنما يتقصدونها بسهامهم لأنها لغة القرآن الكريم . . والحرب ليست بنت اليوم ولكنها قديمة قدم الكفر والأغراض الخبيثة وقد خيل إليهم أنهم نجحوا يوم ألغوا جامعة الأزهر القديمة ولم يصبح حفظ القرآن شرطا للانتساب إلى ساحة الأزهر الشريف ولا إلى حصن دار العلوم العتيد الشامخ وتحطمت اللغة على شفاه الأساتذة وانسحقت على شفاه التلاميذ وشب جيل لا يعرف اللغة العربية وزاط الأعداء وتهللوا وحسبوا أنهم نالوا ما كانوا إليه يطمحون .

وما هى إلا دورة زمن وما أسرع ما يستدير الزمن ـ حتى تبينوا أن اللغة على ألسنة الشباب وتهشمت ولكن الدين الإسلامى يزداد فى نفوس الشباب رسوخا وثبوتا وتأصيلا .

وتطيش منهم السهام ويتولاهم الهوس ويتخبطون فى حربهم كمن يتخبط من به من الشيطان مس .

ويعود إلى الأزهر وتملأ ربوع مصر المعاهد الدينية تكاد تغطى قراها جميعا وتعود اللغة العربية إلى الشفاه وما هى إلا دورة زمن أخرى نرى ملامحها منذ اليوم حتى يستقيم اللسان العربى كما كان مستقيما ويرى الشيوعيون الملحدون والمغرضون مرضى القلوب مطالع الصباح فيهيج هائجهم ويقول قائلهم إن اللغة العربية ما هى إلا صدى وتمر أيام ولا نقرأ تعليقا على ما قال الرجل المهلوس .

وأعجب ويتملكنى الأسى والحزن والأسف أهانت لغتنا على أصحابها كل هذا الهوان ان الأمم العريقة كلها تعتز بلغتها بشرفها فكيف إذا كانت لغتنا هى لسان كتابنا الكتاب السماوى الوحيد الذى بقيت لغته منذ نزل حتى اليوم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ويقول سبحانه فى الآية ١٠٣ من سورة النحل .

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »

ويقول جل شأنه فى الآيات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الشعراء « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »

ويقول تقدست كلماته فى الآية ٩٧ من سورة مريم « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا »

ويقول تباركت آياته فى الآية ٥٨ من سورة الدخان « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون »

فإذا كان اللسان العربى صدى فما الصوت وإن كان ظلا فما الأصل ولماذا يحاول هؤلاء المغرضون فى حمق وإصرار أن يكونوا قوما لدا يصبون على الدين كراهيتهم سما ناقعا أيحسبون أنه يخفى علينا ما يسعون إليه من محاولة تحطيم اللغة العربية وهل يتصورون أنهم سيبلغون الأمل الذى يصوره لهم جهلهم من تحطيم الدين فى نفوسنا إذا حطموا لغة هذا الدين وصوته الأصيل وصوت الآباء والأجداد على مدى آلاف السنين .

لقد حاولوا أن يهاجموا علماء الدين والمصابيح الهداة من شيوخ العقيدة فانهالت عليهم الأقلام فعاجوا طريقهم إلى محاولة تحطيم اللغة العربية قائلين إنها صدى وعجزوا أن يقولوا لأى صوت كانت لغتنا العربية هى الصدى .

أيريدون أن يقولوا إنها صدى التراث الذى يسمونه رجعية وصلفية وتحجرا أو ليس لكل أمة تراثها فى لغتها أو ليس للفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليون واليونانيون تراث لغوى .

أهذه اللغات جميعها أصل ولغتنا نحن التى هى لغة كتابنا هى الصدى بئس ما يدعون .

لماذا نكرمهم ويستخفون أمرنا ولماذا نقدس حريتهم ولايقدسون عقيدتنا وهم الملحدون ونحن المؤمنون ونحن الأصل وهم الاستثناء ونحن الأكثرية وهم الأفراد القلة أما يستحون .

وكيف لهم أن يستحوا وهم الكافرون عقيدة وخلقا وقولا وقلما .

ويتصدرون وسائل إعلامنا الرسمية ويبجحون بهذا الكفر وهذا التجديف ولا يجدون من يردهم وإننا نربأ بأنفسنا أن نقول من يمنعهم فالحرية هى أساس ديننا الواثق من عظمة تعاليمه يرفض فى كبرياء أن يرغم أحدا على الإيمان به هكذا نزل بالحق وهكذا دعا إليه نبيه صلى الله عليه وسلم وهكذا سيظل إلى قيام الساعة فالحرية فى ديننا أصل ولهذا نحترم حريتكم ولكن عليكم أنتم أيضا أن تحترموا

حريتنا وعليكم لو كنتم على شيء ضئيل من الحياء ان تراعوا مقدساتنا ولاتمسوا عقيدتنا بسمكم الناقع .

اللغة العربية هى لغة القرآن كتاب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وهى اللغة الوحيدة بين لغات العالم اليوم التى بقى كتابها بلسانها لم يتغير فيه شيء أليس من الطبيعى ان تكون هذه اللغة هى أعظم اللغات قاطبة فأى لغة فى العالم الذى يعيش اليوم يقرأ بها كتاب إلهى إلا لغتنا نحن .

أهذه اللغة صدى فما الصوت إذن ؟

وبعد فماذا نحن صانعون بتراثنا جميعا من قبل الإسلام حتى اليوم وهل تراث الأدب العربى جميعا إلا اللغة العربية ترى أيريدنا الملحدون أن نلقى بهذا التراث فى البحر ونتلقى عنهم لغتنا وأدبنا لغة جديدة وأدبا مستحدثا .

ويل لهم بماذا يهرفون .

إن لم يكن للأمة تراث فليس لها حاضر ولا ينبت جديد من معدوم ولكل فرع أصول فاذا قطعت الأصول قطعت الفروع جميعا .

إن التاريخ العربى مرتبط بالتراث الأدبى كل الارتباط وقد كان الشعر العربى هو المؤرخ لكل أحداث العرب ومن هذا الشعر العربى ومن النثر العربى تكون تراثنا جميعا فهل تكون هذا التراث جميعا صدى .

إننا اليوم ننزل بالبلاد العربية فإذا تحدثوا أمامنا بلغتهم الدارجة أصبح الكلام بالنسبة إلينا غريبا لا يكاد يفهم ولا نفهمه حرفيا حتى إذا نطقوا باللسان العربى إستقام حديثهم وفهمنا ما يريدون .

ربما كانت لغتنا الدارجة فى البلاد العربية بفضل الفنون المختلفة التى تصدر من مصر إلى العالم العربى ولكن اللغة تفاهم بين طرفين فإن يفهم الآخر عنا فلابد لنا نحن أيضا أن نفهم عنه فإذا لم يكن التفاهم بيننا باللغة العربية التى يقول عنها الكافرون صدى فبأى لغة يكون .

يا أيها الذى قال هذا لقد عدوت فى قولك على لغة القرآن وعدوت فى قولك على لغة التراث وعدوت فى قولك على لغة الأدب العربى الحديث فلن يكون الأدب أدبا إلا إذا كتب باللسان العربى وعدوت فى قولك على لغة التفاهم بين العرب أجمعين وبعدت مرة أخرى فأى لغة تختارها ليكتب بها الأديب العربى أو الشاعر العربى إذا كتب المصرى لغته الدارجة فإن أحدا لن يستطيع أن يفهم ما يكتب حتى أبناء مصر لأنهم تعلموا القراءة باللغة العربية الأصيلة وليس اللغة الدارجة وإذا كان المصرى لن يفهم فما ظنك بأبناء العربية من الدول الأخرى .

وإلى أين ينتهى بنا الأمر إذا كتب كل عربى بلغته الدارجة إنهم سيصبحون كالطيور العجماء تقول ولا يفهم أحد عنها شيئا بل سيكونون شرا مصيرا وأسوأ حالا لأن الطيور تفهم عن بعضها البعض أما الإنسان العربى فلن يفهم أحد عنه شيئا حتى أبناء وطنه لأنهم جميعا تعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية لا بالدارجة وبهذه اللغة تكتب صحفهم وبها تقرأ نشرات أخبارهم فى الإذاعة والتليفزيون .

ما أحسب أيها الكافرون إلا أنكم تهرفون بما لا تفهمون وكبر مقتا أن تقولوا مالا تفهمون فاحذروا أنفسكم فهى حين تجهل يبدأ جهلها عليكم وتصبح لكم شر عدو .

أما نحن المؤمنين فدينا يزداد مع الأيام قوة ومنعة وانتشارا ولغتنا ستظل إلى مابعد الزمان سيدة اللغات وإن رغمت منكم كل الأنوف .

صـــــورة قلميـــة

الثـــور المـذءوب

سعار

أصاب الرجل منذ البواكير الأولى من حياته أنفق عمره يتعلم لغات غير لغته العربية وله من الوقاحة ما يحاول به أن يكون أديبا فى اللغة العربية وانتهت حياته وأوشكت ولكن المسكين فشل أن يكون بين قومه أديبا وفشل أن يكون فى اللغات التى تعلمها وأتقنها شيئا مذكورا أو غير مذكور .

إنه ثور أصابه سعار الذئاب المفترسة يريد أن يحطم الحياة من حوله ولكن لأنه ضئيل القدر هين الشأن حقير النفس وضيع الفكر لم يحطم إلا نفسه .

همَّ أول ماهمَّ باللغة العربية والتراث العربى وراح يحارب كل ماهو أصيل فى أدبنا وتراثنا ونظرة الكليل المنحرف مصوب على أن اللغة العربية هى لغة القرآن وهو يظن بما ركبت عليه نفسه من اجتماع الثور والذئب أنه يستطيع أن يحطم اللغة ليبعد الناس عن القرآن وعن الدين واستقبله فيما تكالب عليه الفشل الوبيل ، وأحس الناس بما فى هجمته من سعار فرفعوا المصاحف على الرؤوس وألجموه بما لا يطيق وانهالوا عليه رجما فإذا الثور فيه والذئب جميعا يتمخضان عن كلب أجرب يضع ذيله بين فخذيه الخلفيتين ويسارع فى تلصص المجرمين يعدو باحثا عن مخبأ أمين يلعق فيه جربه وجراحه ويصمت حتى يهدأ ماثار من الناس وحتى ينثنى عنه الراجمون وينساه الذين يقولون لا إله إلا الله محمد سيد الخلق رسول الله .

فإذا هذا الضجيج عاد إلى الميدان مرة أخرى يحاول فى غباء الثور وفى سعار الذئب أن يبحث عن قنص آخر بعد أن عزه أن يهاجم لغة القرآن بشائه بصره ومريض بصريته أن يهاجم من يجله المسلمون من عمالقة العلماء وأشراف الفقهاء وراح يرمى عليهم سخائمه ويختلق عنهم تهما لم يسمع أحد أنها يمكن أن ترقى إلى أعتابهم ولكن ذنبهم الوحيد أن العرب المسلمين يذكرون أسماءهم فى إجلال وإكبار وتقديس ، وذنبهم الأكبر عنده أن كل الفقهاء الذين جاءوا بعدهم تتلمذوا عليهم أو على تلامذتهم ، بل إن أعلام الوطنية والإخلاص القومى ينتسبون بأفكارهم إلى تعاليمهم ، وهذه ذنوب عند الثور المذءوب لا غفران لها ، فماذا

عليه لو أنه صدم فيهم مشاعر الجماعة وحاول أن يزيل هذه الهالة عن أفذاذ لم يذكرهم التاريخ إلا بما يشرف الرجال ويرفع صليهم على أحقاب الزمان .

ومرة أخرى تداولته الحجارة وانهال عليه المسلمون والعرب والوطنيون بسهام الحق يردونه عن قوم يكنون لهم الاحترام والتوقير ويعلنونه .

ويحاول الثور المذءوب أن يلجأ إلى حرية الرأى ، وإلى أن كل إنسان ينبغى أن يتمكن من إبداء رأيه مهما يكن شأن هذا الرأى وهو قول حق ولكنه يستر عند هذا الرجل بالذات باطلا فادحا فأولئك الذين يجرح مشاعرهم بهذه الوحشية ويسب لهم أعلام دينهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم الحرية فى مهاجمة مايقدسه هو وأمثاله من الذين يحاولون أن يحطموا المساجد وأشياخها على رؤوس مرتاديها ومريديهم لأن ديننا ينهانا أن نثير الفتن بين الناس والفتنة عندنا أشد من القتل بينما هى عند الثور المذءوب هدف حياة ونشيدة عمر وهب نفسه لها لا يروم عنها ولا ينثنى .

وبلغت به الوقاحة أن هاجم القرآن نفسه وحاول أن يرد آياته إلى عصور سابقة عليه وحاول أن يفسرها وهو أبعد ما يكون عن دراسة أعماقها أو لغتها أو مفاهيمها أو أسباب نزولها .

والحرية هى كرامة الإنسان ولكن من قال إن الحرية هى تحطيم الأديان ، وامتهان كرامة الجماعة ، والاعتداء على مقدسات الشعوب وما آمنوا به .

فصلة الإنسان بربه صلة لا يعلمها إلا الإنسان نفسه وعالم الغيب والشهادة والاعتداء على هذا الحرم تحطيم للحرية نفسها إلا أن تكون الفتنة هى بغية المعتدى والوقيعة بين الأديان هى هدفه الذى يتغياه ويرصد حياته لبلوغه ، ومرة أخرى يفر الثور المذءوب كلبا أجرب يلوى ذيله بين فخذيه ويتلمس مخبأ يرد عنه عاديات الهجوم .

ولكن هل من ينتهى . . هيهات . . إذا كان قد خاب، فأله وحبط مسعاه مع الدين وجها لوجه ومع فقهاء الدين بالإعلان فماله لا يحاول أن يهاجم شعراء العربية وكتابها أجمعين ويجعل من ذكراهم عفنا وحينئذ يقول هذا رأيى وما على من بأس أن أرفض كل هذا الشعر وكل هذا الأدب وهذا حقه لا شك فى ذلك ولكن كشأنه يستر به باطلا حقيرا .

فإن الناقد حين يرفض شاعرا عملاقا وكاتبا شامخا يتعين عليه أن يذكر عيوب هذا الشاعر أو ذلك الكاتب وما الذى يدعوه إلى رفضه ولماذا هو أكذوبة فى أدبنا ، والا كان الرفض وليد أغراض أخرى وخبيئات نفس مريضة ترمى برفض الشاعر

أو الكاتب إلى رفض اللغة التى أكبرها هذا الشاعر أو ذلك الكاتب فأكبرته والذى أكرمها فأكرمته ورفعها فرفعته .

إن الافذاذ من شعراء الأمة وكتابها هم تاريخ أدبها هم الرايات الخفاقة التى تسافر عبر الأجيال تحمل الخلود لبلادهم على مر العصور وتحمل أجيالهم على أعناق الزمن إلى سائر الأجيال .

وقد كان تشرشل الزعيم الإنجليزى على وعى عظيم بشأن الشعراء حين قال لو لم يكن لبريطانيا فضل إلا أنها ولدت شكسبير لكان حسبها .

ومازال الفرنسيون يتيهون فخرا بكورنى وراسين وهيجو وبودلير وبكتابها من أمثال بلزاك ودوديه واناتول فرانس وغيرهم ومازالت المانيا ترفع علم جيته وزفايج وعظماء شعرائها خفاقا على كل الأجيال وكذلك تفعل كل الدول .

فما بال هذا الثور المذعوب يريد أن ينكس أعلام العمالقة من شعرائنا وكتابنا ويرفض أى شاعر أو كاتب لم يشهد هو ميلاده ولم يعلن هو شاعريته ويمنحه هو صك الوجود إلا أن يكون، متشبثا بتحطيم لغتنا فى وهم منه كبير أنه سيستطيع أن يحطم بها ديننا وقرآننا ، لكن ربنا قال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وهو طبعا لا يؤمن بما قال ربنا ، ولكن ألا يؤمن بما تم فعلا وبما يرى من أن القرآن بقى ألفا وأربعمائة عام ونيف لم يتغير منه حرف واحد ولكن على قلوب أقفالها وعلى البصائر منه مغاليقها ، فليمكر ما شاء له المكر فإنا نحن المؤمنين نعلم كل العلم أن الله خير الماكرين . .

●●

يأتى على القرد لحظات يخيل إليه أنه أصبح إنسانا أو قريبا من الإنسان . وتعاود هذه الحالة بالذات القردة المعروضة فى حدائق الحيوان ذلك أن الأطفال وأحيانا الكبار يتحلقون حولها ويلقون إليها بأصابع الموز إن أرادوا إكرامها وبحبات الفول إن أرادوا أن يشهدوا حركاتها وهى تقشره وتأكله . فان زادت حلقات الناس خيل لبعض القرود أنهم أصبحوا على قدر من الأهمية فترى القرد منها يشيح عن الإنسان الذى أكرمه ويصرف عنه وجهه واهتمامه واهما أنه أصبح أعظم منه شأنا وأرفع منزلة .

وترى القرد منها يتقافز على أعراف الشجر الصناعية وينط على أسياخ الحديد فإذا هو فى أعلاها وحينئذ يخيل إليه أنه أصبح أعلى قامة من الإنسان ولو لم يكن قرداً لأدرك أنه مهما يتقافز ومهما ينط سيظل قرداً ويظل الإنسان إنسانا كما يظل أيضا النجم نجما والقمر قمراً . .

وفى عالم الأدب نجد شاشة التليفزيون قد جعلت بعض القرود يظنون أنفسهم آدميين ولو رأوا أنفسهم من أعين الناس ومن عقولهم لأدركوا أن الناس لا تراهم إلا قردة مهما يتقافزون وينطون ولكنهم هم يرون أنفسهم من داخل أنفسهم ومن عيون ذواتهم ولكم تخادع نفسها النفس ولكم تكذب العين صاحبها فتوهمه أنه أصبح شيئا وما هو بشىء وأنه يستطيع أن يصدر الأحكام ويقسم الأقسام وهو هو نفسه لا يجوز أن يكون موضوع حكم لأن الحكم لا يكون إلا على موجود وهو غير موجود والأقسام لا تكون إلا بين كيانات قائمة وهو لا كيان له ولا كينونة .

الناس تراهم داخل إلة التليفزيون قردة داخل أقفاص ، لن يجديهم شيئا صوت كمواء القطط كما لن يجديهم شيئا تصنع فى النطق وتمشيط لشعر الرأس وترجيل للحواجب وحركات للأيدى مرسومة فى تكلف بغيض وفتح للفم وإقفال له بمسطرة وبرجل ومنقلة ولو دروا أنهم بهذا يقتربون إلى عالم القردة أكثر مما يقتربون إلى عالم الإنسان لكفوا ولكن من أين لهم أن يدروا .

أغلب الأمر أن القارىء الآن سيقول ألغزت فأفصح ولكن المؤكد أن أغلب القراء من مشاهدى التليفزيون سيقولون أفصحت فاستر وعهد عليّ لهم ألا أزيد الأمر إبهاما أو إيضاحا ، فالقردة لا يقال عنها إلا قردة ، والقرد لا يسمى ، وان كان له إسم فإنى أربأ بقلمى أن يجمع من حروفه إسما .

ولكن كل ما أستطيع أن اقوله ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

●●

يشهر

الكاتب المبتدىء قلمه الطفل ويشرع سنه الأخضر الغض ويهتف صارخا . . سأحطم . . وأول ما يتصور أنه سيحطمه التقاليد . فهى عنده تلك القيود التى رثت على تعاقب الأزمان والتى عبرت الأجيال مقدسة الخطى بفضل جمود العقول فى رأيه ، موفورة الجلال بفضل الشعوب التى تأخذ بها فيما يظن .

ويحسب الكاتب النصير الإهاب أنه أصاب من الأمر مفاصله وأنه وقع على طلبته ووجد الشىء الذى إذا حطمه سيصفق له الشباب والمتحررون بتفكيرهم والمتسامون بعقولهم .

ويكتب الطفل وماهى إلا بعض سطور حتى يجد التقاليد تحيط به من كل جانب وأن القيم الكبرى التى اعترفت بها البشرية قبل ظهور الأديان ثم أكدت الأديان معانيها وثبتت رواسيها وشدت أطنابها هى المثل الثابتة التى لاتستطيع أى قوة شريفة أن تقف فى مواجهتها بل إن القوى الوضيعة إذا ماواجهتها فإنما تواجهها خفية متسترة بأستار هذه القيم نفسها متشحة بخمار هذه المثل الرفيعة محاولة أن تميل بها عن طريقها ، وتحيد بها عن جادتها ، وتصرفها عن سمتها الواضحة الجلية التى لاسمة غيرها فالشرف واضح والصدق جلى والخلق الرفيع هو الخلق الرفيع مهما تتكالب حوله الأغراض وتتثعلب دونه شراذم اللئام ، ماذا يستطيع الكتّاب الذين يريدون أن يحطموا التقاليد أن يحطموا . أيستطيعون أن يحطموا الشرف . أيستطيعون أن يحطموا الحب . كيف . . يمتدحون البغض مثلا ؟ والحقد والسخيمة السوداء والغل المعتم الوضيع . .

أيستطيعون أن يقولون إن الأمانة شر ، وإن السرقة رفعة أم أن الصدق سقم ، وأن الكذب متعة .

إن القيم ثابتة لاتتغير ، وكل الذى تغيرهم الناس فقد أصبحوا يعرفون الشر ويأتونه علانية ولكنهم بعد لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يدافعوا عنه .

إن الشباب يريد أن يحطم التقاليد لايحطم إلا الأعراض الهينة الساذجة البسيطة التى لاتمثل إلا مظاهر هذه القيم والتى لا تصل إلى لبابها أو حقيقتها ، فمن الأمور مثلا التى يصر الكتّاب من الشباب على تأكيدها حرية الفتاة فى الاختيار ، ويتوهم الشاب أنه أتى بجديد يحطم به التقاليد وقد يكون فى إرغام الفتاة شىء من التقاليد ، ولكنها تقاليد لاتمثل القيم الحقيقية بل هى حتى لا تمثل الدين وهو القمة لعليا القيم ، فالنبى عليه الصلاة والسلام كان يرى أن الفتى يجب أن يرى عروسه مقبلة مدبرة ويرى عليه الصلاة والسلام أنه أحرى بالعروسين أن يؤدم بينهما أى يأكلان معا ، وكان الرأى فى الإسلام أن الفتاة لها أن تختار زوجها وكتب التراث مليئة بالروايات عن الفتيات اللواتى رفضن الخاطبين لهن .

فأنت إذن أيها الكاتب الشاب لم تحطم قيمة فالقيمة ثابتة وإنما حطمت مظهراً ليس من القيم فى شىء وحين يكتب الشاب عن احترام الأبناء لآبائهم فهم يحاولون أن يحطموا عماد البيت وأساسه ، إذا مالوا إلى مظاهر الاحترام فإنهم سيجدون متسعا يقر الاحترام فى دخيلة نفوسهم والاحترام علاقة متبادلة فالأب غير المحترم لن يحترمه ولن يحترمه أبناؤه ، فإذا وقفوا له رائحا وغاديا فهم قردة لا يدل وقوفهم إلا على السخرية والتحقير وليس يعنى مطلقا الإجلال أو التوقير .

والفتاة فى تصرفاتها قد تعدو على المظاهر وقد نجد مؤلفين من الشباب أو مؤلفات من الثائرات يقولون لها إصنعى ماشئت فما دمت شريفة فقد حل لك أن تخرجى حين شئت وترجعى حين أردت والعبرة بما تصنعين وليس بما يبدو منك ، والكتّاب هنا يوقعون الفتيات فى كارثة مامن سبيل إلى علاجها فالشرف سمعة . . وأقولها ثانية وثالثة وعشراً . .

الشرف سمعة . . فإذا راحت الفتاة تعبث بهذه السمعة بغير حكمة ولاتعقل أو بصيرة أصبحت فى نظر المجتمع عاهرة وهى التى ستدفع الثمن وحدها ، والمصيبة الكبرى حين تكون شريفة وترمى بهذه الوصمة ، والناس لهم الظاهر وهم معذرون فما من أحد يصل فى أمر الشرف إلى الحقيقة العارية وإنما الأمر كله سماعى حين يتجاوز الفاعلين .

ليت هؤلاء الشباب من الكتاب يوجهون همهم إلى الدولة وليس إلى التقاليد . . ليتهم يقولون للدولة ونقول معهم لاتظلمى فئة على حساب فئة . . ولاتطحنى الموظفين فى ساحتك حتى لايشب الحقد بنفوسهم وتغلى مراجل الغضب فى ضلوعهم على كل المجتمع ، ليتهم يقولون للدولة ملكت فأسجى ، وحكمت فاعدلى . . فالعدل قديم وليس فيه جديد ، والعدل قيمة لاسبيل لنا أن نعدوها .

ليت الشباب من الكتّاب يقولون للناس إذا ضاقت فإلى فرج إن ادلهم الليل فسوف ينكشف عن صباح .

فإن الأمل بالشباب من الكتّاب خليق وبالمؤمنين منهم أخلق ، ليت الشباب من الكاتبين يكفون عنا تلك السموم التى تموج بها رواياتهم فكلها يأس أسود مرير شديد المرارة وكلها قاتم داكن القتامة لافرجة فيه لأمل .

ليت الشباب يكتفون بما تكرر من المعانى السقيمة التى تثير طبقات المجتمع بعضها على بعض والتى تفتعل الإحن والعداوات بين أبناء الوطن الواحد ، فلتلك نغمة يصطنعها الشيوعيون ليدمروا بها المجتمعات لأنهم هم لا يسيطرون إلا على المجتمعات التى تم تدميرها .

●●

ما أبعد الثقافة
عن اللافتات

باحثة إنجليزية منذ بضع سنوات وكانت تريد أن تجرى معى حوارا لأنها تكتب رسالة جامعية عن الأدب العربى . وعلى عادة المصريين وسذاجة **جاءتنى** الشراقوة دعوتها إلى الغداء ورأيت من المناسب أن ادعو قريبا لى كل دراسته باللغة الإنجليزية فهو يتقنها إتقانا ربما يفوق به أبناءها .

وجلسنا ثلاثتنا وسألت الباحثة عن كتاباتى ماحلالها السؤال ثم بدأت مناقشتها مع قريبى ذى الثقافة الإنجليزية وراحت تحادثه عن طه حسين فيحدثها عن ديكنز ، فإن حدثته عن توفيق الحكيم حدثها عن شو ، سألته عن العقاد أجابها عن لوك فإذا هى تنتفض فى غضب :

ـ سيدى لقد بدأت أدرس أدبكم بعد أن فرغت من دراسة أدبى أنا فكيف سمحت لنفسك ياسيدى أن تدرس أدبى أنا قبل أن تدرس أدبك أنت ، لو لم يكن لك أدب وأدب عظيم لعذرتك أما ولكم هذا الأدب فلا عذر لكم ، وقريبى ذو حياء فخجل من نفسه وخجلت له .

ترى أنجد هذا الخجل على وجوه القائمين بشأن المسرح اليوم ، فقد كنت ـ والله ـ أعد نفسى لحديث غير هذا الحديث وموضوع غير هذا الموضوع فإذا بالرديو يفاجئنى فى الأمس بحديث طويل عن اتجاه النية فى المسرح المصرى أن يعرض مسرحيات شكسبير ومولبير باللغة العربية البسيطة كما يقولون على مسرح من مسارح مصر العربية .

وإنه لشىء عظيم أن يتجه المسرح إتجاها جادا ولكنه شىء مفجع ومحزن وأليم ومخزأن يبدأ بأدب غير أدبه ومسرح غير مسرحه .

إن النية فيما قال الراديو أن تسجيل هذه المسرحيات للتليفزيون ترى هل يعى هؤلاء الذين يرفعون هذه اللافتات أى مهانة يلقون فيها بأدبهم .

أيها الاساتذة الأجلاء من رافعى اللافتات هل سجلتم روايات شوقى كلها للتليفزيون هل سجلتم روايات عزيز أباظة كلها للتليفزيون . . هذا إن شئتم شعرا فان أردتم نثرا فهل سجلتم روايات توفيق الحكيم كلها . . كلها . . كلها

للتليفزيون وهل سجلتم روايات باكثير كلها للتليفزيون فإن لم تكونوا قد فعلتم وأنتم لم تفعلوا فما هذا العبث الذى تذيعونه على الناس .

ما أعظم أن نرى شكسبير ولكن بشرط واحد أن نكون قد رأينا شوقى جميعه وعزيز أباظة جميعه ، الشعر صعب على الممثلين ولكن من قال إن الثقافة عبث ولافتات إدفعوا للممثلين أجرا يرضيهم يصبح الصعب هينا لينا وما أروع أن نرى موليير بل وكورنى وراسين وميلر وغيرهم وكل من شئتم من أعلام الغرب ولكن ليس قبل أن نرى أعلامنا وروائعنا وإن رغمت من الأنوف أنوف .

وأخرى . . مامسألة اللغة المبسطة هذه . . ماهذه اللهجة المضحكة . . من قال لكم إن الشعب شكا من اللغة الحلوة . . إن هذا الشعب الذى تغلب عليه الأمية ذو حساسية فى اللفظ الأدبى يندر أن يرقى إليها كثير من دعاة الثقافة وبهذه الحساسية الرهيفة أقبل على روايات شوقى وهو شوقى وعزيز وهو عزيز وأقبل على تراجم مطران لشكسبير وهما مطران وشكسبير .

فما هذا الجهد والكد والمال المبذول فى الترجمة وهذه المسرحيات ترجمها واحد من معالم الشعر العربى الحديث .

إن كانت هناك لفظة صعبة أو تركيب عسير فما أيسر أن يسهل الصعب ويلين فما ترجمها الشاعر الكبير شعرا وإنما ترجمها بالنثر وما أطوع النثر فى الاستبدال والتغيير وما أعظم ثراء اللغة العربية وما أكثر المترادفات فيها .

ياأيها اللامن المسئولين لقد غشاكم من أيام الطغيان ضلل اللافتات المرفوعة على الهواء والشعارات الهلامية المشهرة على فراغ وليست الثقافة ولن تكون لافتات وشعارات ، وإنما هى جهد وبحث وعناء لتكون متعة وزادا وغناء .

أنا لن أخاف ولن أرتعد إذا أطلقتم فى الهواء أسماء شكسبير وموليير ، ولن يخاف أحد ولن يرتعد أن يعارضكم ويصيح بكم ملتم عن الحق فعودوا وتركتم الطريق فاستقيموا .

وإن كان نطق شكسبير وموليير وراسين وكورنى وبرناردشو وإبسن يعزف فى قلوبكم وعلى ألسنتم نغما تهفو له نفوسكم وترتاح له أفئدتكم انكم صرتم مثقفين فجربوا المتنبى والبحترى وشيخ المعرة وأبا تمام وشوقى وعزيز وتوفيق الحكيم وعلى باكثير ربما استجابت لهذه الأسماء قوميتكم ,واستقام بها لسانكم وإن كان لابد أن تذكروا الأسماء الغربية, وتمثلوا رواياتها فمازجوا على الأقل بين مصر العربية والغربيين ممازجة العادلين لا الظالمين ، والمقسطين لا القاسطين وسلام عليكم فى المثقفين المتفرنجين ولا أقول الهازلين .

فهرســــــت

الموضوع | الصفحة

● السلطان والبهلوان ٥
● ملبس أجرب لزمن ممزق ١٠
● الحرية مسئولية الفرد ١٣
● هل هم منتهون ١٧
● لا يخلف الله وعده ٢٢
● حين تتحطم الحقيقة ٢٧
● وجهان لعملة واحدة ٣١
● غربة الزمان والمكان ٣٥
● أطفال ٣٩
● حريق وكوب ماء ٤٣
● حتى أبطال أفغانستان ٤٧
● لا اقتصاد بغير ثقة ٥٢
● عالى الصوت لم يزل ٥٦
● أعجب واعجب معى ٦٠
● بين النظرية والتطبيق ٦٥
● إيجاب ولا قبول ٦٩
● مقدمة ونتيجة ٧٢
● حكمت فلم تنصف ٧٥
● خلقه ـ فسواه ـ فعدله ٧٧
● لست وحيدا ٨١
● ولكن أخلاق الرجال تضيق ٨٣
● خطاب فى موعده ٨٦
● ما أجمل هذا الحريق ٩٠
● وتأكلون التراث أكلا لمًّا ٩٣
● حيرة مع مليم ناقص ٩٥

الموضوع	الصفحة

● إتنين فلاح .. وهات مليم ٩٨
● سقط الصنم ..ولم تسقط القاعدة ١٠١
● لا نخاف الا الله ١٠٢
● الخبرة والإدارة ١٠٦
● كل سلام عندهم حرب ١٠٨
● الأدب حياة ١١١
● الأدب ..والسياسة ١١٣
● الكتابة لوجه الوطن والحق ١١٦
● بين الفخر والجخ ١١٨
● الصوت المرتفع والتليفون والفن ١٢١
● الشخصية المثالية فى الفن الدرامى ١٢٣
● بين الأدب والدين والعلم ١٢٦
● الدراما الشعرية فى رؤية جديدة ١٢٩
● الكلمة العربية ١٣٣
● الناس والملائكة ١٣٨
● لم يتسع الوقت ١٤١
● اللغة فى القصة والرواية رؤية وليست بحثا ١٤٥
● أبيات من الشعر ١٤٩
● هيبة الكتاب ١٥١
● كتاب السادات ١٥٣
● وبالحق نزل ١٥٧
● سيدة اللغات ١٦١
● صورة قلمية .. الثور المذعوب ١٦٥
● قردة ١٦٨
● تحطيم الهواء ١٧٠
● ما أبعد الثقافة عن اللافتات ١٧٣

●●

مشـــــروعـات وأنجـــازات

هيئـــة كهـــربـاء مصـــر

قصة الكهرباء فى مصر هى قصة تطورها الحضارى لامراء . . وهى قصة مثيرة حافلة بالجهد والعرق والسباق مع الزمن ، تحققت خلالها صنوف مختلفة من الانجاز الضخم القياسى بكل المعايير لجعل التقدم حقيقة واقعة يعيشها المجتمع ، والحداثة امراً يتقدم باطراد فى كل اشكال حياته ومناشطه .

والحقيقة الاساسية التى تأكدت بقوة خلال ذلك . . هى ان الكهـرباء اسـاس التنمية المعاصرة فى سائر جوانبها الاقتصادية والاجتماعية . . وهى بوصفها من أهم هياكل البنية الأساسية والدعامة الرئيسية التى تقوم عليها مشروعات خطط التنمية الصناعية والزراعية وفى مجالات الإسكان والخدمات وسائر جوانب الحياة فى المجتمع .

وفى لقاء مع المهندس محمد السعيد عيسى رئيس هيئة كهرباء مصر تحدث قائلا :

تعتبر مصر من اوائل دول العالم التى بدأت فى استخدام الطاقة الكهربائية منذ اواخر القرن الماضى (١٨٩٣) وكانت بدايتها قاصرة على استخدامها فى الإنـارة فقط . . ثم تطورت خاصة فى ثلث القرن الاخير . . تطوراً كبيراً . . وتعددت أشكال استخدامها مـع تطور البلاد ونموها .

وتعنى هيئة كهرباء مصر فى المقام الأول . . بتوفير الطاقة الكهـربائيـة لمختلف عناصر الإنتاج والخدمات . . بالقدرات اللازمة والمواصفات الفنية الملائمة . . كما تتخذ كـافة

الضمانات لاستقرار واستمرار التغذية الكهربية دون انقطاع فى كافة الاحوال . . فى حدود الإمكانات المتاحة والتى تسعى إلى تطويرها على الدوام .

وقد حققت مصر منذ ان تولى الرئيس محمد حسنى مبارك قيادة مصر إنجازات عديدة فى مجال الكهرباء . . فلقد قامت الوزارة بإنشاء العديد من محطات التوليد العملاقة خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٩٠ ومن أهم هذه المشروعات محطة توليد كهرباء شبرا الخيمة بقدرة ١٣٤٠ ميجاوات وهى تأتى فى مقدمة المشروعات العملاقة خلال هذه الفترة وعددها ١١ مشروعاً .

وتأتى هذه المشروعات لتواجه تصاعد الطلب على الطاقة الكهربائية فى مصر حيث ارتفع الحمل الأقصى من ١٢٥ ميجاوات عام ١٩٥٢ الى ٣٢٣٩ ميجاوات عام ١٩٨١ ليصل الى ٧٠٠٠ ميجاوات عام ١٩٩٠ ومن المتوقع ان يرتفع الحمل الاقصى للجمهورية الى ٨٤٠٠ ميجاوات بنهاية عام ١٩٩٢ .

ولمواجهة الزيادة المطردة فى الطلب على الطاقة وضعت وزارة الكهرباء إستراتيجيتها فى عام ١٩٨١ وحتى عام ٢٠٠٠ والتى سارت عليها الخطط سواء ما تم انجازه خلال الخطة الخمسية الأولى او ما يجرى تنفيذه حاليا وحتى هذا العام لإنشاء العديد من محطات توليد الطاقة لمواجهة زيادة الاحمال المتوقعة . . واضعة فى اعتبارها تنويع مصادر الطاقة لتحقيق الاستغلال الامثل لها مع إعطاء اولوية للمصادر المحلية وخاصة المصادر المائية والغاز الطبيعى .

ومن الإنجازات الضخمة التى حققتها هيئة كهرباء مصر إقامة الشبكة الكهربائية الموحدة التى تضم وحدات ومحطات توليد الكهرباء فى مصر وكذلك محطات المحولات بمختلف الجهود والاف الكيلو مترات لخطوط نقل الطاقة سواء كان الجهد الفائق او الجهد العالى والجهد ٦٦ ونعتبره جهداً عاليا ايضاً . . ولكن اقل منه بقليل وتقوم هذه الشبكة بتغطية الجمهورية من اول أسوان وحتى الإسكندرية شمالا كما تغطى من اول سيناء وحتى مرسى مطروح غرباً . . أيضاً والهيئة تحاول ان تنشر الشبكة الموحدة فى مناطق التنمية الجديدة داخل سيناء نفسها والساحل الشمالى ايضا حتى نهاية الحدود الى السلوم . .

وهذا بإنشاء مشروعات الربط الكهربائى مع الدول العربية عن طريق الجهد الفائق والجهد العالى من خلال سيناء حتى طابا . . ومن خلال الساحل الشمالى حتى السلوم للربط مع ليبيا وبالنسبة للمناطق الاخرى كالوادى الجديد او ساحل البحر الاحمر فاننا نجتهد ايضا

لتوصيل الشبكة الموحدة لهم وقد نجحنا بالفعل فى ان تصل الشبكة الموحدة الى الوادى الجديد (فى مدينة الخارجة) وهذه ستكون ربطا جيداً للوادى الجديد بالشبكة الموحدة .

[والشبكة الموحدة هى شبكة متشعبة من الخطوط والكابلات ومحطات (التوليد والمحولات) متصلة ومترابطة بصورة معينة من الناحية الفنية بحيث إذا ما انقطعت التغذية من أى جهة نتيجة أى عطل كهربائى أو أى عطل اخر ، يمكن الا تنقطع التغذية من هذه البقعة (فهى مؤمنة بالتغذية من جهة أخرى) من هنا جاءت تسميتها بالشبكة الموحدة لأنها مترابطة . .

والشبكة الموحدة موجودة من زمن ليس بالبعيد ولكنها فى تطوير دائم واتساع بإضافة محطات توليد ومحطات محولات وخطوط جديدة وانتشار حسب تطور الأحمال . . عموما فإن الشبكة الموحدة فى الوجه البحرى تتميز بأن الغالب فيها جهد ٢٢٠ ك . ف . وشبكة الوجه القبلى تتميز بأن الغالب فيها ٥٠٠ ك . ف .

ولكننا بدأنا ننشر ٥٠٠ ك . ف حول القاهرة وسنخرج منه فى الوجه البحرى كشبكة رئيسية لـ ٥٠٠ ك . ف مع نشر شبكة ٢٢٠ ك . ف فى الوجه القبلى لتدعيم شبكته بـ ٢٢٠ك . ف .

ومن الانجازات ايضا المركز القومى المسئول عن الشبكة الرئيسية والتى هى ٥٠٠ك . ف و٢٢٠ ك . ف ومسئول مسئولية مباشرة عن أى مناورة أو أى إجراءات تتم فى هذا المستوى .

وأضاف المهندس محمد السعيد عيسى قائلا إن المشروعات التى قامت الهيئة بإنجازها هى :

●● التوليد : المحطات المرتبطة بالشبكة .

التوسيع الأول لمحطة كهرباء أسيوط (٣٠٠ ميجاوات) - توسيع محطة كهرباء السويس الحرارية (١٠٠ ميجاوات) - تطوير تربينات السد العالى (٣٥٠ ميجاوات) - إحلال وتجديد غلايات طلخا (٩٠ ميجاوات) - إحلال وتجديد كفر الدوار (١١٠ ميجاوات) - إحلال وتجديد غلايات دمنهور (٣٠ ميجاوات) .

● المحطات غير المرتبطة بالشبكة :

الوحدة الثانية بالغردقة (٢٥ م . و) - الوحدة الأولى بالداخلة (٢,٣ م . و) - الوحدة الأولى بتوسيع العريش (٥,٥ م . و) - الوحدة الثالثة بالغردقة (٢٥م . و) - الوحدة الثانية بطابا (٢,٣ م . و) - الوحدة الثانية بتوسيع العريش (٥,٥ م . و) - الوحدة الثالثة بطابا (٢,٣ م . و) .

●● الشبكات : محطات المحولات .

محطة محولات جرجا - محطة محولات ميناء ابو قير - محطة محولات سموحه - محطة محولات طما - محطة محولات ربط الخزان - مشروع تطوير الوقاية لشبكة ٥٠٠ ك . ف - محطة محولات سلوة بإجمالى سعة المحطات ٩٧٥ (م . ف . أ) .

● الخطوط :

بهتيم / الزقازيق - ابوزعبل / التبين - اسيوط ٥٠٠ توليد أسيوط (الربط الأول) - العميد / برج العرب (جزء أول) - مصنع ١٠٠ / ٢٠٠ الحربى - أولاد حمام / الجمالية - دمياط / المحلة - أسيوط ٥٠٠ / أسمنت أسيوط - القاهرة ٥٠٠ / ٦ أكتوبر بإجمالى أطوال الخطوط ٢٧٣ كم .

● الكابلات :

أبيس / جميلة بو حريد - سموحه / النزهة / الحراريات - العامرية / المكس - البساتين / قطامية - السبتية / المترو - شبرا الخيمة / المترو - أبيس / محرم بك - العجمى / المنطقة الحرة بإجمالى أطوال الكابلات ٦٠,٠٥ كم .

●● التدريب فى الهيئة :

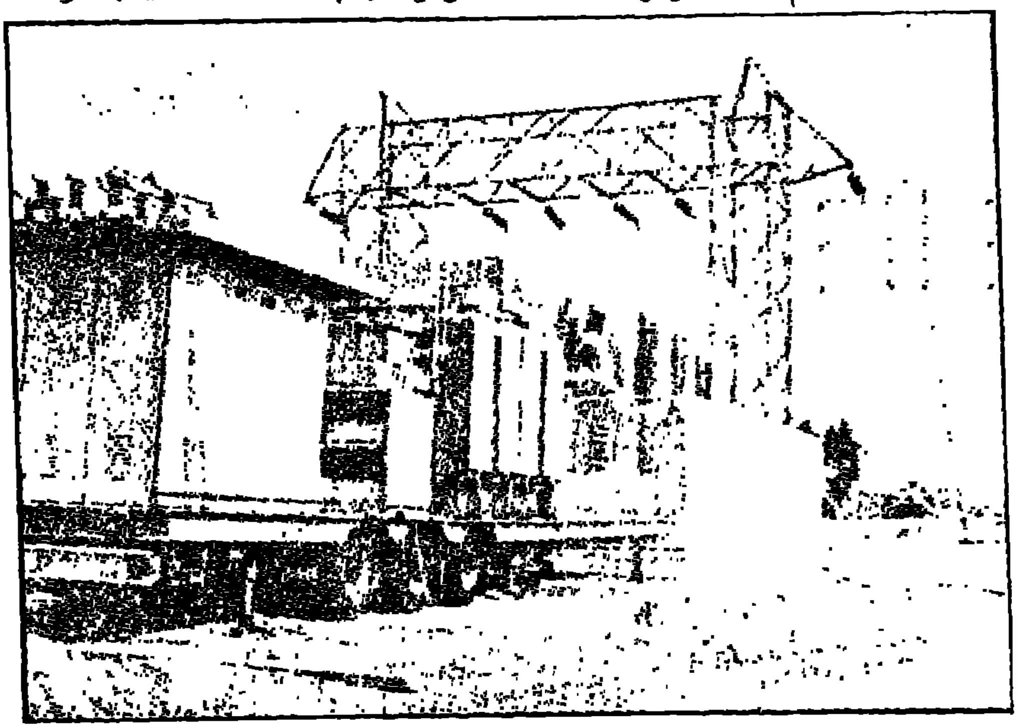
فى إطار سياسة الدولة لتحقيق مبدأ الاعتماد على الذات . . كان التدريب من الأمور التى أولتها الهيئة إهتماماتها . . حيث تم تطوير النظم الإدارية لتواكب التطور العلمى باستخدام

نظم المعلومات المدعمة بالهيئة والمعروف أن مركز معلومات الكهرباء والطاقة يشتمل على نظام للمعلومات يمكنه إدارة عدد هائل ومتنوع من البيانات اللازمة لتدعيم عملية اتخاذ القرار فى مستوى الإدارة العليا حيث يعمل فى هذا المركز مجموعة من المهندسين المدربين .

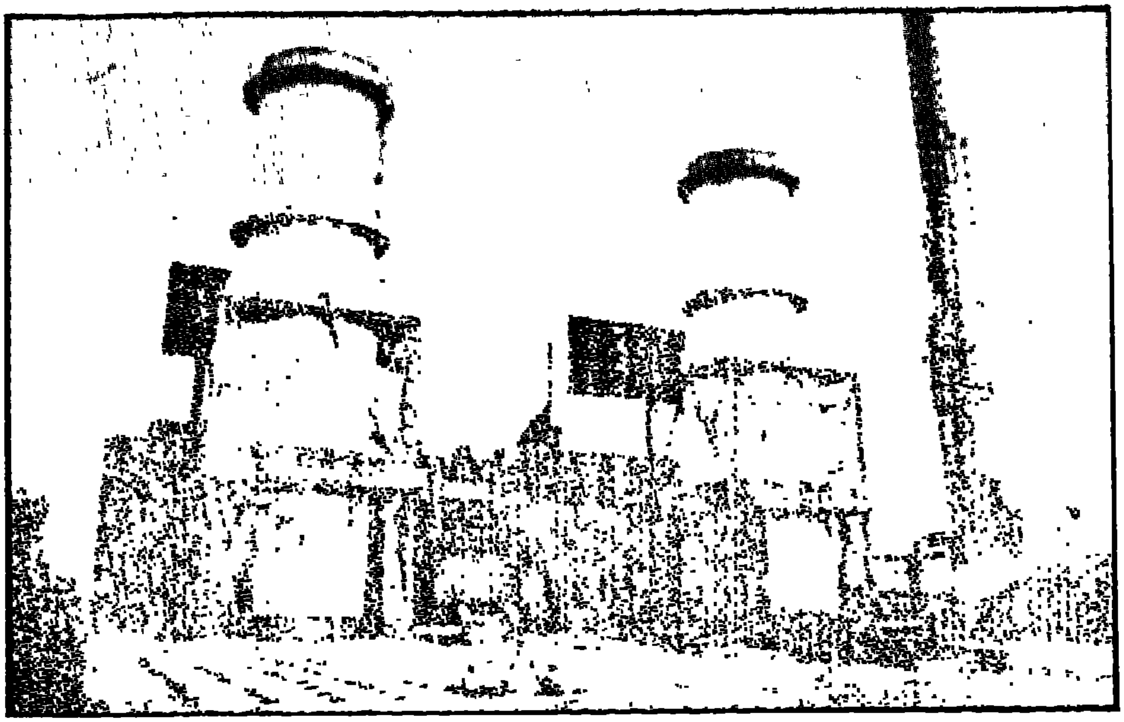
وقد شهدت الخطة الخمسية الثانية إستمرارا لتطوير إمكانات إعداد وتدريب القوى العاملة بهيئة كهرباء مصر ، وذلك بتطوير ورش أجهزة القياس والتحكم الألكترونى فى مركز تدريب شمال القاهرة للمساعدة فى تدريب المهندسين والفنيين فى الهيئة على إصلاح أجهزة القياس الالكترونية التى تشتمل عليها التكنولوجيا الحديثة فى محطات التوليد الكهربائى .

تطوير ورش اللحام ولحام الكابلات وهما من أشد التخصصات احتياجاً فى هيئة كهرباء مصر خصوصاً لحام الضغط العالى لمواسير الغلايات البخارية للمحطات .

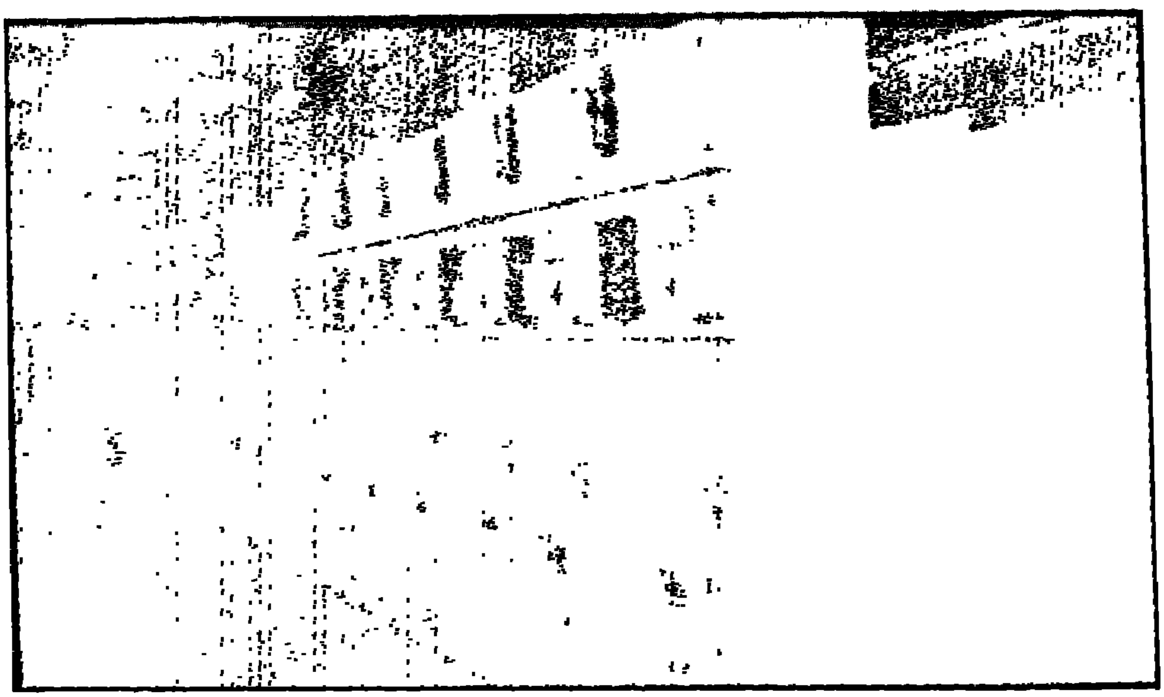
وقد قامت الهيئة بافتتاح مراكز تدريب عديدة منها مركز التدريب المالى والإدارى بشمال القاهرة ـ وتطوير معهد تدريب جنوب القاهرة ـ وإنشاء مركز تدريب أبو قير فى منطقة كهرباء الإسكندرية وحالياً يتم إعداد مركز طلخا وأيضا مركز تدريب المحطات المائية بأسوان .



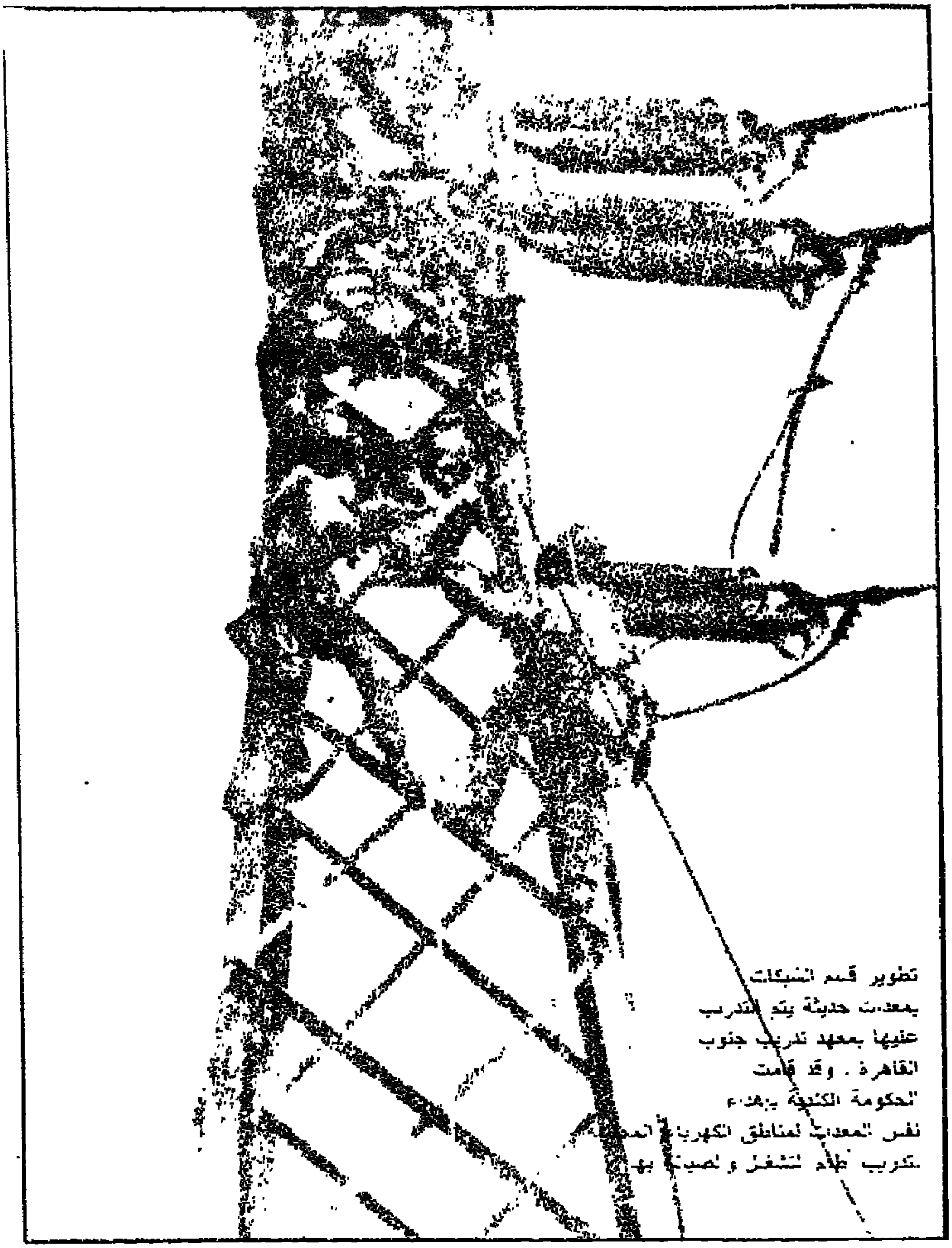
● احدى محطات الكهرباء●



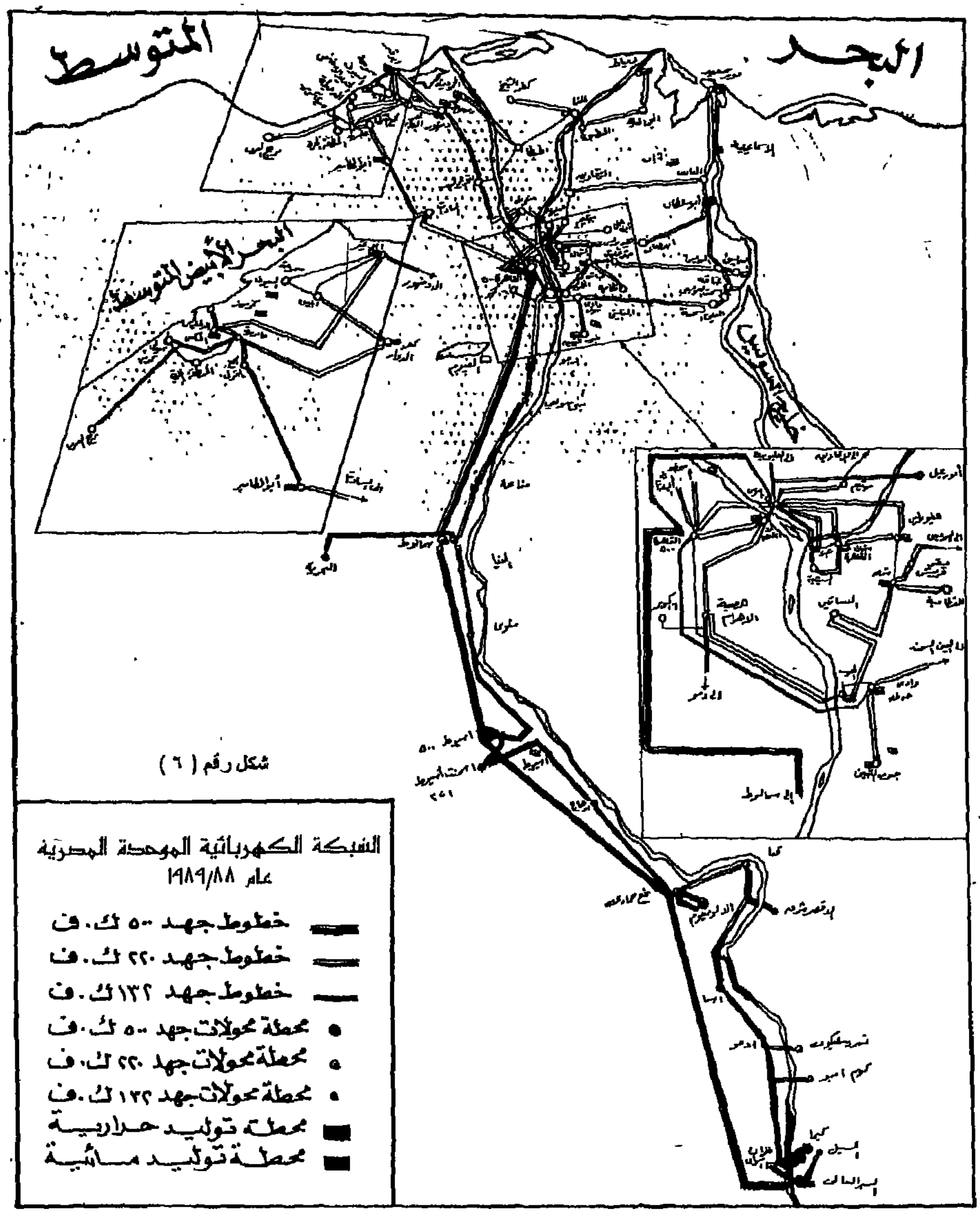
● محطة توليد كهرباء دمياط « الدورة المركبة » من المشروعات العملاقة التى تنفذها هيئة كهرباء مصر فى شمال الدلتا ●



● لوحة توزيع كهربائية جهد متوسط●



تطوير قسم الشبكات
بمعدات حديثة يتم التدريب
عليها بمعهد تدريب جنوب
القاهرة . وقد قامت
الحكومة الكندية بإهداء
نفس المعدات لمناطق الكهرباء المحـ
لتدريب طاقم التشغيل والصيانة بها


البحر
المتوسط
البحر الأبيض المتوسط
الشبكة الكهربائية الموحدة المصرية
عام ١٩٨٩/٨٨
خطوط جهد ٥٠٠ ك. ف
خطوط جهد ٢٢٠ ك. ف
خطوط جهد ١٣٢ ك. ف
محطة محولات جهد ٥٠٠ ك. ف
محطة محولات جهد ٢٢٠ ك. ف
محطة محولات جهد ١٣٢ ك. ف
محطة توليد حرارية
محطة توليد مائية

شكل رقم (٦)

الاتحاد العام لمنتجي ومصدري الحاصلات البستانية

تهدف رسالة الاتحاد إلى تطوير زراعة الحاصلات البستانية لإنتاج أفضل الأصناف المتميزة بإنتاجيتها العالية وصفاتها الممتازة ، وذلك من خلال توفير مستلزمات الإنتاج لأعضائه حيث يقدم لهم البذور العالية الإنتاج من الخضروات وتقاوى البطاطس وشتلات التفاح والكمثرى والخوخ والموز والفراولة من أفضل المصادر والمشاتل العالمية .

كما يقوم باستيراد الجرارات والآلات وأجهزة الرش والمبيدات المختلفة وإرشاد الأعضاء إلى أفضل الطرق لاستعمالها ، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الفدان من هذه الحاصلات التى تميزت بصفات عاليه الجودة ، وحازت شهرة عالمية فى أسواق أوربا الغربية والدول العربية ، وأصبحت مصدرا من مصادر تنمية حصيلة البلاد من العملات الحرة ، وتغطية جزء كبير من الاستهلاك المحلى .

ويحظى البحث العلمى لتطوير الزراعات البستانية وانتاج أفضل المحاصيل وأوفرها انتاجاً باهتمام الاتحاد . ويعتبره ركيزة أساسية فى هذا المجال ، حيث يقوم الفريق البحثى به بالاشتراك مع بعض باحثى وزارة الزراعة والجامعات باجراء البحوث العلمية والتجارب الحقلية لاستنباط أفضل الأصناف وأجودها وأكثرها ملاءمة للبيئة المصرية .

وهكذا يؤدى الاتحاد رسالته وينشرها بين المتخصصين فى انتاج الحاصلات البستانية ، فآمن بها الكثيرون بعد أن لمسوا مصداقيتها وفوائدها ، وأصبح الاتحاد الآن يضم أكثر من ٧٥٠٠ عضو بالإضافة إلى الجمعية العامة للإصلاح الزراعى ، والجمعية العامة للأراضى المستصلحة على مستوى الجمهورية وسبع شركات متخصصة ، وأكثر من أربعمائة جمعية تعاونية زراعية وتسويقية على مستوى المحافظات والمراكز .

العنوان : وزارة الزراعة - الدقى - القاهرة - تليفون : ٧٠٢٤٠٢ - ٧٠١٠٣٤ تلكس ٩٢٣٥٦
تلغرافيا : يونيهار جبت القاهرة ص . ب . ١٦١٠
فاكس : ٧٠٢٢٩٣

الآراء والأفكار الواردة في هذا المطبوع مسئولية المؤلف

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

١٨٧

رقم ايداع ٧٤٤٧ / ٩٢

رقم دولى ٣ ـ ٠١٠ ـ ٢٢٩ ـ ٩٧٧

طبع بمطابع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

٤ جنيهات

طبع بمطابع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر